الجانتينية

معتقداتهم وفلسفتهم

تأليف

الأستاذ الدكتور

محمد حسيني موسى محمد الغزالي

أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

وعميد المركز الثقافي الإسلامي بالشرقية

الطبعة الثانية

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى ....

نبـع الـحـب الصـفي

والخل الكريم الوفي

الأستاذ الدكتور/ أحمد محمد الطيب

رئيس جـامعة الأزهر

مـع خـالـص التحـيـة

وعـظـيـم التـقـديـر

العبد لله

أ. د. / محمد حسيني موسى محمد الغزالي

٢٨ / ١٢ / ١٩٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله به تتم الصالحات، وتقوم جملة الحركات، وتحنو جميع الساكنات، يعلم الخوافي والظاهرات، يدرب أمر الأرضيين والسماوات. ويخرج من الجمار النبات، قال تعالى "يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون"(١) .

وأشهد أن لا إله إلا الله فتق الأرض عن السماوات، وجعل الأولى مما للإنسان مذللات، فكانت الثانية السقف والغطاءات . وبين أن الأرضيين خلقتمن ذرات الماء المتجمدات، ثبتها الله تعالي بالجبال الراسيات، وجعل ساكنيها موضعا للتساؤلات، ثم أمرهم بدعائه في كل الأوقات ، قال تعالى " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين "(٢) .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، ختم الله برسالته الرسالات، وجعل نبوته خاتمة كافة النبوات، وأكد سبحانه وتعالى على أنه يبعث سيدنا محمدا وقد حوى كل المكرمات ، كما أجرى له خوارق جميع العادات ، حتى حدث عنه الماضي والمستقبل بأرق الأحرار والكلمات. وجاء ذلك في آيات الكتاب، ونصوص السنة المطهرة الواضحات .

اللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأمهات المؤمنين النجوم الزاهرات، وأهل العرفان بالله من العلماء والعاملين الذين ينيرون الظلمات، ويأخذون بأيدي الناس من الوهدات، حتى يدلوهم على أقوم الطرق ، وأيسر الممرات، فسرعان وصلوا بهم إلى أعتاب الجنات .

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٥ .
(٢) سورة فاطر ، الآية ٦٠ .

وأرض اللهم عن الذاكرين والعلماء العارفين العاملين بما يرضى رب العالمين، وأكرم اللهم والدينا وذرارينا وأهلينا. بجانب أهل محبتك إلى يوم الدين، وأقبل الله صالح أعمالنا. وبارك في أعمارنا. وأجعل القول الصواب معنا حتى لا نضل أو نشقى •

أما بعد ....

فإن دراسة الأفكار الفلسفية القديمة تعطي المرء صورة واقعية. لما كانت عليه العقلية الإنسانية في مراحلها المختلفة من ناحية، كما تقدم صورة وثائقية لناتج هذه العقلية، بحيث يقف المرء على طريق الصواب. عندما ينحى من طريقة ما فيه هلاكه[١] فإنه سيدرك حتما ما فيه نجاته. ومن وعى ما وقع فيه غده واعتبر ربما نجا ولم يسقط في ذات الحفر •

بيد أن دراسة العقلية الهندية القديمة في الجانب الفلسفي والديني[٢] تستدعى التأمل الطويل كما تساعد على التعرف الدقيق لأنماط السكان وتركيباتهم العرقية والاجتماعية، بجانب توجهاتهم السياسية، كما تسمح بالقراءة المتأنية لملامحهم الثقافية بكل ما فيها من فنون وآداب مع أنظمة الحكم المختلفة، ولذلك كله أثار عظيمة، ونتائج على قدر كبير من الأهمية، سواء أبلغ المرء الغاية أم توقفت خطواته قريبا منها •

ولما كان المشهور أن بلاد الهند القديمة، قد تكونت من أنماط عرقية متعددة، فإن تعدد المصدر الثقافي والعقدي يأخذ ذات الصبغة ، ثم ينعكس أثره ناحية الآداب والفنون

---

(١) من المعروف أن المرء قد يهلك جسديا، أو قانونيا، ثم يسترد ما فقده لكنه إذا خسر علاقته بالله تعالى، فقد خسر دنياه وأخراه •

(٢) الجانب الفلسفي يعتمد على المنتج العقلي المعرفي، لأنه يتعلق بالفكر ومكانة الطبيعي العقل، أما الجانب الديني فإنه يعتمد على الجانب القلبي الوجداني باعتبار الدين أمرا فطريا جبل الله الناس عليه •

بجانب السياسة[١] ، ومن ثم يطرد الأمر في القبول أو الرفض على ناحيتي الإيجاب أو السلب، وهذا مما يؤدي إلى مطالعة جيدة لأنماط الحضارة التي ظهرت في هذه البلاد منذ الزمن البعيد وإلى اليوم

ولما كانت الجوانب الفكرية في الهند القديمة قد تعددت ، فإن هذا التعدد قد نشأت عنه جماعة اختلفت في أصولها العرقية . ثم اختلفت في توجهاتها السياسية والثقافية بدليل أن الذي يحاول تقديم إحصاء كامل لهذه النماذج ، يجد صعوبة كبيرة في الوقوف عليها وبخاصة أن مسمياتها كثيرة كما أن المناهج التي تقوم عليها متنوعة إلى الحد الذي يراها القارئ المتسرع متباعدة •

والجانتينية أحد هذه المراكز أو الاتجاهات الفكرية ، التي كان لها وجود مستقل أبان الزمن القديم بأرض الهند ، ودارت حولها العديد من الجوانب باعتبار التسمية والنشأة، بجانب أبرز الزعماء، وأخيرا أهم العقائد التي قامت عليها، ثم الفلسفات التي عبرت عنها ، أو نسبت إليها، ثم يأتي دور المجتمع في التعرف عليها، والآثار التي نهضت في عقبها •

من المهم القول أنني لا أعني بالسرد التاريخي أو أن يقوم أمر البحث على قضايا حكوية فرغت من مضامينها ، لتصب كلها في قالب يقف عند الظواهر دون أن يقدم شيئا فيها ، وإنما لا بد لي من إعادة النظر في هذه القضايا التي صارت عقائد لأصحابها ، وكذلك الفلسفات التي اعتبرت ميثاق العمل عندهم وحتى يمكن تقديم صورة نقدية من خلال تقويم المعوج ، وتقييم الثابت ، على أن يكون المعيار الدقيق النصوص الشرعية •

---

(١) تعرضت لبعض ملامح هذا الجانب أثناء الحديث عن ملامح الفلسفة الهندية، فراجعه في كتابنا الفلسفة الشرقية القديمة، حيث تعرضت لبيان الجزئيات الأساسية في الفلسفة الشرقية على وجه العموم •

ولا يغـرب عـن ذي بـال أن القضـايا الـتي سأتعرض لها ، إنما هي معطيات سجلها الـتاريخ الإنساني العام . وقدم لها منذ زمن بعيد، وبالتالي فان تناولي لها يكون مسئولية خاصـة، تسـمح لـي ببـيان وجهة نظري، كما تتيح لي فرصة النقد الموضوعي، وهي مسألة غايـة في الأهمـية، بل تحتاج الكثير من العناية في التناول ، والدقة عند إصدار شيء من الأحكام •

فـان أكـن قد وفقت لبلوغ ذات الغاية، فذلك أمر قدره الله، ويسر أسبابه لي وهو صاحب الفضل والمنة، وأن تكن الخطأ قد ضاقت، والنتائج بأرحام أمهات الأفكار اعتصمت، فما ذلك إلا من ألطاف الله، وأحسبه نوعا من تقصير نفسي •

والله أسأل التوفيق والسداد إنه نعم المولى ونعم النصير

د. / محمد حسيني موسى محمد الغزالي

غزالة الخيس - مركز الزقازيق - شرقية

وكان الفراغ منه فجر الاثنين الأول من ربيع الأول سنة ١٤٢٢ هـ


الفصل الأول
التعريف بها وأبرز رجالها

تعتبر الجانتينية - القاهر العظيم - أحد الفلسفات الهندية القديمة ، التي ظهرت إبان عصور التاريخ القديم، حيث كانت الوقائع تسجل بصورة خافتة في كثير من الأحيان، كما كانت الآلهة المعرفية هي النظام الديني السائد[1] وقد امتدت التصورات العديدة ثم تنامت مع الأنظمة الإجتماعية والسياسية. كما تعانقت الثقافة المحلية مع الأفكار الشعبية •

بل أن هذه الأفكار والثقافات المتباينة، قد مارست ضغوطا شديدة على وجدانات أصحابها واتجاهاتهم المختلفة حتى دفعت بهم إلى البحث عن قيادات مستمرة، تتمكن من دفع هذه الأفكار للأمام[2] ثم تضيف إليها باستمرار ما يعضد تلك المسيرة، ومن هنا أمكن رصد العديد من الظواهر التي تابعت ذات الأفكار الهندية القديمة، بعضها قام به أشخاص استطاعوا احتلال مركز الزعامة في أي صورة من صورها ، وبعضهما حملته أفكارهم، وبعضهما كان الموقع أو الواقع هو المتحدث الرسمي عنه •

في نفس الوقت اختلفت المفاهيم المراقبة للأحداث في تحديد زمان ظهور هذه الفلسفات الهندية وتاريخ النشأة من الناحية الواقعية أو العملية[3] بجانب المؤلفات التي كانت المعبر الفكري عن هذه المدارس الفلسفية، وبناء عليه سأتناول ذات الجوانب طبقا لما يلي :-

أولا : التعريف بها

يقوم التعريف على العديد من الجوانب، بعضها قد يكون هو الغالب منذ البداية، وحيث قررت السير في المسألة طبقا للمنهج الذي دربت نفسي عليه ذاكرا جملة من الاعتبارات ، فلا بد من الحديث عن :

١ - التسمية :

تعددت الآراء بشأن هذه التسمية ، وتعليل كل اسم منها، بما يوحي للقارئ غلبته لغيره، وأبرز هذه التسميات يمكن التماسها من خلال ما يلي :

---

(١) الآلهة المعرفية مصطلح أراه ينطبق على الآلهة التي يصطنعها خيال أصحابها، ثم تسعى عقولهم إليها حتى تؤكد عليها دون أن تكون لها ارتباطات بالقلب على وجه يقيني •

(٢) هذه القيادات يمكن النظر إليها باعتبارها المفرخ الذي جاء منه زعماء ذات الأفكار، وانطلق من خلاله قادة المدارس الفكرية في كافة البلاد الهندية والصينية •

(٣) هذه الجوانب تتعدد ، ومن ثم فليس من الصواب حصرها جميعا في إطار واحد ، أو وضعها في قالب بعينه •

الأول : سميت بالجانتينية، نسبة إلى أحد الزعماء الذي عرف باسم "جنا" ومعناه عندهم "القاهر". ثم طوروا في الاسم فصار "جانتي" ومعناه "البطل العظيم" أو "القاهر الشديد"[١] وأخيرا أطلقوا عليه اسم "ماهافيرا" ومعناه "البطل الزاهد القاهر"[٢]، وتكررت هذه التسمية، حتى صارت موضع السلوى من أنفسهم، بل عقيدة ثابتة في ضمائرهم وقلوبهم. وقد امتد هذا الأمر فغطى لديهم كافة الاتجاهات الأخرى .

كما باتت هذه التسمية بمثابة القاعدة العامة التي ينطلقون منها . في كافة توجهاتهم الفكرية . ويحكمون من خلالها على الجوانب المتعلقة بالحضارة في كافة مظاهرها .

من المؤكد أن هذه التسمية قامت على أسس عقدية، دعمتها مفردات أسفار الهند القديمة، وبخاصة أسفار كل من الفيدا، واليوبانشاد[٣]، وهما من أقدم الآثار الفلسفية والنفسية ، بل والتاريخية التي عبرت عن خيال هذه الأمم وأحلام مفكريها، حيث كانت هذه الأسفار وغيرها تسعى للتأكد على أنها داعية للعلم أو على أقل تقدير تقوم بالإنصات للعالم، ومن هنا جاءت التسمية التي عبرت عن الاعتقادات والأفكار الفلسفية بل المبادئ الأخلاقية أيضا .

الثاني : يذهب البعض إلى أن ماهافيرا أو البطل العظيم اختار لجماعته اسما مشتقا من أفكارهم العقدية، عرف ذات الاسم بالمذهب الجانتيني[٤] ومن ثم فلا وجه لتعليل التسمية، وإلا كنا كمن يبحث عن تقديم تعريف للعقل بالعقل، أو تعريف اللفظ

---

(١) راجع توماس فيزر– الحضارة الهندية القديمة ، صـ ١٥٣ ترجمة ظافر خيري ، ط. أولى سنة ١٩٨٧ .

(٢) وهذا الإطلاق يحمل الصبغة التركيبية التي كانت سمة سائدة لدى سكان هذه البلاد في فترة من الزمان، بغض النظر عن كونها مقبولة أو مرفوضة، أو تجمع بين متكاملات أو متناقضات فذلك أمر لم يدر لهم بخلد .

(٣) اليوبانشاد ومعناه الجلوس بالقرب من مراكز العلم، أو هي الجلوس للعالم أو للعلم مباشرة، ثم تطورت الكلمة حتى صارت ذات تركيبة دلالية على المذهب الغامض الملغز الذي كان يسر به المعلم الهندي لخيرة تلاميذه، وأحبهم أليه، راجع لأندريه جيد – الأسفار الهندية القديمة صـ ١٩٥ .

(٤) MORES UASSE. What is the hastore. G. 135

باللفظ، وهي كلها تعاريف غير مقبولة، وتعليلات لا تنهض لها أدلة حقيقية، كما لا تعتمد على مناهج صحيحة يمكن الرجوع إليها ، عند الاحتكام ، أو يمكن النظر فيها بشيء مقبول •

الثالث : إنها سميت بالجانتينية. نظرا لكونها مذهبا رمزيا غامضا يعبر عن علاقة متميزة بين المعلم وتلميذه. فإذا حاولوا التعبير عنها أمام الآخرين لجاؤا إلى الرمز المغرب والعبارة الغامضة، وربما استخدموا الإشارة الموحية[١] ، فهم بهذا العمل يدعمون قاعدة وجدانية عمادها التخفية حتى لا يعرف الآخر ما تخفيه النفوس ، أو تطويه الضمائر والوجدانات، كالحال مع اتجاهات اصحاب القضية •

الرابع : أرجع التسمية إلى وصف عام، فيقول أن الجانتينية هي الجماعة الذين لهم اتجاهات عامة ذات انطلاقات متميزة ، عندما يريدون التعبير عن أفكارهم الخاصة، وعقائدهم الذاتية ، لا يعملون على إظهار شيء منها لغيرهم تحت أي ظرف[٢] •

ومن ثم فهم كباقي المذاهب الباطنية التي كان لها وجود مستمر، وامتداد متواصل داخل الحضارة الهندية القديمة، وأمكنها التغلغل فيها حتى طبعتها بطابعها الخاص، كما أثرت فيها بالعديد من صور التأثير بناء على القاعدة القاضية بأن الإنسان ابن بيئته يؤثر فيها ، كما يتأثر بها بالقدر الذي يسمح له •

لم تكن هذه الآراء التعليلية وحدها هي الموجودة بالنسبة للتسمية[٣]، وإنما ظهرت آراء كثيرة لكنها ترجع في مجملها إلى ما سبق ذكره •

الخامس : يذهب " كراوس" إلى أن الجانتينية سميت بهذا الاسم نظرا لكونه تعبير عن المذهب الفلسفي الغامض[٤]، الذي لا يعرف عن نشأته إلا القليل من المعلومات المتناثرة •

---

(١) توماس فاندر - الحركة العاقلة في الفلسفة الهندية صـ ٤١ ، ترجمة صفاء مرسي سنة ١٩٦٥

(٢) الدكتور فادي محسن السروي – حضارة الهند القديمة، صـ ١٧٢، ط. الثالثة سنة ١٩٨٧ •

(٣) لمعرفة جوانب هذه التسميات، راجع لمحسن عبد العظيم، ديانات الهند القديمة، صـ ٧٣ / ٨٥، وللأستاذ / توفيق صابر- الفلسفة الهندية القديمة صـ ٦٧ / ٧٣ وما بعدها، وللأستاذ / زكي طه- الهند فلسفة وحضارة، صـ ١٨١ / ١٨٧ •

(٤) راجع لتوماس فاندر- الحركة العاقلة في الفلسفة الهندية صـ ٤٧ و٤٨ •

السادس : يرجح "جوان" هذه المسألة قائلا، لم تكن الجانتينية معروف في الهند إلا من خلال أتباعها . الذين ظهرت لهم اتجاهات منظمة وملامح لم يشاركهم فيها أحد آخر، حيث كان الواحد منهم يضع شارة على ثوبه تميزه عن غيره من الناس، فإذا تلاقى مع أعضاء الجماعة تعرفوا على بعضهم بسهولة واستطاع كل منهم تغيير مواقفه معهم بنفس القدر ، من السرعة والمرونة .

يقول " داني" لم يكن من السهل التعرف على أفراد هذه الجماعة أو تلك الطائفة، لكن الملاحظات العابرة هي التي جعلت الناس جميعا يلتفتون إليها، ويسارعون إلى تتبع أفرادها، وفي النهاية أطلقوا عليهم اسم أصحاب المذهب الغامض، ثم تطور هذا الإطلاق حتى وصل إلى القول بأنها الجماعة السرية، أو الجماعة ذات الاتجاهات التي ليس لها أي نوع من أنواع الإلف والعادة، كما أنها تفتقد أهم العناصر المكونة لها من الناحية الصحيحة[١] .

السابع : يذهب أصحابه إلى أن الجانتينية معناها الديانة العظيمة القاهرة للديانات الأخرى ، في أرض الهند القديمة ، وتحمل على عاتقها عبء إعادة الحياة العقلية التي وضعها الطبيعي من تلك الأخطار والمعتقدات، حتى تبلغ القمة، وتحوز فصل السبق وتتمكن من الانتصار[٢] .

وهي تسمية تحمل الإرهاب والعنف بجانب النزعة العنصرية ، ولا تتفق مع الاتجاه العام الذي نقل فكر هذه الطائفة، كما يبتعد تماما عن الطبيعة التي كان عليها ماهافيرا نفسه، الذي كان يطالب بالتسامح، ويسعى للوفاق، ويحاول جاهدا توظيف إمكانياته لخدمة الجماعة التي يعيش بينها .

وفي تقديري أن كل التسميات يمكن اعتبارها صحيحة على ناحية من النواحي ، أما لماذا؟ فلأن من ذهب إلى اعتبار المبدأ والصفة الغالبة ، من كونهم أصحاب سلوكيات وأفكار

---

(١) جورج رامز داني – الأساطير الهندية القديمة، صـ ٢١٧، ترجمة سعيد السيد صابر، ط. أولى ١٩٧٥ .

(٢) ديفيد هونكر المعتقدات الدينية الشرقية القديمة، صـ ١٣٧، ترجمة وفاء صابر ط. الربط سنة ١٩٦٣ .

سـرية، يـتلاقى مـع مـن اعتـبرهم الأقـرب للمعلم، على أسـاس أن الاقتـراب من المعلـم يسمح لصاحبه بتلقي المعلومات الدقيقة وكذلك التي تبلغ حد الخصوصية[١] .

وهـي ذات المعـنى الذي يمكن أن توصف به الأمور التي لا يتم الإعلان عنها . ولا يمكـن الـتعامل معهـا إلا في الخفـاء مـن خـلال السـلطان القاهر ، أو الإنسان ذي القدرات الخارقـة . وقـد كان هؤلاء يزعمون لأنفسهم قـدرة على ممارسة هذه الأمور بذات القدرة الخارقة. فالإطلاق كتوافق مع الاتجاه العام عندهم.

لكـن إذا تم اسـتعمال هذه الاطلاقات، أو ذات التسميات في الماضي بنفس المفاهيم فهـل يمكن السير معها والتمسك بها في الوقت الراهن؟ أم لابد من التعرض لعملية موازنة بـين الماضـي والحاضـر، وهـل يمكن تحميل الألفاظ القديمة معان جديدة تؤدي إلى نتائج أكـثر إيجابـية، بحيـث تتوافق مع المعطيات الجديدة، دون أن تنبش قبور الماضي، أو تأكل من جثث الموتى التي أصابها البلاء[٢] وأمست في البلى ؟ !!

أخلـص ممـا سـلف إلى مـا أراه جديـرا بـالقول ، وهـو أن للهالجانتينية لله بالمعنى الحرفي تسمية تطلق على جماعة بعينها بالإطلاق الخاص، كما يتسمى بها أصحاب المذاهب السـرية والتعالـيم الشـفوية بوجـه عـام، وتستعمل مع ذوي الاتجاهات التي تعيش تحت سيطرة البطل الأسطوري بصفة ، أو إطلاق معين .

ثانيا : مكان وتاريخ ظهورها

تعـددت الآراء بشـأن مكان وجودها ، وتـاريخ ظهورها ، كالحال مع ما سلف من أمر تسـميتها، ونظرا لهذه التعددة فقد رأيت القيام بالتقاط الآراء التي أراها أكثر رجحانا من غيرهـا مـع نسـبتها لأصـحابها، ثـم تعليقي عليها بما أجد أدلته قوية ، أو افتعال القبول العلمي . وتصح على الطريقة المنهج النقدي .

---

(١) المعلوم أنـه كلمـا كانت العلوم والمعارف تجيء عن طريق المشافهة والتلقي، فإنها تتخذ صورا عديدة من السرية وعدم الإعلان، حتى تكون تلك من أهم سماتها وبخاصة في العلوم النظرية ، وعند نشأة الجماعات أو الفرق التي تعيش في ظل أو تنمو تحت جنح الظلام .

(٢) هذا التسـاؤل مشروع ولا يمكن تجاهلـه، علـى أسـاس أن مـا وقـع فـي الماضـي قد يصلح للاستعمال في الحاضر وقد لا يصلح لشيء من ذلك أبدا، ثم أن الأجساد التي أصابها البلاء قد تفنى، فتقع في البلى وقد لا تقع فيه إذا كانت مما نصّ عليها في النقل الصحيح .

الـرأي الأول : يـرجع الباحـثون وعـلماء التاريخ أمر ظهورها إلى القرن السابع قـبل الميلاد كأفكار تجري في رؤوس أصحابها، أما على ناحية التنظيم والتعقيد فإنها ترتد إلى مطالع القرن السادس قبل الميلاد وبالتحديد في الفترة ما بين أعوام ٦٠٠/٥٢٧ ق.م. حيث ولد ماهافيرا، أو البطل العظيم(١) ، الذي وضع أسس الفكرة ، ونظم أمر الجماعة ، وراحت تعالـيمه تـنقل يـتم تداولها على أنها مقدسة لا يجوز الخروج عليها أو الانفصال عنها •

الـرأي الـثاني : يذهب أصحابه إلى أن الجانتينـية لا يمكـن ارتباط ظهورها بشـخص ماهـافيرا ، لأنها قامت في الأصل لمواجهة المدارس الشكيه التي ظهرت بأرض الهند قديمـا، وكذلـك مدرسـة العدمـيين، الذيـن أطلقـوا عـلى أنفسـهم اسـم أصـحاب مذهب " اللا أدرية " وهو قـديم يمتد إلى القرن التاسع قبل الميلاد، كما أن أسفار الفيدا قد نبهت إلى وجود كل من الجانتينية وأصحاب الاتجاهات الشكية السوفسطائية(٢) •

لكـن أدلة هذا الرأي لا تـنهض لصالحه، لأن المدارس الشكية التي حملت اصطلاح السوفسـطائية ظهـرت في اليونان ، مع مطالع القرن السابع قبل الميلاد على أكثر تقدير، وأن سـقراط سـعى لبيان فسادها ، وجهوده في ذات المسألة ليس من الصواب تجاهلها ، وبناء عليه فلا يكون ظهور الجانتينية مرتبطا بالسوفسطائية لأنها قد ظهرت قبلها ، وإلا فكيف يمكن تصور ذلك ؟

الـرأي الثالث : يقرر أصحابه أن ظهور الجانتينية قد جاء مقترنا بظهور حركة العدمـيين ، الذيـن احتقروا الكهنة ، ورجال الدين ، وشككوا في وجود الآلهة، فكان وجود أصـحاب المذهـب الجانتـيني بمثابة رد الفعل المباشر الذي يتم به مواجهة جيل هؤلاء(٣)، لكن متى تم ذلك من الناحية التاريخية ؟ لا توجد إجابة ولو احتمالية حول هذه المسألة •

---

(١) راجع لبول ديوزنت - قضية الحضارة، المجلد الأول- الجزء الثاني صـ ٢٥٧ ، ولآجري - الحضارات القديمة صـ ١٧٥ •

(٢) توماس ريز – الهند أرض الفلسفات القديمة، صـ ٤٧- ترجمة صابر حسن، ط. أولى سنة ١٩٥٧ •

(٣) ديفيد انطوان بيلس- الديانات الشرقية القديمة، صـ ٢٣٤ ، ترجمة هناء سلطان، ط. الثانية سنة ١٩٦٧ •

كما أن ارتباط الوجـود للجانتينية لحركة فـكرية . بظهور السوفسطانية كـحركة فكرية يستدعي حشد الأدلة التاريخية، بجانب الوقائع التي تدعم الموقف، إذ لا يعقل أن تكـون كـل مـنهما غير معلومة الحدوث في تاريخ معين، ومن ثم فلا يعتبر هذا الارتباط من الشواهد على تاريخ ظهور أي منهما مادام عدم الارتباط قد وقع بينهما •

الـرأي الـرابع : أصـحاب الاتجاهـات الانتقادية ، وهم الذين يرجعون تاريخ ظهور المذهب الجانتيني إلى ظهور حركة النقد العنيف التي ظهرت في الهند القديمة ضد رجال الدين المتشددين . الذين تمسكوا بالعقائد الدينية، حيث صنعتها عقول الكهنة •

حتى أنهم شبهوا رجال الدين عندهم بموكب الكلاب امسك كل منهم بذيل سابقه ، وهـو يقـول في ورع كـاذب، دعونا نأكل، دعونا نشرب[1] لكن متى تم ذلك ، أو في أي عصر يمكـن البحث عـنهم من خلاله[2] ؛ كل هذه وغيرها من التساؤلات المتماثلة معها لا توجد إجابة كافية لها •

الـرأي الخـامس : ويذهـب أصحابه إلى أنها ظهرت كحركة فكرية تعبر عن رد الفعـل المباشر والمنظم في مواجهة الأفكار الإلحادية ، التي راحت تهز المجتمع الهندي هزا عنـيفا، وتسـعى لإسـقاط قيمه الثابتة، بجانب السخرية من معارفه القائمة[3] ، ومن ثم اعتبرت بمثابة الحركة الإحيائية للقديم الثابت ، وأطلقوا عليها اسم "الجانتينية" نظرا لبرنامجها الذي أعلنته •

والواضـح أنهـا بـدأت في أواخر القرن السابع ، وأوائل السادس قبل الميلادي، وأن مكان ظهورها كان بأرض الهند القديمة، حيث ولد زعيمها في إقليم بهار الذي اعتبر منطقة الانطلاق الأولى ثم امتد إلى أواسط الهند، من ناحية المبتدأ أو الميلاد

أمـا مكـان ظهورهـا كحـركة عقلية ذات اتجاهات كهنوتية فكان من إقليم البنغال، حيـنما انـتقل إلـيه ماهـافيرا زاهـدا متقشـفا تاركا مسقط رأسه – بهار – متخليا عن كل

---

(١) Chand Upan I,12; Radhakri-Shnan I, 149

(٢) لأن البحث عن أي اتجاه فكري يستلزم الوقوف على العصر الذي ظهر فيه، والمؤثرات التي كان لها دور كبير بالنسبة له •

(٣) سينحاروف سرنيف – الحركات العاقلة في الشرق القديم، صـ ١٣٧ / ١٣٨ ، ترجمة زهدي صابر، ط. الأسد سنة ١٩٨٧

الأمـوال الـتي تركـتها له أسرته(١) . وفي البنغال ظهرت له الآراء والمعتقدات التي تعبر عـن فكره . كما أمكن له التعبير عن مضمون الفلسفات والطقوس والأفكار. وهذا الرأي هو الذي ترجح أدلته عندي لاعتبارات عديدة أبرزها :

أ - أن الآراء السـالفة لم تـتعرض لمكـان ظهورها إلا تعرضا خفيفا ، ومع هذا يقع فـيه الاضـطراب مـن النواحي العديدة ، مما يؤكد أنها اعتمدت على التخمين(٢) ، ورتبت طبقا لقاعدة الاحتمالات التي لا تهتم بالسعي نحو الأدلة العلمية الصحيحة •

ب - أن هـذه الآراء لم تعر أي اهتمام للاتجاهات المتباينة فتسعى للتوفيق بينهما أو تعمل على بيان صوابها من الخطأ وتلك مسألة مهمة، بل الواضح أن كل فريق منها اعتمد رأيـا بعيـنه ، ثـم سعى للتأكـيد علـيه ، فكانـت النتـيجة في ذهـن أصـحابه سابقة على المقدمـات(٣) ، بحيـث يمكـن القـول بـأنهم اعتقدوا الرأي أولا ، ثم حاولوا إثبات صدقه ثانيا. ولو عكسوا لكان لرأيهم وزن علمي مقبول •

جـ - أن أغلب الآراء التي تعرضت للمسألة وقع فيها الربط بين الحركة الفكرية والعقـيدة الدينية، مع أن أرض الهند لم تكن فيها عقائد ثابتة بقدر ما كانت مجموعة من الأفكار التي تتناولها الرؤوس . فإذا مضى عليها زمان بعينه اعتبرت مقدسة(٤) •

ثم تأتي مرحلة تابعة لها وهي اعتبارها عقائد، وذلك من شأنه قلب الموازين، ولي أعـناق الحقائق ، حتى تبلغ لدى المستمع الرأي الذي يسعى إليه صاحب الفكرة، ويعبر عن وجهة نظره فقط ولا شك أن هذا التناول لا يكون مضمونا من الناحية المنهجية •

---

(١) هذا التخلي كان من أهم العوامل التي جعلت له قبولا بين الناس وخاصة أتباعه الذين اعتبروه زاهدا، كما نظروا إليه على أساس أنه المثل الأعلى، وذلك من شأنه أن يضيف لرصيده في أذهانهم أكبر قدر من الثقة فيه والتعلق به •

(٢) قاعدة التخمين تكون مقبولة إذا كانت في حدود المعقول أما إذا خرجت عنه فإنها تصير ضربا من الخيال أو العبث، وهي غير قاعدة التخمين في العلوم الطبيعية •

(٣) وهذا من شأنه إقامة أحكام غير صحيحة، والتمسك بنتائج لا يدعمها الواقع العلمي أبدا •

(٤) من الملاحظ أنها ابتدأت ، على أنها جملة من الأفكار الرأسية ،التي تجول في عقول أصحابها، ولم تكن عقائد أبدا ، وبالتالي فتحويلها إلى غير ما هي عليه تم من خلال مراحل عديدة •

ثالثا : أسباب ظهورها :

من المعلوم لدى المؤرخين أنه بعد ظهور أسفار الفيدا في الهند ، برزت حركة فكرية بعضها التزم الموضوعية . وسعى لتأمل ما في الأسفار الفيدية. ثم حاول الاستفادة بها على الوجه الأمثل ، معتبرا أن هذه الأسفار تغطي احتياجات الإنسان العقلية ، كما تنضبط بها السلوكيات اليومية . وبجانب ذلك فإنها توفر الاحتياجات الفردية من العلم والثقافة والدين[١] . وبالتالي فقد كانت نظرة أصحاب هذا الاتجاه لأسفار الفيدا نظرة تقدير وإعجاب ٠

في نفس الوقت . نظر إليها آخرون على أنها خيال عابث، لا يمكن النظر فيه دون أن تنال المرء غصة. وتستولي عليه الحيرة ، ويداخله القلق والشك ، لأن ما فيها من تعاليم قد انعقدت في الفكر الشعبي، فصارت مرآة للتخلف ، كما عكست الهمجية ، وعبرت عنها من خلال عبارات يمكن مراجعتها ، أو تكرارها[٢] ، لكن لا قيمة لها ، ولا يمكن العمل بها ٠

بيد أن المطالع للحركة العقلية الهندية بعد ظهور أسفار الفيدا ونشرها بين العامة تبدو أمامه ملامح حركات شك سوفسطائية بالمعنى الفني أو الاصطلاحي [٣] - شملت أرض الهند كلها ، فأتت على الأخضر واليابس ، كأنها ريح عاد التي سخرها الله تعالى عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، بدليل أنه لم يوجد مكان في أرض الهند إلا أصيب بهذه الأفكار الشكية إصابة بالغة، وجاءت نتائجها مدمرة ، من ثم فسأحاول إبراز هذه الأسباب فيما يلي :

---

(١) راجع لإلياف زوفر – الأسفار الهندية القديمة، صـ ٧٣، ترجمة خيري صالح، ط. أولى سنة ١٩٨٧ ٠

(٢) أندريه جاكوفي – الديانات الهندية القديمة، صـ ١٣٥، ترجمة حسن السيد، ط. ثانية سنة ١٩٦٣ ٠

(٣) هذا الحكم لا يعني أن السوفسطائية ظهرت في الهند قبل ظهورها في اليونان، وإنما معناه أنه قد تم تصنيف هذه الأفكار التي صاحبت ظهور أسفار الفيدا أمكن القول بأنها كالسوفسطائية في المقدمات والنتائج ٠

١ - ظهور أسفار الفيدا :

يذكر المؤرخون أن هذه الأسفار الهندية القديمة لما ظهرت وانتشرت بين الكهنة الأوائل . وصار الناس يسمعونها ويرددونها اندفع البعض إليها على أن فيها الخلاص مما تعاني منه الأمة الهندية. وبخاصة أنها جمعت بين الحديث عن آمال الأمة وأحلامها من جهة[١] ، كما ألمحت إلى الطرائق التي يمكن الاستفادة بها حتى تخلص النفس مما تعاني ، سواء أكان هذا الخلاص روحيا أم بدنيا . ثم تطورت قراءتها فأيقظت الجانب الروحي القلبي . وجعلته يتغلب على الجانب المادي ٠

ومن هنا حدثت حركة نشطة داخل البلاد داعية للزهد ، والتخلص من شهوات البدن ، بجانب التخلي عن الشرور والآثام[٢] إن لم يكن كليا فعلى الأقل يتم ذلك من الناحية الجزئية ، وإذا لم يتم في أرض الواقع ، فلا مانع من وجوده في عالم الخيال ، بحيث إذا واتتهم الفرصة لتحقيقه تم ذلك على الوجه الأمثل ٠

ونظرا لهذا الانقلاب الفكري الذي أحدثه ظهور أسفار الفيدا في المجتمع لهندي بصفة عامة ، فقد صارت تلك الأفكار تجري بين الناس مجرى الهواء كل يأخذ منها رغما عنه ، أو طلبا للحياة ، وقد تمادى البعض في هذه التصورات، وبات من المؤكد ظهور حركات فكرية تكون امتدادات طبيعية للآثار الفيدية[٣] ، وتخالف الاتجاهات القائمة لدى أصحاب الفكر الهندوسي ، ولا مانع من تلاقيها مع بعض نتائج الأفكار البراهمية ٠

كذلك أحدث ظهور أسفار الفيدا الكثير من ردود الأفعال المتباينة، بعضها يعاندها ويسعى لهدمها وبيان تهافتها مهما كانت المبررات ، وهم أصحاب الفكر التقليدي الذين يرون في المحافظة على المأثور ضرورة ويعتقدون أن الخروج عليه إهدار لقيم ثابتة وهدم

---

(١) وذلك مما يؤكد أن كاتبي أسفار الفيدا كانوا من أبناء هذا الوطن الذين تطلعوا إلى حياة زاهية، فإن لم يتمكنوا من ذلك في عالم الواقع، فعلى الأقل يمكنهم القول به في عالم الخيال كالحال مع أصحاب اليوتوبيا أو المدن الفاضلة ٠

(٢) راجع لاليف زوفر – الأسفار الهندية القديمة، صـ ٧٩، لسيرغي ا توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم، صـ ٣٣٥ ، كتابنا تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية ٠

(٣) والقاعدة أنه كلما مست الأفكار الجديدة جانبا من حياة الناس حتى لو كان هامشيا، فإنهم يتعلقون بها، طبقا لقاعة أن كل جديد يجد له صدى يمكن تقيمه بقدر الجديد ذاته ٠

لقواعد صحيحة. ومن هنا ظهرت الجرأة في نقد القديم والجديد[١] .

وبناء عليه . فلم تسلم لأصحابها أفكار تناولتها الهندوسية ولا الأسفار الفيدا. كما لم تخرج عن هذا النقد العنيف لأفكار البرهمية أو البوذية. وإنما راح كل فريق يتمسك بما بين يديه. ينافح عنه. ويقاتل في سبيله. فترتب عليه ظهور الشك العنيف في التراث الفكري الهندي كله .

٢ - ظهور الجماعات الشكية :

عندما ظهرت أسفار الفيدا وما صاحبها من حركة النقد العنيف. بات المجتمع كله غير آمن في أفكاره ومعتقداته . كما تعرضت قيمة وآدابه إلى ما يشبه الزلزال الذي يدمر كل شيء ولا يبقي على شيء أبدا ، ومن ثم أسفرت الجماعات السطحية عن نفسها، وخرجت من بين الأحداث معلنة ضرورة الشك في كل شيء ، بدءا من القيم إلى الدين ، مرورا بالحياة في كل مظاهرها ، وكافة أشكالها .

وبناء عليه تم تصنيف هذه الجماعات الشكية باعتبار الأهداف والغايات[٢] ، أو باعتبار الوسائل التي يقومون عليها ، ويجعلونها الأسس اللازمة والقواعد العامة ، من أبرز هذه الجماعات التي كان لها ظهور مبكر ، ما يلي :

أ - جماعة المتشكين في الدين :

وهؤلاء زعموا أن الدين الذي تلقوه عن الهندوسية القديمة، جاءت البرهمية فأزاحته من النفوس . بعد أن زلزلت مكانته في العقول والقلوب ، ثم كانت البوذية فقضت على الهندوسية والبرهمية . وهاهي الجانتينية تفعل مع الجميع ما سبق لغيرها القيام به كلما دخلت أمة لعنت أختها، فصار المجتمع حقل تجارب لتعاليم دينية غير ثابته ، كما أنها تتغير باتجاهات الكهنة، وهذا من شأنه الشك فيها جميعا ، ويترتب عليه الشك في الأديان كلها .

---

(١) ولهذا السبب فإني أطالب أصحاب الجديد ألا يعلنوا تخليهم عن القديم مادام سليما صحيحا، لأن النقد العنيف يخرج بأصحابه عن الموضوعية، وفي ذلك تخريب للجميع وإهدار لكل فرص النجاح المتوقعة لكل منها .

(٢) وبالتالي أرى أن تصنيف المذاهب والأفكار يجب أن يكون خاضعا لمعيار ثابت، أو التنبيه على الطريقة التي يتم من خلالها هذا التصنيف طالما كانت الاعتبارات متعددة ومتباعدة أيضا

يقول " لافي " لم يكن من السهل على القبائل الهندية البدوية الشك في الدين لكن بعد ظهور الهندوسية ثم البرهمية والبوذية، فلم يعد هناك شيء واحد يسلم من الشك طالما كان الدين نفسه قد ألقى في أتونه التي تغلي مراجلها بالشك المطلق[١] ٠

ويقول " أندريه فوكر " ، كانت العقائد الهندية القديمة بعيدة عن الشك الجماعي فيها . وإذا ظهر شيء منه اختفى أمام الرأي العام . حتى اعتبر الشاك مريضا ، فلما انتشر الجدل حول ماهية الدين. وتطورت وسائله . وتعددت الديانات المحلية بات الشك قائما فيها جميعا. ومن هنا حلت الكارثة . لأن الدين أصل الحياة ، وقاعدة التفكير التي يتاح لها النصيب الأوفر من الصواب[٢] ٠

ومادام هذا الشك قد شمل كافة الديانات الهندية في أصولها ومظاهرها . فإن كل شيء ينهار . لأنه لا توجد بعد ذلك قاعدة يمكن الاحتكام إليها في صواب أمر أو تخطئته ومن هنا كانت الحاجة إلى إرسال الله الرسل . حتى يعلموا الناس ما يجب عليهم نحو خالقهم العظيم جل علاه، والدين الذي جاءهم به المرسلون من قبل الله جل شأنه[٣] ٠

بناء عليه فإن الدين الذي يضعه الناس هو الذي يقع الشك فيه، والهدم له، أما الدين الإلهي فلا يقع له شيء من ذلك أبدا ٠

ب - جماعة المشككين في الحياة بعد الموت :

وهم جماعة هندية قديمة لفظت تقاليد الدين الكهنوتي الذي يمارس في الهند القديمة . ونفرت مما يقوله الهندوس . كما اعتبرت تعاليم براهما في هذا الشأن . صورة خداعية تحمل العداء للغرائز والشهوات. وتسعى لتدمير الإنسان من خلال املاءات كاذبة، واعتبرت تعاليم بوذا ضربا من الخيال الجامح الذي لا يجد أرضا يقف عليها ، بل أنهم نظروا للدين على أنه نظام حياة ، فإذا انقضت الحياة انقضى الدين ٠

---

(١) هيوم ديفيد لافي – الأديان القديمة في الشرق ، صـ ١٥٣ ، ترجمة فوزي السيد نصار سنة ١٩٥٧ ٠

(٢) أندرية فوكر – خاصية الدين وطريقة تأثيره في المجتمع، صـ ١٢٤، ترجمة السيد صابر طلبة – كركوك ، سنة ١٩٨٧ ٠

(٣) راجع كتابنا"الغزاليات في النبوات" أثناء الحديث عن حاجة البشر إلى الرسالة " ، كتابنا " الغزاليات في السمعيات" الجزء السادس، أثناء الحديث عن الغاية من بعثة الرسل ، ففي كل منهما بيان لهذه الجزئيات على وجه تفصيلي ٠

يقـول " كوارسـوف " ، حقـا أنـا أعـتقد في الدين الطبيعي، وهو الذي يكون لي بقـواي كـلها، فـإذا انقضـت مظاهـر الحـياة وتبدلت . لا أكون ملزما بقبول شيء آخر، لأن الأدوار قائمـة. والاكوار مستمرة. ولا شيء خلف ذلك[١] . لأن الاعتقاد في حياة بعد الموت عـند التناسـخية لا وجـود له ، بـناء على أن الحياة هي التي نعيشها. فإذا حدث تبدل أو تطور فإنه يكون محكوما بقاعدة احتياجاتنا الذاتية التي تطمع فيها أو نأملها[٢] .

ولما كان المتشككون في الحياة بعد الموت قد رفضوا الزهد العملي . وطالبوا الإنسان بإشباع غرائزه كلها . فقد انطلقوا من هذا المبدأ إلى تلبية كل متطلبات النفس الحيوانية ، حيـث اعتبروا الموت هو الفصل التراجيدي ، أو المشهد الختامي من حياة الإنسان ، ولا شيء بعدهـا ، وحـتى تـبدل الأدوار يستلزم تبدل الأحوال والأشخاص ، وهو ما يعني سلفا وقوع الإنسـان في دائـرة ضـيقة لا بد له فيها هي تلبية الرغبات الجسدية وحدها دون اعتبار لشيء آخر .

يقـول "بللـي جـراهام" لم يكن من السهل إقناع هؤلاء المتشككين بحياة أخرى بعد المـوت، وبخاصـة أنهم لم يروه في حقائق عملية، أو صور واقعية، كل ما وصلهم عن الحياة الثانـية مجرد تصورات خالية من المضامين[٣] لكنها في الواقع لم تساهم في تنشيط الفكر أو تـدعـم الميتافيزيقـيا، وإنمـا أسـرعت بإبـراز جماعـات كـان هدفهـا الأساس الوقوع في الرغـبات وتلبـية الاحتياجات بأقصى ما تملك من هنا كان ظهور هذه الجماعات المتوحشة الـتي حصرت أهدافها داخل الغرائز والشهوات ولم تنظر لشيء آخر ، وكان من جراء ذلك بـروز الجماعـات اللاأخلاقـية وأعمالها المتدنية في أشكال ظلت وتيرتها متصاعدة إلى حد كبير .

وهـي مسألة لهـا خطـرها العظـيم عـلى الإنسانية كلها ، كما أفرزت أفكار جديدة ظهرتها أثار سلبية بالنسبة للمجتمع الهندي كله .

---

(١) كوارسوف – الدين الطبيعي ولا شيء بعده، صـ ١٢٥، ترجمة وفاء صبري، مطبعة الزغبي سنة ١٩٨٧ .

(٢) انطوان هيرالديون – الحياة العلمية وبقاء الكون، صـ ١٤٤، ترجمة ظافر خيري، ط. أولى سنة ١٩٦٨ .

(٣) بيلـي جراهام – التصورات التاريخية في الفكر الشرقي القديم، صـ ٢٣٥، ترجمة السيد صابر، ط. ثالثة سنة ١٩٨٥ .

جـ - جماعة المتشككين في الحقائق :

إذا كانت الجماعات السابقة قد أنصب شكها في الدين، أو الحياة بعد الموت فإن هذه الجماعة قد تجاوزت بشكها كل الحدود حيث شمل الحقائق الأساسية[١]، ولم يسلم شيء من هذا الشك الهادم أو يكون بعيدا عن مجال هذا الشك المتكرر أو ميدانه . فأعاد إلى الذاكرة صور الشك المطلق الذي انتهى إلى إنكار كافة الحقائق ومنها الله. والخلود . والروح، بل أنكروا وجود الإنسان نفسه . يقول للهرانيلله لقد شكوا في كل شيء حتى الشك نفسه. ولم يكن أحد قادرا على إثبات شيء من الحقائق أو التعرف عليها . بل صار أرقى أمانيهم شيوع الشك وسيطرته التامة ، وسريانه في أوجه الحياة كلها ، حتى كان الواحد منهم ينكر وجود أبويه كما يتنصل من علانقه بهما[٢] فهل بعد ذلك يمكن النظر لإثبات أي شيء آخر ؟ •

ويقرر " باك " أن هذه الجماعة كانت أخطر الجماعات أثرا في المجتمع الهندي ، إلا أنها استطاعت صياغة أفكارها في قوالب فنية . كما تمكنت من ممارسة الضغوط العديدة على المؤمنين بالله ،والمعتقدين في وجود الروح ، وكذلك الذين داعبتهم فكرة الخلود[٣] ، ولم يكن بإمكان أحد أن يصدهم عن أفكارهم الفاسدة أو التقليل من أخطارهم ، لأنهم جعلوا الناس ينفضون أيديهم من كل ما هو قائم في المصادر الصحيحة •

على أن " رانـي " يؤكد الاتجاهات العنصرية ، التي ترسخت في أعماق هؤلاء ، وبخاصة حينما اعتبروا مخالفيهم من ذوي الاتجاهات الغير واقعية ، التي تتحدث عن أمور لا وجود لها ، كما تخدع البسطاء بأفكار خيالية . ثم تأكيدهم على أن الإنسان هو الحقيقة الأساسية الوحيدة التي يمكن النظر إليها بعين الاعتبار[٤] فتحولت الحقائق إلى صورة

---

(١) الحقائق الأساسية هي الله ، والروح ، ثم الخلود، وهي الغيبيات في مجملها ثم تتفرع عنها توابع لها، راجع كتابنا " الغزاليات في الإلهيات" ، صـ ١٧، الطبعة السابعة سنة ١٩٩٩ •

(٢) أندريه رانـي : المدارس الشكية القديمة ، صـ ٥٣، ترجمة وفاء سلمى ، ط. دار المهند سنة ١٩٧٥ •

(٣) تونا باك: الفكر الشرقي القديم، صـ ١٧٤، ترجمة خالد صبحي ، مراجعة أحمد منتصر، ط. الدار القديمة سنة ١٩٨٧ •

(٤) اندرية رانـي : المدارس الشكية القديمة، صـ ٦١و٦٢والملاحظ أن هذه الفكرة – الإنسان حقيقة الحقائق، قال بها الشكاك جميعا واعتمد عليها السوفسطائية في إحدى مراحلهم العقلية، راجع كتابنا " الموسوعة الغزالية في الفلسفة الشرقية " بأجزائه الأربعة ففيها تفصيل لهذه الجوانب بقدر ما يسر الله تعالى •

شخصية ، تجري فيها ملامح النسبية الذاتية إلى غير ذلك من أوجه القصور ٠

ولـئن كانـت جماعة المتشككين في الحقائق قد زعزعت الأفكار، وهزت الثوابت هزا عنـيفا ، فأنهـا جعلـت المجـتمع كلـه يعيش مرحلة من الاضطراب الفكري ، مما حدا بالأمم الأخـرى أن تطمـع فيهم ،حتى بات المجتمع الهندي القديم مهددا باستعماره من جيرانه ، الذين تعددت أطماعهم، وتوالت اتجاهاتهم ٠

وذلـك مـن شـأنه أن يـدفـع أبـناء الوطـن إلى البحـث عـن وسيلة أخر ى أو منهج ينهضـون به، بغية المحافظة على وطنهم، والتمكن من حريتهم ، بجانب عدم التفريط في القـيم ذات الخصوصـية ، الـتي يتسـم بهـا مجتمعهم ، فكان ذلك من أسباب ظهور أو نشأة الجانتينية في أرض الهند القديمة ٠

د - جماعة العدميين :

هم جماعة أسسوا مذهبا أو مدرسة قامت على رفض إثبات أو نفي الحياة بعد الموت، وتشـككت في إمكان حصول الإنسان على العلم اليقيني، كما حصروا الفلسفة ونظرياتها في مفهوم استتباب السلام ، وإذا سئل أحدهم عن مسألة ، أجاب بعبارة واحدة هي "لا أدري" ، ومـن ثـم عرفوا بإسم أصحاب ذهب "اللا أدريه" في الفكر الهندي القديم[١]، كما اشتهروا باسم " أصحاب الفكر العدمي " لرفضهم الاعتراف بأي شيء موجود٠

وكـان مـن أبرز زعماء هذا الاتجاه " سانجاما " الذي سعى لاحتقار أفراد الكهنة ، ومـارس ضـغوطا شـديدة عليهم ، كما دعا أصحابه إلى التشكيك في وجود الآلهة بزعم أنه لا وجـود لها على أرض الواقـع ، وكان يقول "من كان يعتقد في وجود الله فليرني ماذا صنع له" كما كان يردد أمام الجميع قوله بأن الآلهة إنما يصنعها خيال أصحابها[٢]

وفي هذا إعلان صريح بأنه يرفض الاعتراف بالآلهة، كما قـرر التخلص من سلطانها، وبناء عليه أوجد منطقة فارغة تحتاج إلى إشباعها بالفكر الذي يتناسب معها من جانبه ، أو على الأقل الفكر الذي يرتضيه هو ، ويسعى لتأكيده ٠

---

(١) ول ديورانت - قصة الحضارة ، المجلد الثاني ، ط. صـ٥٣ ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

(٢) سيرغي توكاريف - الأديان في تاريخ شعوب العالم، صـ ٢٤٥، ترجمة احمد فاضل، ط.أهالي سورية سنة ١٩٩٨ ٠

كما ظهر على متن هذه الجماعة كل من باراجي و باندونا و سانبي وغيرهم ، ممن تعودوا مهاجمة الفكر القائم على أسس دينية، أيا كان مصدره أو مظهره، وفي نفس الوقت طالبوا بإعدام الكهنة ،بزعم أنهم جماعة من المضللين الذين لا يعنيهم سوى خداع البسطاء، وإيهامهم بقدرة الدين على تقديم حلول آمنة للمشكلات الحياتية[١] . ومن ثم دعوا إلى مهاجمتهم، وطالبوا الناس بالتخلص منهم ، بل أنهم مارسوا هذه العمليات بأنفسهم وكذلك فصل أصدقاؤهم بقدر ما أتيح لهم ٠

لقد كانت أفكار الحياة هي الطاغية على هؤلاء فإذا تحدث أحد عن رحلة ما بعد الموت، انقضوا عليه وراحوا يتناولونه من كل ناحية، إنهم لا يرفضون مجرد الموت، ولا يرفضون ما يقع بعده ، وإنما يزعمون رفض الوقوف على ذلك كله ، لأنها مسائل لم تقع تحت الحس[٢] ، ولا يمكن التأكد منها عن طريق العقل العلمي ٠

وكذلك الحال مع الآلهة ، فهم لم يطالبوا أن تتحول الحياة إلى عدم ، كما لم يطالبوا بالانتحار الفردي أو الجماعي ، إنما كانت أفكارهم تصب في طريق آخر هو المحافظة على الحياة في صورها الممكنة مهما كانت متدنية ٠

يقول "هيد اندرسون" كانت جماعة العدميين غير واضحة المعالم ، كما لم تكن أفكار زعمائها منضبطة ، ومن ثم يمكن القول بأنهم لم يعرفوا المنهج العلمي، ولم يسايروا الاتجاه الذي يدعو إليه، وأنهم إذا انخرطوا في طوائف السوفسطائية كان التعبير صحيحا، كما يمكن اعتبار الحكم عليهم بهذه الصفة ، هو ذاته الحكم عليهم بأنهم أصحاب الاتجاه أو المذهب العدمي[٣] ٠

---

(١) جاكوفي الأديان في الشرق القديم، صـ ٣٤١، ترجمة حنان فوزي، ط. ثانية سنة ١٩٦٥ ٠

(٢) من الملاحظ أن فكرة إنكار وجود غير المحسوس قد صاحبت الفكر الإنساني في فترة طويلة، والبحث العلمي الوثيق ينتهي حتما إلى أنهم لم يكونوا جماعة بعينها أو طائفة مستقلة، بقدر ما يمكن قوله من إنها مسألة تجئ في طريق الفكر الإنساني عبر تاريخه الطويل، وتعبر عن ضعف في عقول أصحابها الذين لم يتمكنوا من معرفة أمور غير محسوسة، أو لم يستطيعوا تصور وجود ما ليس بمحسوس، حتى لو كان ذلك هو عقولهم وأرواحهم ونفوسهم بجانب ضمائرهم ومشاعرهم ووجداناتهم، وهي مشكلة تتعلق بهم وحدهم

(٣) هيد أندرسون – الاتجاهات الفكرية القديمة، صـ ٢٥٣، ترجمة علية عبد الرحمن، ط. ثانية سنة ١٩٥٨ ٠

ومادام الأمر قد تعلق بإنكار حقائق ما بعد الموت ، وتحقير الكهنة، فقد بات المجتمع مهددا بشيوع هذه الأفكار التي تؤدي إلى الهلاك والتدمير[١] ، وذلك من شأنه التمهيد لذوي الأفكار المضادة حتى يعبروا عن اتجاهاتهم ، ويقاوموا المد التلقائي للأفكار الفاسدة أو القائمة . ومن هنا ظهرت الجانتينية وغيرها من الجماعات التي وجدت الأرض مهيأة لها والعقول على موعد معها ٠

ن - مدارس السفسطة :

وهي المدارس التي أخذت على عاتقها ألا تبقي شيئا على حاله ، لكنها ابتدأت بالجماعات والمذاهب القائمة ، ولم تضع للأفراد في حسبانها مكانا ، فإذا كانت الجماعات السالفة من العدميين والمتشككين في الحقائق وغيرهم ، قد جعلوا الأفكار محور حديثهم ، واعتبروا الأفراد هم الميدان الذي يطيعون فيه ، فإن مدارس السفسطة اتجهت إلى ذات الجماعات اعتقادا منهم أن القضاء على الجماعات فيه النهاية للأفراد من باب أولى ٠

يقول " أنطوان فيلي " ، لقد كان المنهج السوفسطاني الهندي القديم واضحا في توجيه سهامه إلى الجماعات القائمة ، ثم السعي لإفساد خططها ، وبهذا حقق أعلى النتائج لأن التأثير حينئذ يكون قويا ، والخطر يصير أكثر وضوحا[٢] كما أنهم لم تناولوا أفرادا وإنما سعوا لتحطيم الأفكار ، وهدم الجماعات ، وذلك من شأنه إيجاد أرضية مشتركة يجلس عليها أصحاب الفكر الانهزامي والتقدمي معا ، ثم يقاسمهم أصحاب الاتجاهات العدمية والحيوية ، وهذا من شأنه إيقاع الصدام ، واستمرار العداوة حتى تكون النهاية التدميرية للجميع ٠

من الواضح أن مدارس السفسطة لم يكن لها هدف محدد تسعى إليه ، سوى مقاومة التيارات الفكرية والثقافية و بل والدينية القائمة في ذات المنطقة ، ومن ثم يمكن القول بأن جميع هذه الاتجاهات كانت تتصارع فيما بينها ، أو على الأقل كان كل فريق منها يعتبر

---

(١) لأن سلطان الدين متى زحزح من مكانه، فقد صاحبه الثقه في كل شيء، وللأسف تعمل بعض الجماعات إلى بلوغ ذات الهدف في المجتمع المسلم دون أن يدركوا العواقب، وذلك مما تعبر عنه الجماعات السطحية والفوقية التي قد تحمل أسماء إسلامية مع أنهم لم يعرفوا عن الإسلام إلا بعض مباديء قليلة ، ولم يتمكنوا من معرفتها على الوجه الصحيح ٠

(٢) انطوان فيلي : الحركات الفكرية في شبه القارة الهندية ، صـ ٢٤٥، ترجمة ناهد زكي وأحمد رزق ٠

الآخرين خصوما له . ومتى تعمق هذا الشعور ، فإن العدوانية تكون هي القاعدة العامة لدى الجميع[١] ، وهذا من شأنه تعميق الفجوات وتوسيع الهوات ، بل أكثر من ذلك فإنه يكون بحاجة إلى نمط فكري جديد ، ينظر إليه بمثابة الميزان الذي يضبط الجميع أفكارهم به في نفس الوقت . فإن مدارس السفسطة انتشرت وتمددت داخل المجتمع الهندي حتى كانت مناهجها تمارس في الشوارع والحارات ، كما تمارس في كافة التجمعات ٠

وهذا من شأنه إكسابها العديد من الاتباع والمعجبين ، وبخاصة أثناء وقوع البلاد في حروب عسكرية عديدة[٢] . وظهور جماعات انفصالية أو استقلالية متعددة متقاربة في الزمان متباعدة الإتجاهات . وذلك من شأنه تطلع الناس لمذهب أو فريق جديد يتصورون فيه إمكانية جمع الشمل ولملمة الأطراف ، وهو ما زعمته الجاتينية ٠

هـ - جماعة الإلحاد المادي :

إذا كانت الجماعات التي سلف ذكرها كانت لها اتجاهات متباعدة ، فإن جماعة الإلحاد المادي أنكرت الروح فقط ، فكان ظهورها على ناحية جزئية ، لأنها عمدت إلى الإلحاد وإنكار الآلهة باسم العلم التجريبي، يقول " هافي " كان الإنسان الهندي القديم لديه شعور بوجود قوى غير مرئية ، لكن ظهور جماعة الإلحاد المادي قد بدد هذا الشعور الغامض ، وبخاصة حينما طالبوا بأدلة وجوده ، ولم يكن الهندي القديم يملك هذه الأدلة أو يستطيع الحديث عنها[٣] ، لأنه اعتبر التدين والاعتقاد في الآلهة من المسائل الخاصة به غير أنه لا يمكنه الحديث عنها ٠

كما أخذت هذه الجماعات على عاتقها التشكيك في الجماعات الأخرى ، وبخاصة تلك التي تتبنى فكرة الإيمان العقلي ، أو العقيدة الوجدانية، أو تسعى لتعميق فكرة

---

(١) وكلما امتدت الخصومات بين الناس حدث اختلال وظيفي داخل المجتمع كله ، لأن كل فرد من أفراد المجتمع سيكون بمثابة القنبلة التي تستعد للانفجار متى وقعت عليها الملامسة أو تهيأت لذات الوضع، راجع للدكتور بنصر كولز، اعرف نفسك، صـ ١٣٤

(٢) حيث تكاثرت عمليات الغزو بين الآريين والهندوس ، بجانب جماعة الغلاويين وغيرهم، وكلما تمكن فريق من تحقيق الانتصار جاء غيره فألحق به الهزائم وقضى عليه، راجع كتابنا- ملامح الفلسفة الهندية، صـ ١٤٣ وما بعدها ٠

(٣) جوستاف هافي- ديانات الشرق القديم، صـ ٢٧٣، ترجمة الدكتور صابر حسن سويدان ، ط. أولى سنة ١٩٨٧ ٠

ذات طابع روحي[١] .

وبعبارة أخرى ، اعتبر أفراد هذه الجماعة كل ما يتعلق بالعلم المادي هو وحده الذي يقبل ، أما ما عداه فقد رفضوا أي وجود له ، لأنهم أنكروا الغيبيات باسم العلم المادي ، فكانوا ملاحدة في أثواب علماء كما كانوا علماء ماديين التحفوا بأثواب ملاحدة في الدين .

ودليل ذلك ما ذهب إليه " فينجاي" المؤرخ القديم ، من أن الصراع لم يكن ينقطع بين أصحاب الفكر المادي أصحاب الإلحاد المتواصل وبين ذوي الاتجاهات القلبية الوجدانية، الذين اعترفوا بأن هذه القضايا القلبية من خصوصياتهم ، وأن الاعتماد على الوجدان أمر طبيعي ، أو على الأقل تدعمه أدلة نفسية ، على حين نظر إليه أصحاب الإلحاد المادي بأنه ضرب من الخيال ، أو صوره من صور الجنون ، حتى أنهم كانوا يتعاملون مع القائلين بها معاملة ذوي الاحتياجات الخاصة [٢] .

أجل بظهور جماعة الإلحاد المادي ، اكتملت المنظومة التي ترفض الزهد ، وتطالب بإشباع الرغبات ، كما قفز لسطح الأحداث متسلقة الفكر المادي ، الذين يجيدون ألعاب الحواة ، ويقدمون صورا متواصلة لذوي الأنماط الاختلالية ، الذين تحددت اتجاهاتهم داخل المجتمع القديم فأحدثت بين أفراده فجوات عميقة .

وانطلقت من كل جانب حتى أتت على أخضره قبل اليابس، وبات الناس على أمل انتظار فجر جديد ، تشرق فيه شمس صبوح ، بعد ظلام ليل دامس ، وشتاء قاس شديد البرودة .

فلما ظهرت الجانتينية اعتبرها البعض المنقذ الوحيد ، أو المعبر الأساسي عن حالة البلاد الفكرية والدينية المتردية، وصورة الخلاص لما تعانيه الأمة الهندية بكافة طوائفها وأشكالها الاجتماعية والنمطية ، بجانب تركيباتها السكانية .

---

(١) لم تكن هذه الخصومة وليدة عصر بذاته، ولا جماعة بعينها، وإنما امتدت معبرة عن خلاف عميق بين أصحاب الفكر المادي اللاديني، وأصحاب الاتجاهات الروحية ذات الصبغة الدينية على امتداد التاريخ .

(٢) جوستاف هافي : ديانات الشرق القديم، صـ ٢٧٧، وقد أحال إلى كتاب دراسات نفسية وتاريخية لفيجاي، صـ ١٤٤ ط. موسكو

وكلما تقبل المجتمع هذه الأفكار. فإنه يكون عرضة للهلاك ، لأنها داعية إلى الانقلاب . قاضية بالانهزامية . واقعة لتسيد فكرة الأنا الذاتي . واستبعاد الأنا الآخر، من ثم تسيطر على الجميع نزعة سوداوية لا تفصل عن واحد من المجتمع كله ، ولا يمكن لأحد أن يتخلى عنها ، أو يكون بعيدا عن ميدانها، كما أنها ستكون المصدر الوحيد لليأس والانتحار والدمار ٠

و - جماعة الأديان بغير آلهة أصلا :

قد يكون الأمر غريبا . والعنوان نفسه أكثر غرابة ، إذ كيف تكون جماعة أديان ثم لا تعترف بوجود آلهة[١] . ولكن الدارس للفكر الهندي القديم وكذلك كل من الفكر الصيني والفارسي ، لا يجد أدنى غرابة في الأمر أو العنوان ، أما لماذا؟ فلأن الأديان عندهم مجرد أفكار ، ومن ثم فلا تحتاج إلها ، وهو الشأن في كل الأديان الوضعية ، التي تدور حول أفكار خيالية بعيدة عن المضامين . دليل ذلك أنهم في الصينية القديمة وضعوا التاو إلها ثم ذكروا أنه غير محدد ، لا شكل له ولا وصف[٢] ، بل ولا طعم ولا لون، كما لا قدرة له ولا إرادة وإنما هو إله هكذا كان ولا شيء وراء ذلك ، ثم أنكروا كل الذي قالوه وتناسوا فكرة التاو مرة أخرى وظل أمرهم هكذا على الدوام ٠

على أن جماعة الأديان بدون آلهة تعبر عن نزاع الفطرة مع العقل ، أو صراع العاطفة مع المنتج العقلي في صورة واقعية، دليل ذلك حرص أصحابها على إرضاء النزعة الداخلية التي تقر بوجود دين ، وكذلك إرضاء النزعة العقلية المادية الإلحادية التي ترفض الاعتراف بوجود سلطة للدين . ومن ثم رأت أن إغفال الآلهة[٣] ، واعتبار الأديان بدون آلهة هو المعبر الطبيعي عن العقلية المتميزة . والفكر الأصيل الذي يجب أن نؤخذ به، ويوضع في دائرة التسليم ٠

---

(١) هذا التساؤل قد يكون مشروعا من جانب العقل ، لكنه غير مشروع من جانب الواقع ، على أساس أن الفكر الوضعي متى اعتبر دينا، فإن القائل به يكون قد أسقط نفسه من حيث يريد لها العلو، أو أبان عن الحادة مع أن رغبته إعلان صحة الاعتقاد ٠

(٢) جوتفر فيلد : الأديان الصينية القديمة، صـ ٢٤٥، ترجمة علا زكي، ط. دار التحرير سنة ١٩٨٧ ٠

(٣) وفي هذه الحالة فإن مساحة الصراع الداخلي سوف تتسع، كما أن المشكلات النفسية التي هي نتائج ستظهر بوضوح شديد، مما يجعل علاج أصحابها من الناحية الواقعية أمرا صعبا، أو على الأقل تكون فرص النجاح فيه نادرة ٠

يؤكد هذه النتيجة " ديفيد هولمز " حيث يقول : إن فكرة الإيمان بوجود أديان. أمر قلبي ، لا يوجد إنسان عاقل ألا وهو شاعر به ، أو على الأقل لديه استعداد للاعتراف به، ثم الاستدلال عليه . لكن فكرة الإيمان هذه لا يشترط فيها نوع الإله ، والآلهة التي يتوجه إليها المرء . فضلا عن أن تكون معروفة بذاتها أو صفاتها لأن العقل العلمي لا يمكنه إثبات شيء من ذلك ، وليس لديه استعداد لتصديقه[1] ، ومن ثم يأخذ على عاتقه الوقوف بعيدا عن الميدان حتى يكون مجرد ناظر للأحداث فقط أو مراقب لها .

بيد أن وجود هذه الجماعة في هذا الوقت داخل تلك البلاد قد ترتب عليه ظهور جماعات عنقودية مرتبطة بها ارتباطا وثيقا ، تحمل اسمها ، وتنفذ تعاليمها ، وتسعى سعيا حثيثا لإبلاغ الرسائل التي تلقيها إلى الآخرين في اجتياح ظاهر للمجتمع الهندي كله حتى لم يعد واحد من الآلهة بمنأى عن بعض سهامها ، ومواقع إصابات نبالها ، ومقاطع سيوفها ، وهذا من شأنه تحريك الأفكار الأخرى ذات الصبغة الدلالية على وجود الإلهة لمقاومة ذلك التيار حتى وإن لجأ إلى الاختباء في ناحية من النواحي أو استعمال وسائل مهما كانت النتائج المترتبة عليها ، لأن الفكرة الفاسدة تكلف المجتمع الصحيح واجب المقاومة لها ، بغض النظر عن طريقة المقاومة أو أساليبها، أو بخاصه ، إذا خرجت جماعات الفكر الفاسد إلى المجتمع، وعملت على نشر ما تؤمن به ، وسعت لاصطياد الأغرار من ذوي الاتجاهات الخاصة والنزعات العدوانية .

يقول " فيلد " من الممكن إصدار أحكام صحيحة على أصحاب جماعة الأديان بغير آلهة، لأنهم لعبوا على حبال السيرك . من غير وجود أسود للترويض . إذ كيف يعترفون بوجود أديان ، ثم ينكرون الآلهة ، وهل تكون أديان بدون آلهة أو هل يعقل وجود آلهة بدون أديان ، وكيف تطلق عليها أديان ، إذا لم تكن لها آلهة[2] ، إن أي عاقل يدرك من أول وهله وقوعه ضحية لجماعة من أصحاب الجدل الفكري ، والشغب العقلي والتضليل المتعمد من جانب أصحابه على أقل تقدير .

---

(١) ديفيد هولمز : دراسات في الأديان القديمة، صـ ١١٢ / ١١٣، ترجمة نادر الخياط، بيروت سنة ١٩٦٨ .

(٢) جونفريد فيلد : الأديان الصينية القديمة، صـ ٢٤٩، وراجع لهولمز دراسات في الأديان القديمة، صـ ١١٧ .

من ثم يمكن القول بأن الجانتينية باتجاهاتها الفكرية، وميولها الإعتقادية، ونزعتها القلبية، كانت واحدة من ردود الأفعال التي اندفعت خلف هذه التيارات، والاتجاهات حتى تناهضها، وتسعى لإثبات فسادها، وتعمل على إنقاذ المجتمع الهندي من نزعاتها العدوانية، بجانب الرغبة في تخليصه من آثارها التدميرية على أقل كبير .

في هذا الجو الملبد بالغيوم، راحت الجماعات المختلفة تنمو بشرعة أو تهز أركان المجتمع الهندي هزا عنيفا، وتثير حوله الجدل من كل ناحية، وبخاصة أنها تناولت كافة معتقداته ومعارفه وآدابه، بجانب ثقافته وفنونه بالتشكيك فيه، مع الطعن عليها، من كل ناحية .

وكان الحكماء هم الآخرون يسخرون في بعض الأحيان من الكهنة بدليل أن سفر " شاندوجيان " [١] أحد الأسفار الأساسية لدى الحكماء[٢]، قد نقل عنهم تشبيه رجال الدين المتشددين في تمسكهم بالعقائد، بموكب من الكلاب، أمسك كل منها بذيل سابقه، وهو يقول في ورع " دعونا نأكل، دعونا نشرب" [٣] .

وهو تشبيه يحمل القسوة والسخرية معا، ويعبر عن العنف الموجه ضد الكهنة في ذلك الوقت، كما يذكرنا بأحداث العنف التي سادت القرون البدائية كلها، فكان ظهور الجانتينية بمثابة الكتلة الثابتة التي تعيد الأمن إلى وسط الدائرة، كما تزيح عن كاهل المجتمع الهندي بعض مشكلاته .

ي - جماعة تفسير الأسفار الهندية

هذه الجماعة سعت للأسفار الهندية القديمة ثم عملت على تفسيرها بجميع الموضوعات التي يمكن تناولها فتناولت أسفار اليوبانشاد وأسفار الفيدا وغيرها، ثم ألحقت بهذه الأسفار تفسيراتها الذاتية، ووجهة نظرها الشخصية، واعتبرتها بمثابة الأصول

---

(١) هو أحد أسفار اليوبانشاد، وقد تم الطعن عليه من جانب الحكماء أنفسهم الذين شككوا في وجوده، وقد تشكك العدميون والملحدون في أسفار اليوبانشاد كلها، راجع لهيد اندرسون : الاتجاهات الفكرية القديمة، ص ٢٦٤ .

(٢) ومن الملاحظ أن الحكماء والملاحدة، بل والماريون قد طعنوا على أسفار اليوبانشاد كلها وسعوا للنيل منها، وهو ما يعني أنها لا تقدم أدلة في مواجهتهم أبدا، راجع كتابنا تأملات غزالية في الفلسفة الشرقية .

(٣) Chand Upan I,12; Radhakri-Shonan I, 149

التي لا بد من الرجوع إليها . ومن هنا كثر مفسرو الأسفار الهندية وظهر بينهم زعماء من أمثال راجبي . سانجاي . بجانب سوينجو . وتوماجي ، وغيرهم ٠

ويذكر المؤرخون أن تفسير هذه الأسفار القديمة قد أحدث خللا كبيرا في أفراد المجتمع الهندي . نظرا لثقافة الذين قاموا بها بدليل أن تفسير سفر " سواسانفد " (١) قد صرح بأنه لا آلهة . ولا جنة أو نار ، ولا تناسخ ٠

ولا عالم موجود أصلي . ثم انتهى إلى القول بأن كل حديث عن العالم الحقيقي إنما هو محض خيال (٢) . فصار مع سفر " شاندوجيا " يرسمان صورة سلبية من كافة الجوانب ، ثم وقفت الجماعات الشكية تنعى على الأسفار الهندية جميعا ، وتؤكد أن أسفار الفيدا واليوبانشاد كلها ليست سوى تأليفات هابطة ، جاءت من عند جماعات الحمقى والمغرورين (٣) ، كما أن الأفكار التي تنقلها ما هي إلى أوهام الغافلين ، بل أن الألفاظ التي تحملها باطلة ، وعباراتها خادعة ، ولا يقع في قبولها سوى من تخدعهم العبارات البراقة ، الذين يتمسكون بالآلهة والمعابد والقديسين ، مع أنه لا فرق في الحقيقة بين الإله فشنو وكلب من الكلاب الضالة (٤) .

أجل، انطلقت هذه الألفاظ المضطربة في المجتمع الهندي انطلاق النار في الهشيم، أو انطلاق الرعدة في الحميم ، حتى أنها راحت ترعد وتبرق ، وترغي وتزبد ، فتزلزل أرجاء هذا المجتمع ، وقد ساد على انتشارها وجود البعض كانوا يعملون مع الكهنة أنفسهم كالحال مع " فيروكانا " الذي كان يعمل تلميذا في خدمة الإله للهبراجاباتيلله مدة تزيد على الثلاثين عاما ، وقد تعلم مبادئه، وكان يبشر بها ، بل ويدعو إليها (٥) ، ثم انقلب عليه ، وانضم لهذه الجماعات ، كما أخذ يعلم الناس المذهب الشكي والمذهب اللا أدري .

---

(١) هو أحد أسفار اليوبانشاد، وقد تم الطعن عليها جميعا على وجه الإجمال، ثم أخذت هذه الجماعات الشكية في الطعن على كل واحد منها استقلال ٠

(٢) Davids, Dialouges OF the Bud - dha , 11, 73- 5; Radhakrish - aNa 274 .

(٣) جوستاف هافي : ديانات الشرق القديم، صـ ٢٧٧، وأنطوان فيلي- الحركات الفكرية في شبه القارة الهندية ، صـ ٢٥٧ ٠

(٤) ديفيد هدسان : الهند القديمة دياناتها وفلسفتها ، صـ ٢٥٧، ترجمة طلال زكي ٠

(٥) اشتهر أن مبادىء الإله "براجاباتي" كانت تركز على خلاص النفس من كل عائق، كما تدعو لمحاربة الشرور ، والتخلي عن الخطايا، وهي عبارة عن أسطورة خيالية كان لها وجود في الفكر الهندي القديم ، وسوف أعرض لها في حينه ٠

كما شجع على الاستمتاع بالحياة من كافة الجوانب ، فصار الإنسان عندهم حيوانا متوحشا يسعى لتحقيق رغباته كلها ولو على حساب القيم والأخلاق جميعها .

ولما كانت مبادئ الإله " براجاباتي " تؤكد أن النفس إذا خلصت من الشرور والآثام ولم تقع في الخطيئة ، فإنها تكافأ على الدوام ، فلا تشيخ ولا تهرم ، بل لا تموت ، كما أنها لا تحزن ولا تجوع . وفوق ذلك فإنها لا تعرى أو تظمأ ، لأنها لا ترغب إلا في الوصول إلى الحق . كما لا تسعى إلا إليه . فإن هذه المبادئ البراجاباتية كانت مهمة جدا للفكر الهندي ، أبان تلك الفترة . لكن توظيف الكهنة ذوي الأفاق الضيقة لها أضاع قيمتها .

وإذا كانت أسفار الفيدا واليوبانشاد[1] ، دعت كل منها إلى ممارسة الفضيلة ، وتجنب الرذيلة ، ودفعت لإحداث توازنات متواصلة بين رغبات العقل والبصيرة بل والبديهة أيضا . فإن مفسريها وخصومهم قد سعوا إلى تدمير كل فضيلة ، والحديث عنها حديث الرافض لها ، المتحسر على وجودها ، والأكثر من ذلك هو نظرة الناس ، فيما بعد ، إليها على أنها وسائل تضليل في يد الكهنة ، يخدعون بها الناس واستدلوا على ذلك بان الكهنة يفسرونها على النواحي التي يريدون ، من غير ضابط لشيء قائم أو حكم ثابت يرتكنون عليه .

من هنا يمكن القول بأن المذهب الجانتيني كان وجوده في الأصل بمثابة رد فعل للمذاهب الجدلية والشكية . وكذلك الاتجاهات السوفسطائية التي سادت أرض الهند القديمة ردحا من الزمان ، وأن اتباع هذا الفكر الجديد استطاعوا توصيل ما في رؤوسهم عن طريق الممارسات العملية ، التي اعتبرت بمثابة الطقوس المتنامية في حقل الأفكار والمعتقدات ، بل والفنون والآداب . وكان لذلك العديد من الآثار فيما بعد .

---

(١) اليوبانشاد معناها الجلوس بالقرب من المعلم حتى يتم التلقي عنه في شكل كامل، ثم انتقل معناها بعد وقوع تطور فيه إلى معنى المذهب الغامض الذي كان يسر به المعلم لخيرة تلاميذه، توماس فايزر : الأسفار الهندية القديمة، صـ ١٩٥، ترجمة صابر حداد .

رابعا : أبرز زعمائها

الدارسون للفكر الهندي القديم والمتابعون للفلسفة الجانتينية ، يرون أنها لم تقم على أكتاف فرد واحد ، وإنما نهضت من خلال جملة من الرجال الذين هم في الأصل زعماء المذاهب ، وبالتالي يمكن الإلماح إلى أبرزهم فما يلي :

١ - ماهافيرا : ٥٩٩ - ٥٢٧ قبل الميلاد

أ - أشهر أسمائه

لم أقف له على اسم محدد لدى المؤرخين الذين رجعت لمؤلفاتهم، فبعضهم يطلق عليه اسم "ماهافيرا " [١] ، ثم يذكرون أن أتباعه هم الذين أطلقوا عليه ذات التسمية على الناحية التواضعية [٢] ، ثم يأتي مؤرخ آخر فيدعي أن اسمه " جنا " ويؤكد أيضا أن أتباعه هم الذين أطلقوا عليه ذات التسمية[٣] ، وحيث لا يوجد لدى أي فريق دليل على الترجيح، كما لا يوجد لدى المؤرخين المتأخرين ذات الدليل، فسأذكر كل تسمية أو إطلاق مع التعليل حتى يكون القارئ على إلمام بها جميعا، مع نسبة الأقوال إلى أصحابها، بحيث تكون مسئوليتهم عنها قائمة ·

التسمية الأولى : " ماهافيرا "

وأصحابها هم الذين أطلقوا عليه اسم " ماهافيرا " ، ومعناه عندهم " البطل العظيم " ، أما لماذا ؟ فلأنه استطاع التخلي عن رغبات نفسه ، وقادها إلى ما فيه الخير ، فكان بطلا حقيقيا ، وتمكن من النفاذ إلى أعماقها حتى اقتلع منها شهواتها فكان عظيما في كل شيء ·

في نفس الوقت وضع مبادئ عامة ذات صبغة دلالية، يمكن من خلالها إعادة الحياة إلى صورتها الزاهية في أرض الهند القديمة ، وبناء عليه صار أتباعه هم

(١) هذه من التسميات التي شاعت عنه، ولم أقف على مصدر واحد يؤكد أنها لم تطلق عليه، بل بالعكس تجيء في مركز الدائرة من باقي الاتجاهات التي تذكر حول التسمية ·

(٢) راجع لادوارد سوكر – المذاهب والفلسفات الهندية القديمة، صـ ٢٧٣، ترجمة صلاح زين الدين، ط. أولى سنة ١٩٥٧ ·

(٣) شيفر كراوس : الفلسفة والدين في الهند، صـ ٢٤١، ترجمة ناصر عبد العاطي، ط. الثانية سنة ١٩٧٦ ·

" الماهافيريون " [١] والتي تتساوى مع المصطلح الجانتيني تماما بتمام . فإذا ذكر لفظ جانتيني فهم منه أنه الماهافيري مباشرة .

والديانة الجانتينية على هذا المعنى هي الديانة العظيمة، التي استطاعت اقتلاع جذور الشك من أرض الهند القديمة بن ثم إقامة بناء فكري جديد يتسم بسلوكيات متميزة، تدعو في سلوكياتها للزهد . وتدفع للسيطرة علة نزعات النفس . حتى يعد صاحبها بطلا ذاتيا . ومستخلصا عمليا . ومتمكنا معرفيا .

التسمية الثانية : " جنا "

وهو لفظ هندي قديم . معناه " قاهر نفسه" ، ثم اتسع المعنى وامتد حتى صار اسم "جنا " يطلق عندهم على قاهر شهوات نفسه ، والمسيطر على توجهات الآخرين. باعتبار أنه متى تمكن من إفراز نفسه عن شهواتها ، وجد اتباعا يسيرون معه بحيث تكون سلوكياته بينهم كأنها ناموس مكتوب، أو ميثاق شرف ثابت [٢] ، وكل من قهر نفسه وتمكن من توجيه الآخرين أطلق عليه اسم جنا أو قاهر .

ثم حدث تطور في الكلمة من الناحية الاستعمالية الدلالية ، حتى صارت علامة لكل متغلب على آلامه وأشواقه، أتراحه وأفراحه، وأطلقوا اسم " جنا " بالمعني الجديد على كل متخل عن هذه كلها حتى شمل الزواج والمال والأولاد، وعرفوا باسم " أصحاب المذهب الجناى " أو " الجني" [٣] نظرا ، ومن هنا سمى البعض هذه الأفكار باسم المذهب الجيني، أو الفلسفة الجينية، ولهذا موضع حديث آخر .

التسمية الثالثة : جانتي

وهو أحد الأسماء الهندية التي عرفت عندهم ، وكان لهم وجود في بعض لقبائل الرعوية التي نزحت إلى الهند في الماضي ، ومعناه " الشخص الأسطوري الذي يفعل

---

(٤) راجع لها في أديفون – الزندقة والعدم في الفكر الشرقي القديم، صـ ١٤٣ / ١٤٤، ط. أولى سنة ١٩٧١ .

(٢) هذا الاعتقاد الفاسد سيطر عليهم، واستمر فترة من الزمان دون أن يتخلى الناس عنه، أو يفكروا في إقامة أية تعديلات عليه .

(٣) هيد أندرسون :الاتجاهات الفكرية القديمة، صـ ٢٦١، وراجع لجاكوني : الأديان في الشرق القديم، صـ ٣٥٥ .

ما لا يتمكن منه الآخرون " على أساس ما تنقله الأساطير القديمة من أن جانتي كان إنسانا كثير المال ، موفور الصحة، متقلبا في أسباب النعيم، ثم تخلى عن هذا كله حتى يخلص إلى العالم الأعلى ، ويبلغ درجة لا تنال لأحد ، وبخاصة أن "فيروكانا " تلميذ الإله براجاباتي، الذي خدمه لمدة تزيد على ثلاثين عاما، كان قد تعلم مبادئه، وراح يدعو إليها ، إلا أنه انقلب عليه، وانضم للجماعات المناهضة للدين، بل أخذ هو نفسه يعلم الناس المذهب الشكي ، والمذهب اللا إرداي ، كما شجع على الاستمتاع بالحياة من كافة الأوجه ، ومن ثم تحول الإنسان إلى حيوان متوحش شهواني[1] ، فكان جانتي هو بمثابة الصيحة المدوية الذي أخذ على عاتقه اتخاذ الوسائل المناسبة لإصلاح ذات المجتمع المتدني بأرض الهند القديمة •

ويبدو لي أن هذه الأسماء ، كانت تطلق على شخصية واحدة ، لكن على فترات، أو مراحل عمريه ، أو وظيفة ومهنة عمل يقوم بها، أما لماذا؟ فلأنه لما كانت أسفار الفيدا واليوبانشادا قد دعت إلى الفضيلة التي تمكنت من عقول أصحابها ، بجانب الموازنة بين العقل والبصيرة مع البدهية ، فإن ظهور هذه الجماعات المضطربة قد أدى لتدمير الفضائل كلها •

وسعى لتنمية الرذائل في كافة أشكالها ومظاهرها، ومن ثم كانت البلاد على موعد مع القدر بحيث يوجد شخص يمكنه إعادة الأمور إلى نصابها، ويكون ربان السفينة الذي يتولى قيادة التوجيه ، وقد تحقق ذلك مع مطالع القرن السادس قبل الميلاد ، وكان البطل أو القائد الجديد، الذي تولى هذه المهام هم جانتي أو ماهافيرا التي وقف عليها •

والقاعدة الأخلاقية قاضية بأن التماس القيم الفاضلة يكون مع الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي لأن العلاقة بين هذه الجوانب تبادلية ، بمعنى أنه كلما كانت قيم المجتمع الفاضلة ثابتة كانت قواعد الاستقرار قائمة ولها ذات الثبات، وكلما حدث انهيار قيمي فاضل، سادت الأنانية حتى انتصرت القيم السلبية ،وهنا تقع الكوارث التي لا يعلم نتائجها إلا الله تعالى •

---

(١) سيزيف أنطوان – الشرق القديم عقائده وآدابه، صـ ٢٧٣، ترجمة علاء زهدي •

ب - مولده ونشأته

تذكر المصادر التاريخية لتي وقفت عليها أنه في عام ٥٩٩ قبل الميلاد. ولد صبي لأسرة ثرية من أشراف قبيلة " لشامي " في ضاحية مدينة " فابشالي " بإقليم " بهار" من أرض الهند[١] . وانه كان محاطا بألوان الرعاية. وفنون العناية. إذ كان أبوه يتطلع إليه بحذر ويرقبه بعينين فيها الحنان والعطف . ويعقد عليه تحقيق أحلا كثيرة. إذ كان هذا الوالد من ذوي اليسار . الذين يرون في أولادهم صورة الامتداد الطبيعية لهم .

وكان أشراف قبيلة " لشامي " على وجه الخصوص توكل إليهم مهام عديدة منها القيادة. والسفارة. والتعليم. بجانب الأمور الضرورية الأخرى ، وبالتالي صار حرصهم على تلقين أبنائهم هذه المهام . وتعويدهم على القيام بها من الأمور الثابتة. أو القواعد العامة ذات الأهمية القصوى[٢] . ومن كان ذلك طريقهم في الحياة. فلا بد أنهم يحاولون بلوغ أبنائهم أعلى درجات فيه .

نما " ماهافيرا " داخل هذه الأسرة التي سعت لإضفاء صفة القانون القبلي على كل سلوكيات ولدهم ، الذي اعتبر حنوهم عليه بمثابة الإشارة الضوئية التي تسمح له بعبور الطرق وقتما يشاء. وبخاصة أن الفتى تردد على ثقافات كثيرة. بعضها مما خلفة الكهنة الهنود أنفسهم ، وبعضها الآخر مما هو نتاج البيئة القبلية[٣] ، وبعض آخر لقاح مشتركة أو ثمرات ملتقطة غير معروفة الأصل كما أنها مجهولة المصدر .

عاش الفتى ماهافيرا حياته الأولى كما يحب ، وقد ترتب على ذلك بعده عن والديه واغترابه عنهما فسبب ذلك بعض الآلام النفسية لهما. ضاعف منها أن اخوته جميعا قد ماتوا بأمراض لم تعرف أسبابها ، وبقي ماهافيرا وحيدا ، فتعلق به أبواه إلى أبعد

---

(١) ويعتقد جاكوفي أن ماهافيرا قد عاش ما بين سنين ٥٤٩ / ٤٧٧ قبل الميلاد، ويدعى أنه الصواب أو الأقرب، راجع للدكتور / فوزي عطية : الديانة الجانتينية ، صـ ٥٣، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧ .

(٢) ومازال هذا الأمر قائما في كثير من الدول والأمم ذات الاتجاهات القصدية التي تسعى لتدريب أبنائها في ارتياد الطرق الصعبة، وتعويدهم القيام بالمهام العديدة التي تصل أحيانا حد الصعوبة البالغة .

(٣) ولهذا الاختلاف في المعارف آثار سوف تظهر أثناء الحديث عن الاعتقادات والفلسفات التي تركها ماهافيرا، وصارت قواعد عامة أو أسس ثابتة فيمن جاء بعد ذلك متابعا المذهب الجانتيني .

حد ، ولم يكن هو ذاته مقدرا لهذا التعلق ، أو قادرا على تحمل تبعاته[١] ، وكان لذلك نتائج غير مرغوبة بالنسبة لوالديه .

أدرك الوالدان أن الحياة بهذا الشكل سوداء وملذاتها منتهية ، وأحلامها الوردية تبدلت ، فراحا ينظران للحياة نظرة متناقضة ، حتى استقر في الأعماق أن مذهب العودة للحياة مرة ثانية الذي كان له وجود في بعض المعابد فيه الكثير من الخداع [٢] ، لأن القائلين به لم يتمكنوا من تحقيقه على أرض الواقع، كما عجز الكهنة والمفكرون عن إقناع الناس بضرورة وقوعه .

ازدادت مساحة التشاؤم لدى الوالدين ، حتى بدت لهما فكرة الانتحار على أنها الطريق الوحيد للخلاص مما يعانيانه من الوحدة والقلق امرضي ، بجانب الأمراض العضوية والأفكار السوداوية التي بدأت تهاجمها بوساوسها القهرية على أوسع نطاق .

لم يكن ماهافيرا عارفا بهذه الأفكار الرأسية التي تتجول في عقل والده أو والدته[٣] ، وحتى لو عرفها فإنه لن يعمل على تبديدها بدليل أنه لم غير من أنشطته العادية أو سلوكياته الشخصية ، مما ضاعف إحساس الوالدين بفقدان أهميتهما في الحياة ومن هنا قرر كل منهما أن يزهق روح نفسه بطريقته الخاصة، فماتا منتحرين، وبالتالي حكم البعض عليهما بأنهما كانا من أنصار مذهب استحالة العودة إلى الحياة مرة أخرى أو اعتبرهما من ضحاياه .

ويذهب بالتالي إلى أن كلا من الوالدين أزهق روحه عن طريق الجوع المتعمد مع ربط كل منهما فوق فراش لم يبرحه ، فكان من نتيجة ذلك وقوع الهلاك المحقق على كل منهما [٤] .

---

(١) لأن الفتى الصغير عادة يكون مشغولا بذاته، صحيح أهله يحاولون تعليمه المبادئ والأصول التي يمكنه الالتزام بها في المستقبل، لكنه في ذات الوقت يكون حريصا على تلبية رغبات نفسه ساعيا إليها أكثر من أي وقت آخر .

(٢) مذهب العودة للحياة بعد الموت في الفكر الهندي غير البعث عندنا نحن أصحاب الشريعة الإلهية، وسوف أعرض له في حينه، راجع كتابنا:الإيمان بالغيب واقره على الفكر الإسلامي .

(٣) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته، صـ ١٧٧ ، الطبعة الرابعة .

(٤) إدوارد بالي : الأديان في العالم القديم، صـ ٢٥٧، ترجمة فايز رضوان، ط. أولى سنة ١٩٧١ .

وسواء أ كانت طرقة الانتحار قد عرفت قبل ذلك أم ظلت مرهونة بأستار الغيب ، فالذي يعنينا هو انه عندما عاد ماهافيرا من جولته ، وجد والديه قد فارقا الحياة[١] ، كما وجد آثار البلى قد تسللت إلى أجسادهما ، فحزن عليهما حزنا شديدا ، وأدرك أنه فرط فيما يجب الاحتفاظ به ، لكن ذلك قد وقع منه بعد فوات الأوان •

انقلاب ماهافيرا

في هذا الوقت ، كان ماهافيرا قد بلغ عامه الحادي والثلاثين. فقرر التخلص من رغبات نفسه تماما و بجانب القيام بعمل مخالف لما تعوده ، فطرح العالم من خلف ظهره، وكره أسباب العيش ، ثم خلع ثيابه وترك بلاد البنغال التي عاش بها ، وصار زاهدا متقشفا، ينشد تطهير النفس من أدرانها ، كما ويسعى لمعرفة أسرار الكون ، والتعرف على أسباب الوجود ، فكان صورة انقلابية من العبث والمجون الفاحش ، إلى الزهد البدني القاسي متخذا لذلك[٢] التحول الإرادي ، حيث ترك أموال أسرته كلها ، وصار فقيرا •

يذكر المؤرخون أن ماهافيرا استطاع ممارسة ما يدعو إليه من زهد وتخلص قرابة ثلاثة عشر عاما، قضاها متجولا غير معروف لدى أحد، بمكن يأوي إليه، أو مال ينفق منه عليه، فانضم إليه الكثيرون، وأطلقوا عليه اسم " جنا " ومعناه " قاهر شهوات نفسه "، وفي مرحلة لاحقة أطلقوا عليه أسم " ماهافيرا " ومعناه "البطل العظيم" •

خامسا : تكوين جماعته

انضم لماهافيرا بعض الشباب ، أول الأمر ، ثم ما لبث أن انضم إليه جملة من الكهول الذي ضاقت بهم أسباب الحياة، فرأوا أن الخلاص إنما يكون فيما يدعو إليه هذا المهافيرا

---

(١) اختلف الدارسون حول أسباب الهلاك، وكذلك وسائل الانتحار التي قام بها والدا ماهافيرا، فمن ذاهب إلى أنهما انتحرا بالسم،ومن ذاهب إلى أنهما احترقا بالنار المقدسة، ومن ذاهب إلى أنهما ماتا جوعا، ومن ذاهب إلى أنهما ذبحا حيث قام كل منهما بطعن الآخر حتى هلكا، وكلها ظنون وتخمينات •

(٢) ولا شك أن هذا الانقلاب قد يكون له آثار سلبية عديدة، وجوانب إيجابية قليلة، لكنه في ذات الوقت يعبر عن حالة من القلق أ والاضطراب النفسي الذي صاحب هذا الفتى، وكان له تأثير واضح عليه ليس من السهل تجاوزه، أو إغفال دوره فيما بعد على حياة هذا الإنسان ، وأفكاره، وامتداده إلى من حاولو تقليده واعتباره المثل الذي يجب أن يحتذي به ، وسوف تظهر آثار ذلك أثناء الحديث عن الاعتقادات والفلسفات إن شاء الله تعالى •

ويمارسه من الناحية العملية . وبخاصة الذين كانوا ضمن جماعة من المحاربين القدماء[١] الذيـن لم يحققوا شيئا من الانتصارات العسكرية . على الرغم من استعداداتهم البدنية، وتفوقهـم المهاري . كما لم تعنهم السلطة الحاكمة على ما هم فيه وبخاصة الحالة المتقدمة بالنسـبة للعمـر ، وتسمى الحالة السنية لمتقدمة . كما لم تـنظر إلى ظروفهم المعيشي ولم تـدفع عنهم الفقر والمرض. فكانت أساليب ماهافيرا هي الأمل الحقيقي المنشود ٠

بعد انضمام هذه الجماعات إليه، اختاروا لأنفسهم اسما مركبا يعرفون به وحرصوا على أن يكون مشتقا من اعتقاداتهم أو معبرا عنها . فكان هذا الاسم لذي تم الاتـفاق عليه هـو " الجانتينـيون " نسبة إلى معلمهم العظيم الذي قهر نفس، وتخلص من شهواتها ، واستطاع السيطرة على كل مباهجها ٠

مكونات الجماعة

تكونت هذه الجماعة أول الأمر من الرجال الذين ارتضوا أن يعيشوا رهبانا عزابا، وكهنة متميزين، ثم انضم إليهم بعد ذلك طائفة من النساء حتى يكن راهبات عانسات، لا يقع لهن الزواج، وليس لهن بيوت ثابتة، وإنما يتنقلون للعمل في خدمة المذهب أينما طلب منهن ذلك ، من غير اعتراض أو إبداء صورة من صور الامتعاض، يقول " هداس " لم يكن أعضـاء الجماعـة الجانتينـية سـوى مكـافحين أحرار ، ارتضوا الانخراط في الجماعة حتى يكونوا أبطالا عظماء وقاهرين متميزين ، يستوي في ذلك الرجال و النساء على السواء[٢]

أجـل ، انضـم إلى هـؤلاء الـرجال شباب حديثو عهد بهذه الأفكار، لكن لم يكونوا حديـثي عهـد بالرغـبة في الانقـلاب مـن القـيود الاجتماعـية والانقـلاب عـلى الأنظمة المـتهالكة، وبخاصـة بعـد ظهـور الآريـين كجنس متقدم في الحضارة، ثم ظهور الاولكاشين كفوارس لهم الرغبة في القتال، والرهبة داخل النفوس، ما لا يمكن حسبانه أو التقليل من

---

(١) مصطلح" المحـاربون القدمـاء " ضـارب فـي أعمـاق التـاريخ، كان يطلق في الماضي البعيد علـى مجموعـة قطـاع الطرق، ثم حدث له تطور انـتهى ذلك المعنى ، بل صار يستعمل في كل دولة طبقا لظروفها الخاصة

(٢) جيمس هداس- الأصول القديمة للجماعات الهندية، صـ ١٤١، ترجمة نادي اسحق، ط. أولى سنة ١٩٨٧ ٠

شأنه[1] .

لقد ساعدت طبيعة البلاد وموقعها الجغرافي، بجانب التركيبة السكانية بجانب الظروف السياسية والاقتصادية، وجملة الأفكار والاعتقادات المتعددة، في طبيعتها المتباينة بالنسبة للأصول التي قامت عليها على إنضمام العديد إلى هذه الجماعة [2] . بل كان من شأن ذلك تيسير عمليات الانضمام السريع للجماعة، حتى دخل إليها فتيات لم يبلغن بعد سن الشباب[3] . وكان الجميع بعمل بروح واحدة، نظرا للرغبة الملحة في الخلاص و وهي التي ملأت عقولهم وقلوبهم، فأسقطت اعتبار اختلاف المستويات الثقافية والفكرية، بل والاجتماعية أيضا .

في نفس الوقت . لم يكن هؤلاء الأعضاء جميعا فقراء، أو كانوا جميعها من أصحاب الطبقات الاجتماعية المتدنية . وإنما كانوا خليطا متميزا في أصوله وأعراقه . ومع هذا استطاعوا التمثل بآراء زعيمهم "جانتي" أو "ماهافيرا" الذي اعتبروه المثال الأعظم[4] والقائد الذي لا يمكن لأحد معاودته في قرار اتخذه ، أو مراجعته في حكمة نطق بها أو إعلان التخلي عن التعلق به مهما كانت الدوافع أو قسوة الأفكار .

ربما يقال أن الذي جمع بينهم هو ارتباطهم بأسفار " اليوبانشاد " [5] التي تعتبر من أقدم الآثار الفلسفية والنفسية التي ظهرت في بلاد الهند ولكن هذا الاحتمال ضعيف ، والوقائع التاريخية أقوى منه في الدلالة على أن أفكار الفيدا كان لها الأثر الأكبر ومع هذا لم تمنع ظهور الحركة أو الفلسفة الجانتينية .

---

(١) David, Angeluos- what the hastory, B, 4A .

(٢) فالأصول المتباينة يقع عليها التعدد وتلك مسألة مهمة جدا، ولها آثار سلبية ، متى وضع في الحسبان القفز فوق الوقائع القائمة على أقل تقدير .

(٣) جيمس هداس :الأصول القديمة للجماعات الهندية، صـ ١٤٤٧ / ١٤٨ .

(٤) راجع لهولمز شوكر: الديانات الهندية القديمة، صـ ١٩٤، ترجمة نادر فؤاد، ط. دار الموصلي سنة ١٩٧٨ .

(٥) يذهب أورلي بان إلى أن أسفار اليوبانشادا كانت معاصرة لهوفر، وأن محتوياتها تحمل الملامح النفسية والفلسفية الخاصة به ، كما تعبر عن التوجهات العقلية والاجتماعية التي يجب أن تكون، بل يجب أن تصير لها السيادة أيضا .

نهاية ماهافيرا

لما بلغ ماهافيرا الثانية والسبعين من العمر ، كان اتباعه قد بلغوا حدا من الكثرة النسبية ، إذ تجاوز عددهم في هذه الفترة أكثر من أربعة عشر ألفا ، ولم تنقطع الزيادة في أعدادهم(١) . فلما مات أقاموا له العديد من الطقوس التي أمكنهم التقاطها من جملة التعاليم والأفكار التي طرحها عليهم ومارسها بينهم ، وظلوا يتناقلون أفكاره وأراءه على أنها مقدسة . كما أخذوا في ترديد اسمه " ماهافيرا " أو "جنا " على كل واقعة يتعرضون لها. وكل فكرة يعرضونها حتى يقال في الناس القداسة التي صارت سمة سائدة لذات الأفكار فيما بعد .

وبعد وفاته ، أخذ أتباعه يتبادلون تعاليمه وآراءه ، كما أخذوا في تقليد الطقوس التي قام بها ، ثم حاولوا نشرها على أوسع نطاق(٢) ، ومن ثم رتبوها ترتيبا متصاعدا تارة متنازلا تارة أخرى .

و في النهاية تعاملوا معها على أنها عقائد الجانتينين عموما ، وبناء علية تكونت الديانة الجانتينية التي أخذت موقعها البارز بين الديانات الهندية الأخرى ، التي كانت سائدة في ذات الوقت ، ولا أغالي إذا قلت أن الجانتينية صارت إحدى الديانات الهندية الرئيسية والهامة في هذه البلاد ، حتى لا يوجد دارس في تاريخ الهند وحضارته إلا وتعرض لها بشرح اعتقاداتها والتعرف علي نتائجها الفكرية، وأثارها على الفكر الإنساني بوجه عام ثم تحولت من ديانة هندية إلى فلسفة معرفية يعبر أصحابها عن وجهة نظرهم في الوجود والمعرفة والقيم بجانب الباحث الميتافيزيقية الأخرى وسوف أكتفي بالحديث عن ماهافيرا كأبرز زعماء الطائفة .

سادسا : أقسام الجانتينية

يذكر المؤرخون أنه بعد موت ماهافيرا بفترة زمانية يسيرة ، انقسم اتباعه إلى فرق مختلف كل منها يدعي أنه صاحب الحق في الحديث عن ماهافيرا ، ويزعم أنه أختص بها

---

(١) راجع لجيمس هداس : الأصول القديمة للجماعات الهندية، صـ ١٤٧ / ١٥٤، وليالي الأديان في العالم القديم، صـ ٢٦٣، ومن ثم استمر وجود رانيالي هذا المذهب في شكل من الأشكال .
(٢) هافي اديفون : الزندقة والعدم في الفكر الشرقي القديم ، صـ ١٥٥ .

دون باقي الطوائف أو الفرق الأخرى . وفي النهاية أمكن للدارسين التقاط الصور الواضحة لأبرز فريقين هما :

الفريق الأول : أصحاب الأردية البيضاء[١]

وأطلق عليهم اسم طائفة " شوتيامبارا " وهم الرجال الذين يلبسون الثياب البيضاء في كل أحوالهم . بغض النظر عن الزمان والمكان وكانت بيضاء نقية تماما . لكنها كانت مع الصغار تختلف درجة النقاء فيها عن الكبار. كما تختلف نوعية الثياب من الحرير الكتان أو غيره[٢] . ومع ذلك. فقد حرصوا على أن تكون ذات الملابس مناسبة للزمان أو المكان ومتوافقة مع الفصول الأربعة ٠

ثم تفرع عن هذه الفرقة أربع وثمانون طائفة، يمكن اعتبارها فروعا صغيرة أو فرقا قليلة العدد ، أو كبيرة نسبيا، لأنها لم تكن يوضع في حسبان القائمين عليها العدد في الأفراد بقدر ما يعنون بالتعدد الفرعي أو النوعي . والذي تؤكده كثرة الفروع وتداخلها ، وكانت لهم اعتقادات خاصة[٣]. وأفكار قد يختلفون بها عن غيرهم من باقي فروع الطائفة ذاتها ٠

يقول " دافيد هولم " لقد كانت طائفة الأردية البيضاء تكتسب كل يوم أرضا جديدة، نظرا لسلوكيات أفرادها، ومن ثم فلم يكن من الصعب تعدد فروعها ، بل على العكس من ذلك تماما إذ حدث تكاثر واضح لها ، ومن ثم فقد صار من الطبيعي تعدد فروعها إلى الحد الذي يجعل الدارس الحذر يمضي في طريقه قدما دون خوف أو قلق[٤] ، ولعل هذا ما يفسر كثرة فروع هذه الطائفة وتنامي أعداد أفرادها في أرض الهند أبان القرون السابقة عن الميلاد ٠

---

(١) وهذه التسمية راجعة إلى ألوان ملابسهم وطبيعتها البيضاء التي كانوا يرتدونها بوجه عام ، حتى صارت هي ملابس عامة أفراد هذه الطائفة رجالا ونساء ، كما تميزت بها فروع ذات الطائفة مهما تعددت تلك الفروع ٠

(٢) هولمز شوكر : الديانات الهندية القديمة، صـ ٢٠١ ٠

(٣) يلاحظ أن كثرة الاعتقادات في الفروع المختلفة مرجعها إلى اعتبارهم الطقوس تقليدا يجب أن يراعى، ونظرهم إلى الممارسات على أنها اعتقادات ، حتى الأفكار الشخصية اعتبروها قضايا إعتقادية ، ومن هنا ظهرت لهم اعتقادات كثيرة ٠

(٤) دافيد هولم: الاتجاهات العقائدية في الشرق القديم، صـ ١٤٧، ترجمة حنان عبد الله، ط. ثانية سنة ١٩٩٧ ٠

الفريق الثاني : أصحاب الأجساد العارية

ويطلق عليهم فريق العراة ، وتسمى طائفة " ديجامبارا " [١] ومعناها " أصحاب الأجسام العارية " الذين كانوا يعتبرون السماء هي الأم الأصلية لهم ، وبالتالي فهي التي دفعت بهم إلى العرى. حتى ما كان الواحد منهم يخفي شيئا من جسده أبدا. ويتركون شعورهم تغطي أجسادهم . يستوي في ذلك الرجال والنساء .

ونظرا لكون العرى مخالفا للفطرة . فقد رفض المجتمع الهندي القبلي هذه المظاهر[٢] . لكن هذا الرفض لم يكن عاما كما لم يستمر طويلا بدليل ظهور أربع طوائف تفرعت عن فريق العراة كل منها سعت لإشباع المجتمع الهندي بالأفكار والمبادئ التي تعتنقها .

بيد أنهم لما وجدوا من كافة الناس رفضا لهذه المظاهر فقد طوروا في الاتجاهات ، حتى جعلوا الرهبان والراهبات فقط هم الذين يلتزمون بالعرى. أما باقي الأفراد فقد عاشوا حياتهم الطبيعية بين الناس، حيث يلبسون الملابس العادية التي تناسب الزمان والمكان، وراح قديسوهم وحدهم يجوبون الطرقات عراة الأجساد[٣]، داعين للتقشف والزهد، راجين الناس الامتناع عن إيذاء أي كائن حي .

أجل استطاع القديسون العراة إبراز دورهم أمام الآخرين، والتزامهم بكافة التعاليم التي تركها لهم ماهافيرا ، حتى أطلق عليهم الحفاة ، كما أطلق عليهم أسم العراة بحيث صارت هذه الألقاب . أو النعوت بمثابة العلامة التي تربط بين هؤلاء وصورة الفكر

---

(١) ديفيد هولمز: دراسات في الأديان القديمة ، صـ ١١٧، والتسمية قد تكون عربية لكننا الآن نشاهدها في التلفاز داخل الدول الغربية المتقدمة تكنولوجيا، بل أن الرئيس الأمريكي" بل كلينتون" صاحب فضيحة مونيكا كان يسير في جولته الانتخابية للرئاسة الأمريكية الأولى والثانية وحوله فريق من النساء العراة والرجال الذين يروجون لحملته الانتخابية لولايته الثانية، وكان هذا الفريق يمارس ذات الأعمال دون شيء من الخجل أو الحياء ، وعلى مرأى ومسمع من العالم كله، وللأسف الشديد فاز في الانتخابات واستمر رئيسا لبلاده الفترة الثانية .

(٢) وهذه الفطرة الإلهية قد وجدت داخل كل طفل ، لأنها من الآداب العامة، والقيم المشتركة التي دعا إليها رسل الله تعالي أجمعين، ومن شذ عنها ، فإنما يخالف الفطرة التي خلق الله الناس عليها .

(٣) راجع لهولمز: الديانات الهندية القديمة، صـ ١٩٧، ولهداس الأصول القديمة للجماعات الهندية ، صـ ١٤٧وما بعدها .

اليوناني لدى المشائين الذين كانوا يسيرون في الطرقات حفاة يدعون للفضيلة أو يحابون الرذيلة، ويطالبون الناس التزام الموضوعية في مقابلة الشكاك والسوفسطائيين الذين أفسدوا الحياة في صورها الفكرية •

سابعا : المصادر التي اعتمدوا عليها

الدارس للفكر الهندي القديم يراه قد قام عل مصادر متعددة ، ومن ثم فلما ظهرت الجانتينية قامت هي الأخرى على مصادر عديدة من أبرزها ما يلي :

أ - الأسفار الهندية القديمة

تعتبر الأسفار الهندية القديمة من أهم المصادر التي اعتمد عليها الجانتينيون ، وبخاصة أسفار الفيدا ، وأسفار اليوبانشادا ، وإذا كان اليونان القدماء قد حفلوا بالأسفار والملاحم التي تركها لهم كل من هوميروس في الالياذه[١] ، وهيزيود في الأوديسيا[٢] ، فإن الفكر الهندي القديم كان يتغنى بنصوص الفيدا و اليوبانشادا حتى صارت هذه الأناشيد هي السلوى لهم ، والآمال التي يحنون إليها ويقومون عليها ، ثم تنازلوا عنها فيما بعد ، إلى حد الإهمال الشديد[٣] ، وتجاسر بعضهم عليها فرماها بالقصور والفساد ، قد تم ذلك في مرحلة متأخرة نوعا ما ، لكنه ترك أثارا سلبية عل مصادر الثقافة الهندية ، والمعتقدات الدينية أيضا •

ب - تعاليم ماهافيرا

سلف القول بأن ماهافيرا ترك جملة من الأفكار والآراء التي طرحها عقله، حتى صارت تمثل ، بالنسبة لهم ، القواعد العامة، وجملة المبادئ الأساسية التي لا يجوز الخروج عليها فقط، وإنما يجب عليهم الالتزام الحرفي لها ، ثم إعطاء الفرصة للقديسين في شرحها وتقديم التعليقات اللازمة عليها، إذ لم يكن دور الرهبان قاصرا

---

(١) عمل شعري تحدث فيه صاحبه عن الجوانب الفلسفية، لكن من خلال تصورات غلبت عليها سمات الطابع الأسطوري •

(٢) عمل شعري عبر عن ما بداخل صاحبه، وما يجيش بأعماقه نحو الآداب والفنون والأخلاق •

(٣) دافيد هولم : الاتجاهات العقائدية في الشرق القديم، صـ ١٢١ •

على متابعة الطقوس[١] . وإنما امتد ليشمل نصوص ماهافيرا ذاته •

ثـم مـا لبثـت الأيـام أن أخـذ هـؤلاء الرهبان في تسجيل شروحهم حولها من غير تنظـيم للموضوعات التي يطرحونها على العامة ،أو يقع التعامل بها ، وظل الحال على ذلك فـترة مـن الزمان[٢] . ثم حدثت جملة من التدخلات التي انتهت إلى اعتبار أفكار ماهافيرا وتعالـيمه بحاجة إلى التبويب والتنظيم ، بحيث تتم الاستفادة منها على الوجه الأفضل . وقد فعلوا ذلك فيما بعد •

جـ - شروح الكهنة والقديسين

لم يكـن دور الكهـنة قاصـرا على الطقوس والترانيم ، وإنما ظهر كذلك مرتبطا بالـنظر في التعالـيم الـتي تـركها ماهـافيرا مـن حيـث المراجعة النظرية بجانب العمليات الطقسـية ، كما امتد فشمل الجوانب المختلفة . ومن أبرزها تنسيق الأفكار ذات الموضوعات المـتحدة أو المـتقاربة . ثـم وضـعها في جـداول مصـنفة تصنيفا يتق مع الظروف الحالية والأمـور أو القضايا الحاجية ، وفي النهاية يتم التعليق على ذات النصوص من خلال الكهنة والقديسين •

بـيد أن هذه التعليقات الأولية دفعت أعضاء الجماعة الجانتينية ، وزعماء المذهب بجانـب رؤسـاء الفـرق والطوائف إلى صبغ هذه الشروح بصفة القداسة ، وانتهوا إلى أنه مادامـت هـذه الأفكـار ذاتهـا مقدسة ، ولكونها قد قال بها قديسون ، ثم أنها تقوم بصفة أساسـية حـول أفكـار الماهافيرا المقدس[٣] فإنها تكون مقدسة سابقا ولاحقا ومن هنا تم ضم هذه الشروح و التعليقات إلى حملة المصادر التي تحمل الفلسفة أو الديانة الجانتينية •

---

(١) وهذا مما يؤكد أن قديسي ماهافيرا كانوا يقومون بأعمال مزدوجة، وأنهم تكلفوا في سبيل ذلك العناء الكثير •

(٢) ديفيد هولمز : دارسات في الأديان القديمة، صـ ١٥٧، وراجع لهداس : الأصول القديمة للجماعات الهندية، صـ ١٥٢، حيث صور كل منهما هذا الجانب من خلال وجهة نظره، مما يثري البحث بأفكار متعددة، ويضفي على المسألة الفكرية الجوانب الكثيرة •

(٣) ادوارد سوكر: المذاهب والفلسفات الهندية القديمة، صـ ٢٧١، وفيها تأكيد على أن هذه الأفكار الأسطورية أو الخيالية مقدسة •

يقول " إدوارد هولمان " من السهل اعتقاد أن الكهنة قد رسخوا في أذهان الناس أنهم مقدسون ، ثم استطاعوا بعد ذلك إدخال فكرة القداسة على شروحهم التي هي في الأصل ناتج عقولهم . وقد صدق العوام و الخواص بهذه النتائج ، لأنهم سلموا بمعتقداتها سلفا. ولو فكروا في الأمر مليا ، لغير هؤلاء الناس من توجهاتهم نحوها وخففوا من تمسكهم بها أو تعاطفهم معها[١] .

د - الرصيد الثقافي الأسطوري

لم يكن أحد يتوقع من هؤلاء المفكرين الجدد ، زعماء الجانتينية الرضوخ للفكر الأسطوري ، واعتباره أحد المصادر التي تقوم عليها فلسفتهم ومعتقداتهم ، وبخاصة أنهم رفضوا الأخذ بالأساطير من اللحظة الأولى ، غير أنهم سقطوا في الفكر الأسطوري ، ثم أخذوا منه بقدر طاقاتهم . في كل من الفلسفة والعقائد ، يدل على ذلك ما ذكره "سيفركراوس " بقوله لقد أخذت المدرسة الجانتينية فلسفتها وعقائدها من الفكر الشعبي في الجانب الأسطوري ، وصاروا يعتبرون ذلك النجوى والسلوى، فصارت لهم فلسفة تشوبها الأساطير ، وعقائد تعيش فيها الخرافات [٢] .

صحيح أن الأساطير تملأ سقف السماوات الفكرية في الهند ، حتى صار لها العديد من الأنصار والكثير من الخصوم ، لكنها تحولت من رصيد ثقافي خالص إلى عقائد ثابتة وفلسفة ذات منهج حياتي . حاولوا تطبيقه من خلال الطقوس تطبيقا عمليا وعلى العديد من النواحي.

وقد ظهرت أساطير عديدة منها أسطورة الإله باراجاباتي والباراماتمان ، كما ظهرت أسطورة الجواهر المتوسطة بجانب أسطورة المهايرتان، وغيرها من الأساطير التي تركت أثارا عديدة برزت نتانجها السلبية على أرض الهند[٣] وأخذت منها كافة المذاهب

---

(١) ادوارد هولمان : الديانات الهندية القديمة، صـ ١٣٤٤ / ١٣٥، ترجمة عادل عزيز ط. ثانية، موسكو سنة ١٩٨٧ .

(٢) سيفركراوس – الفلسفة والدين في الهند القديمة، صـ ٢٥٧، وراجع لادوارد سوكر المذاهب والفلسفات الهندية القديمة، صـ ٢٧٧ وما بعدها

(٣) سوف أعرض لها إن شاء الله تعالى أثناء الحديث عن الجانب الفلسفي نظرا لارتباطهما بتفسيرات نشأة الوجود أحد المباحث الفلسفية قديما وحديثا .

الفكرية ، حتى التي أغفلت عداءها لها، لم تتخل عنها ولم تهمل الأخذ بها[١] . مما يجعل القول بكونها أحد المصادر التي اعتمد عليها الجانتينيون أمرا ينال الكثير من الصواب ٠

هـ - الطقوس المهافيرية

بيد أن الذي يجب الالتفات إليه هو اعتبار الطقوس التي قام بها ماهافيرا مصادر دقيقة يجب الالتزام لها. فصارت جوانبه العملية بمثابة الأدلة أو المصادر التعليمية في كل من العقائد والفلسفة، بل والآداب والأخلاق. يقول "جيرمان " أن المفكر الجانتيني اعتمد على سلوكيات ماهافيرا اعتمادا كليا، لقد ظهر لهم بكل مظاهر الاحترام. فنال منهم جميعا التقديس، حتى اعتبروا سلوكياته مقدسة ، تتساوى مع التعاليم الشفوية التي كان يلقيها عليهم[٢] .

من الواضح أن القوم أخذوا عن بطلهم كل شيء حتى لحظات نومه ، واعتبروا كل ذلك داخلا في نطاق المقدسات التي يجب الاحتفاظ بها كسلوكيات مع المحافظة عليها كنصوص وممارسات ، ومن ثم فلم يجدوا مانعا من اعترافهم بأن بطلهم مقدس ، بدء من شعر رأسه ، حتى آخر ظفر في قدمه ، ومثلهم تتداخل عليهم المعارف ، وتختلط الأفكار حتى تكون عقائدهم وفلسفاتهم رجع صدى لما حبسوه في رؤوسهم ، وتمسكوا به داخل أروقتهم الفكرية، وهو ما سوف يظهر أثناء الحديث عن عقائدهم وفلسفتهم إن شاء الله تعالى ٠

---

(١) لأن العداء قد يكون موقفيا ما يلبث أن يتغير، وقد يكون عداء حركيا أو تكتيكيا متفقا عليه نظرا للمصلحة التي يبغونها وذلك كثير في دنيا الناس ٠

(٢) جيرمان: المذاهب والفلسفات الهندية القديمة، صـ ١٤٧ / ١٤٨، ترجمة وفاء صابر، راجعه عادل الأعصر ٠

أهم مصادر الفصل الأول

حسب ورودها بأسفل الصفحات

أولا : المصادر المكتوبة باللغة العربية :

١ - القرآن الكريم

٢ - توماس فيرز — الحضارة الهندية القديمة . ترجمة ظافر خيري . ط. أولى سنة ١٩٨٧ .

٣ - أندريه جيد — الأسفار الهندية القديمة .

٤ - توماس فاندر — الحركة العاقلة في الفلسفة الهندية . ترجمة صفاء مرسى .

٥ - د./ فادي محسن السروي — حضارة الهند القديمة . ط. الثالثة سنة ١٩٨٧ .

٦ - جورج رامز داني — الأساطير الهندية القديمة . ترجمة سعيد صابر سنة ١٩٧٥ .

٧ - ديفيد هونكر — المعتقدات الدينية الشرقية القديمة ، ترجمة وفاء صابر سنة ١٩٦٣ .

٨ - ول ديورانت — قصة الحضارة ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٩ - توماس ريز — الهند أرض الفلسفات القديمة، ترجمة صابر حسن .

١٠ - ديفيد انطوان بيلي — الديانات الشرقية القديمة ، ترجمة هناء سلطان سنة ١٩٦٧

١١ - سيخاروف سرنئيف — الحركات العاقلة في الشرق القديم، ترجمة زهدي صابر سنة ١٩٨٧ .

١٢ - الياف زوفر — الأسفار الهندية القديمة ، ترجمة خيري صالح سنة ١٩٨٧ .

١٣- أندريه جاكوني — الديانات الهندية القديمة ، ترجمة حسن السيد ، ط. ثانية سنة ١٩٦٢ .

١٤- سيرغي توكاريف — الأديان في تاريخ الشعوب العالم ، ترجمة حسن فاضل سنة ١٩٩٨ .

١٥- هيوم ديفيد لافي — الأديان القديمة في الشرق ، ترجمة فوزي السيد .

١٦- أندرية فوكر — خاصية الدين وطريقة تأثيره في المجتمع ، ترجمة السيد صابر طلبة .

١٧- كوارسوف — الدين الطبيعي ولا شيء بعده ، ترجمة وفاء صبري سنة ١٩٨٧ .

١٨- انطوان هيرالديون الحياة العلمية وبقاء الكون، ترجمة ظافر خيري سنة ١٩٨٦ ٠

١٩- بللي جراهام التصورات التاريخية في الفكر الشرقي القديم ، ترجمة السيد صفر ٠

٢٠- أندرية داني المدارس الشكية القديمة ، ترجمة وفاء حلمي سنة ١٩٧٥ ٠

٢١- توناباك الفكر الشرقي القديم ، ترجمة خالد صبحي. مراجعة أحمد منتصر سنة ١٩٨٧ ٠

٢٢- أندرية راني المدارس الشكية القديمة

٢٣- د. / محمد حسيني الغزالي الموسوعة الغزالية في الفلسفة الشرقية ٠

٢٤- جاكوفي الأديان في الشرق القديم، ترجمة حنان فوزي سنة ١٩٦٥ ٠

٢٥- هيداندرسون الاتجاهات الفكرية القديمة ، ترجمة عليه عبد الرحمن سنة ١٩٥٨ ٠

٢٦ انطوان فيلي الحركات الفكرية في شبه القارة الهندية، ترجمة ناهد زكي وأحمد رزق ٠

٢٧- جوستاف هافي ديانات الشرق القديم ، ترجمة الدكتور صابر حسن سويدان ، ط. أولى سنة ١٩٨٧ ٠

٢٨- جوتفريد فيلد الأديان الصينية القديمة ، ترجمة علا زكي، ط. دار التحرير سنة ١٩٨٧ ٠

٢٩- ديفيد هولمز دراسات في الأديان القديمة ، ترجمة نادر الخياط ، ط. سنة ١٩٦٨ ٠

٣٠- ديفيد هدسان الهند القديمة دياناتها وفلسفتها ، ترجمة طلال زكي ٠

٣١- شيفر كراوس الفلسفة والدين في الهند ، ترجمة ناصر عبد العاطي سنة ١٩٧٦ ٠

٣٢- هافي أديفون الزندقة والعلوم في الفكر الشرقي ، ترجمة ظافر بشارة ٠

٣٣- الدكتور / فوزي عطية الديانة الجانتينية ، ط. أولى سنة ١٩٨٧ ٠

٣٤- د. / محمد حسيني الغزالي التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، ط. رابعة ٠

٣٥- د. / محمد حسيني الغزالي الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ،ط. العاشرة ٠

٣٦- ادوارد بالي الأديان في العالم القديم، ترجمة فايز رضوان سنة ١٩٧١ ٠

٣٧- جيمس هداس الأصول القديمة للجماعات الهندية ، ترجمة نادي اسحق سنة ١٩٨٧ ٠

٣٨- د. / محمد حسيني الغزالي الغزاليات في النبوات ، الغزاليات في السمعيت، ملامح الفلسفة الهندية ٠

ثانيا : المصادر المكتوبة بلغة أصحابها

٣٩- Mores Uasse , What is the hastore. G. 135 .

٤٠- Chand Upan I, 12; Radhakri =shonan I, 149 .

٤١- Ddavids, Dialouges - of the Bud - dha. 11,73-4; Radhkrsh - aNa 274.

٤٢- Ddavids, Dialouges – What is the hastory. B, 4 A.


الفصل الثاني
أنظمتهم الطبقية



الأنظمة الطبقية بوجه عام

خلق الله الناس جميعا من أب واحد هو أدم عليه السلام، وخلق منه أما واحدة هي حواء أم البشرية جمعاء . ثم اقتضت سنة الله المطردة في البشرية أن تأتي الأنسال كلها فيما بعد من هذا الأصل الأول - أدم - وزوجته حواء بعد أن صارا زوجين [١] . وهو من الأدلة على وجود الله تعالي. قال جل شأنه " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا " [٢] .

ومن رحمته تعالى أن جعل أفراد هذه البشرية متفاوتين في حاصل الملكات العقلية .
ومن آياته جل شأنه أنه خلقهم مختلفين في ناتج الألسنة من اللغات واللهجات والمظاهر وما يتعلق بهما ، ويؤدي في نفس الوقت لما فيه مصالحهم . وتتم به شئون حياتهم على الوجه المثل ، قال تعالي " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للصالحين " [٣] .

كما بين جل لشأنه انه خلق الناس متفاوتين في قبول المهام الحياتية، وما يتعلق بها وتجري فيه المعارضة والمعاوضة [٤] ، حتى تنظم أمور الحياة، وتمضي في طريقها إلى منتهاه ، وقد ترتب على ذلك وجود نوع من التداول في العوارض بين الناس من ناحية الغنى والفقر ، الصحة والمرض ، بجانب الوظائف القيادية والتبعية، فلا يرث الأبناء ما قام عليه الأباء .

بل أن مسيرة الحياة في رحلتها الطويلة ذكرت وقوع حروب كثيرة ، انتصر فيها

---

(١) قال تعالى " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " سورة الروم ، الآية ٢١ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١ .

(٣) سورة الروم ، الآية ٢٢ .

(٤) المعارضة تكون في الصنائع والحرف، وتجري في المهن المختلفة، فالصانع يعمل للنجار، والخابز يعمل للطبيب والمهندس يعمل للأجير وهكذا تقع بين الناس جميعا المعاوضة، أما المعوضة فإنها تكون عائد أو ناتج الصنايع والحرف، ومن ثم فكل يحاول وضع القيمة التي تناسب حرفته، وهنا يقع الاختلاف بين الناس، فتكون الحاجة ماسة إلى الرسول الذي يجيء من قبل الإله تعالى بقانون إلهي ضابط لهذه المسائل وغيرها، راجع : كتابنا الغزاليات في السمعيات أثناء الحديث عن وجه الحاجة لبعثة الرسل .

فـريق عـلى ا لآخر بقوته وعتاده . أو بشدة أفراده وقوة بأسهم ودربتهم في عمليات الكر والفـر . أو الإقبال والأدبار[١] . كما أنهم تمرسوا عمليات المباغتة. وقد يكون هذا الفريق من الصعاليك ، وساكني الجبال الكهوف ، أو ساكني القصور وأصحاب الزفوف .

مـن ثـم ظهـرت الأنظمـة الطبقـية ، سـواء أكان ذلك من الناحية الفكرية أم من الناحـية الوظيفـية ، أو الناحـية العسـكرية ، بـل من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية [٢] . ومـتى درسـت هـذه الجوانب في أية مجموعة من الناحية التنظيمية برز فـيها دور كـل مـن الـتابع والمتبوع . الرئيس والمرؤس . الأستاذ والتلميذ ، الشيخ والمريد . الزعيم وحاشيته كدليل على النظام الطبقي .

أولا : الطبقة الفكرية

مـن الناحـية الفكـرية يظهر صاحب الفكر الراقي الذي تجمعت لديه الملكات. أو رزقـه الله الإمكانيات ، ومكن له في عالي القدرات العقلية ، ومن ثم وفقه الله حتى يكون هو القـائد وما بعده تبـع له . هو العالم والآخـرون يتعلمون منه ، ومن هنا يظهر بينهم الغابة المتوقد حاضر الذهن سريع البديهة ، كما يظهر الذكي اللماح ومتوسط الذكاء[٣] ، كـما تفرز الحـركة الـخامل الذي لا يكـون له في هذا المجـال من القدر الذهني والمسـتوى العـلمي بحيث يبقى في ذات السياق العلمي ، ولكنه يأخذ في القيام بأدوار خدمية يستعذ بهـا ، ولا يفكـر في الخـروج عليها ، ومن ينظر لهذا الجانب يرى النظام الطبقي المعرفي قائمـا بكل مظاهره ، وكلما أمعن المرء في هذا الجانب أمكنه أدارك ما يحيط به، وتبدت له الطبقـية الـتي قد تلاقيه في سفور شديد ، يدل عليه نظام التعليم التقليدي الذي قام على التلقين المعرفي والتلقي الشفوي ، ثـم التدوين الذي التزم الكتابة في القرطاس ، ولم يقف عند حد العلم في الراس .

---

(١) فالانتصار في المعارك ليس بالضرورة أن يكون المنتصر هو المظلوم وأن يكون المهزوم هو الظالم، لأن مسائل الغلبة في الدنيا تجري بالحيلة مع اصطناع الوسيلة .

(٢) هذا التعدد في النواحي يصاحبه تعدد في الاتجاه الطبقي ، بحيث تظهر الطبقية في الصورة المتعددة والمظاهر المختلفة .

(٣) هذه الحقيقة يشهد لها الواقع المعاش، بدليل أننا نرى أديبا متمكنا ، رغم أنه لم ينقطع لدراسة الأدب ،وإنما هو مطبوع عليه، ونرى آخر بذل قصارى جهده في دراسة الأدب ومع هذا لم يكن في مستوى الأول، وما ذلك إلا للفروق الفردية والقدرات العقلية ومن هنا قالوا أن الأديب المطبوع غير الأديب المصنوع ،كذلك الحال في باقي العلوم وجميع المعارف .

بـل جرت العادة أن ينال المعلم أكبر قـدر من الاحترام[١] ، ثم يأتي بعده منزلة من يلـيه في درجاتـه المعرفـية. وبعد ذلك يأتي دور الذي يليه ، وهكذا بحيث يقطع الجميع سلسـلة من الطبقات العلمية[٢] يمكن دراستها على الناحية التصاعدية تارة ، أو التنازلية تـارة أخرى. بل أن دين الله تعالى قد جاء مبينا هذا الطريق، حين فرق بين العالم وطالب العلم، بالنسبة للعلاقة بالله تـعالى والآخر أيضا ٠

يـدل علـيه قولـه تعـالى " إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور" [٣] وقولـه صلى الله عليه وسلم " إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع " [٤] واستقر لدى فقهاء المسلمين هذا المفهوم الطبقي ، لأنه من شريعة رب العالمين ولا يـنكر ذلـك أو يجـادل فيه إلا من فقد الأوليات، أو غابت عن عقله البديهيات . لأن ما بين العالم ومبتدئ العلم مسافات طويلة، استخدمت للدلالة عليها تعبيرات كثيرة ٠

في نفـس الوقت ، عندما قام أصحاب الخلافة الإسلامية بتوزيع الأرزاق على العلم وطلابـه، قسـموهم حسـب تحصيلهم إلى طـبقات، بحيث يجري على المتقدم الرزق الذي يتناسب مع تقدمه في العلم والتزامه به ، من خلال العالم القيم الذي يضبط هذا النظام ، ويقوم عليه خير قيام . بدليل ظهور المدارس النظامية في فارس والعراق والأزهر في مصر، والسكرية في حلـب، والقـرويين في بـلاد المغرب، بل ربما غلبت هذه المهمة على أصحابها فصارت هي العلم الدال عليه كالحال مع والد الشيخ ابن قيم الجوزيه[٥] ٠

مـن ثم يمكن القول بأن النظام الطبقي المعـرفي أمر قـائم منذ القدم، وإلا ما كان هـناك فـرق بـين الأسـتاذ والتلمـيذ، أو بين التلميذ المبتدئ في طلب العلم والسابق عليه

---

(١) ولذا قيل : قم للمعلم وفه التبجيلا — كاد المعلم أن يكون رسولا ٠

(٢) فكرة الطبقات العلمية واقع لا يمكن إنكاره، والله تعالى قد نبه اليه في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى " وفوق كل ذي علم عليم" سورة يوسف، الآية ٧٦ ٠

(٣) سورة فاطر ، الآية ٢٨ ٠

(٤) أحاديث بيان فضل العلم والعلماء ، وطلاب العلم كثير، راجع صحيح الإمام البخاري : كتاب العلم، وكذلك صحيح الإمام مسلم وغيرهما ٠

(٥) حيث كان والده يعمل قيما على المدرسة الجوزية، يشرف على طلابها وشيوخها، ويصرف لهم رواتبهم، ويسعى لترتيب أرزاقهم، ومن هنا لقبه بقيم الجوزية، ثم غلبت عليه فصارت كأنها العلم ، ومن هنا أطلق على أولاده ومنهم شيخنا ابن قيم الجوزيه، راجع للدكتور عوض الله حجازي، ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي ، ومقدمة شفاء العليل، ط. بيروت ٠

المتقدم عنه . وهذا الأمر يوجد في كافة العلوم والمعارف. بل دخل الحرف والمهن جميعها[١] ، ومن ينكر وجود ذلك، فلا عليه إن أعتبر نفسه في عداد الغفلى . ولا تتريث على الناس إن اعتبروه في عداد البله . وصنفوه مع المجانين ٠

ثانيا : الطبقة في المال

كذلك تظهر الملامح الطبقية في أصحاب رؤوس الأموال. عندما تقيم الأصول المادية . ففي الناس صاحب مال وفير. قد يحتاج الوقت الطويل لإحصانه، أو معرفة أصوله وزياداته كأصحاب الأرقام المالية الكبيرة . ومنهم قارون في الماضي . وأوناسيس رجل المال اليوناني في اليونان في القرن العشرين .وأصحاب الثروات متعددة الأصول في القرن الحادي والعشرين الذي نحن فيه الآن[٢] . بل كل نظام رأسمالي يظهر فيه أصحاب هذه الأموال الذين يطلق عليهم اسم أو مصطلح أصحاب الثروات ذات الأصول المتعددة ، وهم في الناس قلة ٠

في الناس فقير بلغ حد العدم[٣] . فهو يفترش الأرض . ويلتحف السماء . قد يسأل الناس إلحافا ، وقد يطلب منهم إلحاحا وإجحافا ، يريد أن يرد جوعه، أو يستر عورته ، ولا مانع لديه من القيام بأية أعمال، وتحمل كافة الأعباء في سبيل البقاء ، وأن تقع له الحياة بدل الموت ، وهم في الناس كثرة تفوق أصحاب الثروات من ناحية العدد والكثافة، والإحصائيات العالمية تنقل ذلك بوضوح ٠

في نفس الوقت . أمكن تصنيف هؤلاء بمسمى ما تحت خط الفقر بمراحل عديدة. ولذلك قد تسعى إليهم بعض المنظمات الإنسانية في الأماكن التي يطلقون عليهم اسم سكان أو مخيمات المجاعات ، ويدخل فيهم اللاجئون وغيرهم من أسرى الحروب ، بجانب

---

(١) أصحاب المهن والحرف فيهم الصنايعي أو المعلم أو الريس ، إلى غير ذلك من الصفات والألقاب الدالة على أصحابها في تخصصاتهم وفيهم الصبي ، وصبي المعلم، وأشخاص تحت التدريب إلى غير ذلك من الصفات التي يتصف بها من لم يبلغوا درجة أساتذتهم في التخصص نفسه ٠

(٢) وفي العالم العربي يوجد أثرياء العرب أصحاب البترول صناعته وتجارته وبخاصة دول الخليج والجزيرة العربية كالمملكة العربية السعودية ودولة الكويت، بجانب الإمارات العربية المتحدة وعمان وغيرها وكثير منهم يراعون حق الله فيها مصدرا ومصرفا ٠

(٣) وهو ما يطلقون عليه مصطلح ما تحت خط الفقر، راجع لألبرت هليموث جرار نظرية القيمة وعلاقتها بالأوضاع الإنسانية، صـ ٥٧، ترجمة زهدي خيري ٠

أصحاب الكوارث كالزلازل والبراكين، والجفاف وما كان من هذا القبيل[١] . ولا ينكر واحد من العقلاء وجودهم بكثافة عالية ، ثم تجيء مرحلة وسطى بين الطرفين، الثراء الفاحش، والفقر القاتل، تقسم هي الأخرى إلى طبقات . بعضها يقترب من أصحاب الثراء . ويعمل جاهدا حتى يصنف بينهم، ويكون محسوبا فيهم، وبعضها يخشى الهبوط إلى الفقر القاتل ويخاف شبحه، بل يسعى جاهدا حتى يتعلق في أية وسيلة بعيدا عنه .

وبين هؤلاء الطرفين الوساط متعددة، حيث يوجد من يملكون قليلا، ومن يملكون أكثر من سابقهم والواقع الذي نعيشه لا ينكر هذه المسائل لأنها حقائق مؤكدة، وصورة لأصول ثابتة . كما أن ملامحها لا تخطئها أبدا عين عقل سليم أو قلب مستقيم[٢] . بدليل وجود أصحاب ثروات محدودة من ذوي الأصول العربية القديمة أو الحديثة على السواء، كما يمكنك مطالعة هذه الأحوال في دنيا الناس من التجارة المختلفة في أنواعها ومظاهرها إلا غير ذلك من الصور .

ثالثا : الطبقية في المهن والحرف

وبعيدا عن العلم والمال، توجد طبقية في الحرف والصنائع والمهن ، فأصحاب المعارف يطلق عليهم طبقة المتعلمين، وأصحاب التجارة يطلق عليهم طبقة التجار ، وأصحاب الأعمال الزراعية يطلق عليهم طبقة المزارعين أو الفلاحين، وهناك طبقات الحدادين والبنائين بجانب طبقة أصحاب المصانع ، وطبقة أصحاب المطابع والمدابغ [٣] ، وهذه الطبقات صار لبعضها في دنيا الناس نقابات تطالب بحقوقهم ، وتعتبر نفسها مسئولة عنهم .

بيد أنه لما كان هذا التعدد الطبقي يقع على جهة المعارف والحيل، أو الصنايع وغيرها ، فلا بد من وجود طبقية في هذا النظام الإداري والسياسي أيضا ، بل امتد هذا

---

(١) والغريب أن دول العالم المتقدم ينظرون إلى هؤلاء نظرة دونية بكل ما تعنيه الكلمة، ولا يفكرون في إنقاذهم مما هم فيه إلا بقدر ما تجود به نفوسهم الممسكة ، التي ترى سعادتها في شقاوتهم ، ومتعتهم في عذابها .

(٢) ومن ينكر وجود هذه الأشياء وجودا واقعيا فلا شك يكون أعمى البصيرة مجادل في غير الحق، يعيش منفصلا عن المجتمع الذي هو أحد أفراده .

(٣) هذه الطبقية مرغوبة وتكاملية وليست مرفوضة لأنها تعمل على المواءمة مع الواقع، وتسعى لتبرير ما هي فيه ، ومن ثم فلا يكون المترتب عليها منكرا .

المفهوم إلى كل نظام قائم داخل المجتمع الإنساني ، بغض النظر عن كونه مجتمعا مدنيا متحضرا[١] ، أو بدويا لكنه يأخذ بأسباب الحضارة ، أو بدويا تقليديا يتمسك بالقديم ولا يتخلى عنه ، أو همجيا يعيش في الغابات والأدغال ، إذ هؤلاء جميعا تبدو فيهم الطبقية كصورة من صور التوافق البيني والتجمع الإنساني .

وحيث أن كل نظام طبقي قد يرتبط بعلاقات دالة عليه ، بحيث تكون العلاقات هذه بمثابة الصور الإرشادية أو العلامات، فقد امتدت هذه المسألة لتشغل عقول المفكرين قديما وحديثا، بدليل أنهم قد يستخدمون ملابس أو رموز، تدل على طبيعتهم الطبقية.

كالحال مع العناصر التي تمثل السلطة التنفيذية في الجيش والشرطة [٢] ، حيث أن كل فرع من فروع القوات المسلحة في أي نظام عسكري حديث يتميز أصحاب القوات البحرية بلباسهم المميز لهم ، كذلك الحال مع قوات الصاعقة ، والقوات الجوية ، بل داخل هذه الطبقة توجد طبقات تتعلق بالرتب العسكرية كما تتعلق بالمهارات ، أو ترجع إلى ما يطلق عليه أسم القيادات .

وكل قيادة أعلى لها نظام في علاقاتها مع الطبقات التي دونها ، فمثلا رتبة القائد الأعلى تليها رتبة المشير، ثم تجيء بعدهما رتبة اللواء أركان حرب، سواء أكان قائدا لطبقة القوات الجوية أو الدفاع الجوي، أو القوات البحرية، إلى غير ذلك من الأفرع ، ولا يستطيع أحد إنكار هذه الطبقية في المجتمعات العسكرية [٣] ، وبخاصة من النواحي الإدارية ، فضلا عن الجوانب الفنية والتقنية وما يستتبع ذلك .

غير بعيد أن ينظر المرء إلى كون الرجل والأنثى في المنزل الواحد والأسرة الواحدة، يمثلان الطبقية، ولو من خلال المظهر بالنسبة للتركيبة الجسدية والوظيفية داخل المنزل وخارجه، فكل منهما تظهر معه لمحة الطبقية التي قد يراد بها التكامل في

(١) هذا التقسيم اعتباري وليس تقسيما فاحصا أو حاصرا، بدليل أن بعض الإتجاهات يقع لها تبديل متواصل ، ويتم لها الكثير من أوجه ليس في الحسبان السكوت عن إدراكها أو الاعتراف بوجودها .

(٢) لما كانت مسألة الطبقية تظهر بوضوح في النظام الإداري ، فقد اخترت الجيش والشرطة كمثالين يراعى فيهما الانضباط أكثر من غيرهما .

(٣) وهذه الطبقية العسكرية تجمع بين النظامين الإداري والقيادي والقتالي أو الأدائي على وجه العموم .

الواجبات الإدانية، بحيث يقوم كل منهما بطرف منها [١] ، ثم تجيء النهاية حاملة التكامل المنشود، متى التزم كل منهم واجباته على النحو الذي شرعه الله تعالى ٠

رابعا : الطبقية الاجتماعية

وفي التقسيم العام ، تظهر طبقة الفقراء ، وطبقة الأغنياء ، ثم تجيء في الوسط طبقة لا هم من زمرة الأغنياء ، ولا هم من زمرة الفقراء ، وكذلك تطفو على السطح طبقة العلماء[٢] ، وعلى النقيض قد تظهر طبقة الجهلاء، ثم تتوسطها طبقة أنصاف المثقفين أو المتعلمين ٠

وحيث يمكن القول بأنه ما من نظام في الكون وإلا تبدو الطبقية داخله بشكل طبيعي، بحيث يستفيد أفراد كل طبقة من أفراد الطبقة الأخرى على سبيل التسخير والاحتياج، مهما كانت الصورة التي تبدو فيها ذات الطبقية ، ومن هنا أرى أن الطبقية الإستكمالية من سنن الله الكونية ٠

فمثلا، طبقة الأغنياء يحتاجون إلى الفقراء حتى يقوموا بأعمالهم ، التي لا بد لهم منها وإلا هلك الأغنياء ، كأعمال السباكة والبناء ، والتعمير، بل والأعمال الخدمية التي لا يمكن للأغنياء القيام بشيء منها إلا بجهد جهيد [٣] ، قد يؤدي في النهاية إلى الهلاك، أو إلحاق الأذى بهم في كافة ألوانه كالخبازة، والنجارة ، وصنع الأحذية، وخزانات الصرف الصحي من بناء وتنظيف وما يستلزم ذلك، وبهذا نجد الأغنياء يسخرون أنفسهم للفقراء عن طريق بذل المال والترضية، بجانب الإلحاح عليهم ، والقيام على خدمتهم ، ومن هذا يكون التسخير من الفقير للغني ٠

وهذه الطبقية هي التي تنتظم عليها مسيرة الحياة، وليس الغني وحده هو الذي يسخر الفقير، ولا الصحيح يفعل ذلك مع المريض، بل ولا يتم ذلك للقادر من بني البشر على العاجز ، وإلا اختل نظام الحياة ، فالطبيب يحتاج المريض ، وإلا فعلى من يتعلم ،

---

(١) مرجع ذلك إلى الصورة التي خلق الله تعالى كلا منهما عليها ،ففيها طبقية نوعية ، وليست طبقية استقلالية ٠

(٢) طبقة العلماء قد تكون لها السيادة في ظل النظام السياسي الذي يقدر العلماء ، راجع كتابنا: الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة ، ص ١١٥ ٠

(٣) هذا على فرض أن الغني سيقوم بهذه الأعمال ، ولا شك أنه سوف تتعطل أعماله الأخرى التي هي من طبيعته ٠

وممـن يجمـع أمواله ، والمريض يحتاج الطبيب ، وإلا فمن يداويه، والغنى يحتاج الفقير ، وإلا فمن يقـوم له بما لا يتـمكن الغني منه .

ومـن هـنا صارت هـذه المسـألة مـن رحمات الله تعالى ، التي يجعلها بين الكائنات جمـيعها، ومنها بنو الإنسان أيضا. وربما يقع الاستئناس لهذا المفهوم بقوله تعالى : " أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا. ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون " [١] .

وبمـتابعة المنظومة وعلاقتها بالفكر الجانتيني تبدو الحاجة واضحة ، الطبقية ، لبـيان ذلـك ، ونوعـية ذات الطـبقة، وهـل لهـا أثار إيجابية في تلك الفترة على العقلية الهـندية وبخاصة الذين تعلقوا بها، أم لا، مع تقييم هذه الآثار إن وجدت وذلك من خلال ما يلي :

ملامح الطبقية في المجتمعات الجانتينية

أولا : الطبقية التنظيمية القيادية

ويقصـد بهـا الصـورة الـتي يكـون علـيها الهـيكل التنظيمي داخل أصحاب الفكر الجانتـيني ، مـن اعتبار بعض الأفراد في قمة البناء أو التنظيم ، ولهم وحدهم حق القيام بالأعمال الرئاسية بما فيها من توجيه ، ووضع قواعد، بجانب العديد من الممارسات التي ترى الجماعة الحاجة ماسة إليها[٢] .

ويوجـد على قمة هذا الفريق الزعماء، ثم الأمراء الإقليميون أو المحليون ، ثم يـأتي بعدهـم كـل مـن كهـنة المعـابد ، الذين يقع اختيـارهم من ذات الرئيس أو جـماعة التوجيه .

فلـيس كل تنظيم جانتيني يصاحبه الكهنة أو القادة، وإنما هناك تخصص وظيفي يتـبعه تخصـص أداني، بحيث تكتشف الطبقية التنظيمية العناصر الجديدة التي يمكن

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٣٢ ، وعرف ذلك في علم الكلام باسم المعارضة والمعوضة .

(٢) وكل تنظيم لا بد أن تكون فيه هذه المظاهر، وإلا اعتبر أمرا عشوائيا لا علاقة له بشيء من التنظيم، وكل مظهر يأتي في حالة من الانضباط أو الانفلات والعشوائية، فإنما يعبر عن طبيعة هذا الذي ينسب إليه، ومن ثم كان الحكم على الكثير من الجماعات بأنها غير منظمة، بل يمكن القول بأنها تعتمد على العشوائية .

الاعتماد عليها أو الاعتداد بها في حمل الفكر الجانتيني ، وممارسة الطقوس بكافة أشكالها، حتى ترسخ في الناس أكثر من رسوخ أسمائهم بأذهانهم[١] . وتبلغ بينهم مبلغ الفطرة التي تستولي على العقول والنفوس .

يقول " لافي " لم يكن من السهل التعرف على التنظيم الفكري . أو الفكر التنظيمي لهذه الجماعة إلا من خلال مراجعة ما أمكن الوقوف عليه أو تسجيله من مؤلفات صحت نسبتها إليهم . بجانب الصورة الضونية التي يمكن التقطاطها معبرة عن هياكلهم من القيادة إلى أسفل التنظيم. ومن لم يفعل ذلك.فلن يقدم أمرا صحيحا بقدر ما يكون ضربا من ضروب التخمين[٢] .

على كل. كان ماهافيرا البطل الأسطوري الجانتيني يطالب بهذه الطبقية ويمارسها. بدليل أنه جعل نفسه على القمة ، ثم اختار مجموع ممن يثق فيهم للقيام بأعباء القيادات الفرعية، بعضهم من الحفاة و وبعضهم من العراة ، والبعض الأخير كان من جملة الكهنة الذين اعتبروهم العامة ممثلين للقديسين ، أو هم بذواتهم جملة القديسين .

يقول " هيلي " ، لقد ظهرت الطبقية في القيادة داخل الفكر الجانتيني ، مع إعلانهم المستمر أنهم يسعون للمساواة ، ويطالبون أن تتوفر هذه الأفكار حتى تتحول إلى واقع عملي ، تظهر أثاره على أرض الواقع، لكن الفكر شيء والتطبيق أمر آخر[٣] ويلاحظ أن هذه الفكرة تطرح بإستمرار على سبيل التأكيد بأن الفكر الذي لا سند له من ناحية السماء، يقع فيه القصور المتواصل . فهل ينهض أصحاب العقول السليمة والفطر الصحيحة من السبات الطويل، ويفتحون عيونهم وقلوبهم إلى هدى الله والالتزام به؟ .

---

(١) وقديما قيل أن الممارسة هي التي تجعل الفكر أمرا واقعا، وتصفه بقبوله أو عدم قبوله ، لأن ما لا يقبل التطبيق يكون أمرا خياليا، وقد بلغ درجة يحكم عليه فيها بأنه مستحيل التطبيق .

(٢) جيرار لافي : الحركة الفكرية في الهند القديمة، صـ ١٨٣، ترجمة عليه عبد الرحمن، ط. دار الجيل .

(٣) انطوان هيلي : الفلسفات الهندية القديمة، صـ ٢٤٥، ترجمة عادل فوزي . ويلاحظ أن هذه الفكرة تطرح بإستمرار على سبيل التأكيد بأن الفكر الذي لا سند له من ناحية السماء، يقع فيه القصور المتواصل ، فهل ينهض أصحاب العقول السليمة والفطر الصحيحة من السبات الطويل، ويفتحون عيونهم وقلوبهم إلى هدى الله والالتزام به؟ .

صحيح لم يكن هذا النظام الطبقي القيادي مكتوبا في سجلات بحث يمكن مراجعتها متى لـزم الأمر، وإنما صار تنفيذه يتم من خلال تعليمات شفوية، راح الجميع يتناقلونها فـيما بينهم حتى بلغت في السدوكيات المنضبطة رجة القوانين المكتوبة ، والقواعد الثابتة أما لماذا؟

فـلأن أغلب التعاليم والقواعد أبان تلك الفترة لم تكن مدونة في الكراس . وإنما كان يكتفي بما في الرأس[٢] . وهي سمة بارزة لدى هؤلاء الأقدمين من حيث الغالب الأعم. وبخاصة في المجتمعات البدائية أو اليدوية المتعددة الأعراق والأجناس كالحال مع التركيبة السكانية في المجتمع الهندي القديم ٠

وكانـت الطبقـية القيادية آخذة في التسلسل باعتبار سبق الانضمام للطائفة تارة، واعتـبار الإجـادة للطقـوس وأعمـال الكهـنوت تارة أخرى ، ولم يكن لأحد الحق في تجاوز هذيـن الاعتبارين[٣] إلا في حالة ما إذا رأت جماهير الشعب - اتباع الجانتينية - تقديم أحد القديسين على غيره ، لكونه أكثر مشاركة لهم في أسباب حياتهم المعيشية ٠

ومـن ثـم سـعى الكـثيرون مـن القديسـين إلى ممارسـة ذات الأعمـال الكهنوتـية والحياتية معا، رغبة منهم في تخطي الرتب القيادية، إذ كانت غاية الجميع أن يكونوا مع ماهـافيرا، أو صورة مستنسخة منه، حيث صار التشبه به ميزة كبرى ، كما كان الهدف الأكبر ورجال الكهنوت من أحرص الناس على بلوغ ذات الهدف ٠

يقول " هيداس " لقد ظهرت الطبقة القيادية في الجانتينية بصورة شبه منظمة ، يمارسـها كـل مـن الأقـدم والأحـدث ، كما تصان فيها حقوق الأعلى والأدنى ، وكان أفراد الشعب وحدهم الذين يملكون تخطي هذه التنظيمات متى دعموا موقف قديس ، أو رفعوا ملتمسـا شفويا للقيادة الأعلى بأن هذا القديس مشارك في أنظمتهم الحياتية ، وأنه يقدم

---

(٢) ولأن المجتمعات البدائية لم تكن معرفتها بالكتابة واسعة النطاق ، فقد عوضوا هذا النقصان بـالحفظ الشديد داخل الذاكرة ، حتى كـانوا يـراجعون هذه الأفكـار والمحفوظـات مـع أبنـائهم وبنـاتهم وإخوانهم وأخواتهم على الدوام ، بل كانت الأسرة الواحدة تقوم بعملية المراجعة للمعلومات القائمة في الصدور بصفة شبه دائمة ٠

(٣) ظهرت هذه المسألة بوضوح شديد داخل المجتمعات القبلية القديمة، ثم انتقلت منها إلى كافة المجتمعات التي اعتبرت السلوكيات الفعلية نموذجا يحتذي أو منهجا يجب عليهم الاقتداء به ، راجع كتابنا: التفكير الإنساني أصوله ومستوياته، صـ ١٥٧ وما بعدها ٠

خدمات متواصلة ، أو أنه متعاون معهم إلى حد كبير[١] ، فإذا تم ذلك، لم يكن لأحد حق الاعتراض عليه ، أو الوقوف في وجه هذا التقدم القيادي، وتلك مسألة حرص عليها الكثيرون من الكهنة الجانتينية في مراحلها الأولى •

أجل، يمكن القول بأن الترتيب القيادي يستلزم صفات محددة في كل من يتولى القيادة، لكن عندما تكون هناك صفات أخرى يمكن أن تحل بدل سابقتها ، أو تغني عنها[٢] فإن المسألة تخرج عن إطار التنظيم المشهور ، إلى آخر يجري داخل أعراف الناس أو يعتقد صحته ، هؤلاء المتابعون له ، الذين يسارعون إليه ، وتستهويهم مظاهره، وحينئذ تتغير الأحوال، ولا توجد قواعد يحتكم إليها بشأنه •

وكيف لا ونحن في القرن الحادي والعشرين، نلاقي جماعات ، ونواجه تنظيمات ، تجئ فيها القيادات متربعة فوق الجميع ، مع أنها فاقدة أهم الصفات التي لا بد منها ، أو يجب توافرها فيمن يقوم بها، فالخداع صار مظهرا للقيادة ، بدليل أن كل من ادعى العلم حسبوه عالما، ومن أطال لحيته وقصر ثوبه ، وأحنى ظهره اعتبروه قائدا دينيا[٣] ، ومن ركب أكتاف الخلائق وأوهمهم بأنه قادر على سقيهم المن وإطعامهم السلوى ناصروه ، أو اعتبروه حرا شجاعا، حتى إذا جلس إلى المقعد الذي يرجوه وجرت بين يديه الأموال التي ينشدها، تخلى عن كل مبادئه، وتنازل عن جميع أهدافه التي سبق له إعلانها، وما ذلك إلا لأنه كان مخادعا مدعيا صفات ليست له[٤] ، وإذا طالبه الناس الوفاء بما وعد تنكر لهم واعتدى لهم ، وربما اتهمهم بما هو قائم فيه من كذب وخداع ونفاق وتغرير ، وحينئذ

---

(١) انطوان هيداس : الهند عبر العصور التاريخية، صـ ٢٧٧، ترجمة إيناس عابدين، ط. أولى سنة ١٩٨٧ •

(٢) هذه الصفات الجديدة ليست معيارية أو تحت قاعدة عامة، وإنما تضع كل جماعة ما يناسب الإطار العام الذي تسير فيه، فالشيوعيون وأشباههم يعتمدون على الجدل في كل صورة ، ولا بد أن يكون القائد مجادلا بارعا لا يعرف الحياء طريقا إليه، والجماعات التي تحمل اسم الدين تختلف كل واحدة منها عن الأخرى في صفات القيادة •

(٣) وهذا مما أدى إلى ظهور العديد من الجماعات المتطرفة التي تتبنى فكرا غير سليم، ولا يقوم على أصول صحيحة ، فكانت النتائج مروعة مع أن الأهداف المعلنة قد تكون نبيلة أو مقبولة ولكن العبرة بالنتائج •

(٤) يمارس هذا الكثيرون ممن يتقدمون للمجالس النيابية، مجلس الشعب، مجلس الشورى ، المجالس المحلية ، مع علمهم بأنهم ليسوا قادرين على الوفاء بما يعدون رعاياتهم الوصول إلى هذه الكراسي أو ركوب أكتاف الناس أو جمع المال الحرام من أي طريق •

تقع الثقة تحت الأقدام بدل أن كانت في العقول بأعلى الهمام .

ومن ثم يمكن القول بأن الصفات التي يمكن توافرها فيمن يتولى الأعمال القيادية، أو المراكز القيادية.. لم تكن قاعدة تطبقه بالنسبة للفكر الجانتيني في أغلب الأحوال. وإذ توفرت بعض جوانبها كانت منقوصة بالنسبة لباقيها. وهذا مما يؤكد ظاهرة الانحراف في الفكر الإنساني(١) . لأنه لا يستطيع القيام بعملية التشريع على الوجه الكامل . فإذ حاول ذلك وتمسك به أخفق فيه. وجاءت نتانجه مغرقة في السوء ولا نجاة . إلا باتباع هدى الله تعالى الذي جاء به الأنبياء والمرسلون عن الله تعالى من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد النبي الخاتم ﷺ .

والدارس للفكر الجانتيني لا يجد صعوبة في القول بأن الطبقية القيادية كانت هدفا وغاية، وقد سعى إليها الكثيرون، وإذا تنازع الناس هذه الغايات الدنيا، تنازلوا عن أصول عامة ثابتة تمثل غايات عليا .

ومن ثم يتساقط الجميع وتزول معالم هذه الجماعة من الوجود في وقت قصير، وهو ذاته الذي يفسر لنا عمليات انقراض هذه الطائفة الجانتينية في أفرادها وأفكارها حتى صاروا اليوم يعدون ببضع مئات(٢) بدل من أن كانوا جملة كبيرة من الآلاف .

يقول " رانى " ظهرت الجانتينية فاعتنقها ما يزيد على أربعة عشر ألفا ، وقبل أن يموت ماهافيرا ، أو يختفي من مسرح الأحداث كانت أعدادهم قد تجاوزت الأربعين ألفا والمفروض أن يحصل تزايد مستمر ، وبخاصة بعد انقسامهم إلى فريقين - فريق أصحاب الملابس البيضاء وفريق أصحاب الأجساد العارية - ولكن ذلك لم يحدث ، وإنما وقع التناقص في أفرادها، والتآكل بالنسبة لأفكارها حتى أن أعدادهم اليوم لا تكاد تذكر(٣) ، وكل داء تعرف أسبابه ، يمكن اجتثاثها متى التزم المعالج القاعدة الأساسية وهي الاهتداء

---

(١) الانحراف ظاهرة، وأقسامه عديدة وأنواعه كثيرة منها العقلي والخلقي والعاطفي والديني ، راجع كتابنا أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة، الطبعة العاشرة، حيث توجد تصنيفات عديدة لهذه المسائل في شيء من التفصيل .

(٢) راجع لول ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الثاني، وراجع لاوار هيكل : الحضارة الإنسانية في الهند ، صـ ٢٧٧ .

(٣) هيداسون رافي : الحركات الفكرية في الهند القديمة، صـ ٣٧٧، ترجمة إيناس عابدين عمر سنة ١٩٨٧ .

بما أنزل الله تعالى في كتابه . وجاء على لسان رسوله الهادي سينا محمد ﷺ .

ثانيا : الطبقية الفكرية والعقائدية

الفكر الصحيح حركة يقوم بها العقل وحده، وقد تساعده بعض الحواس أو جملتها بحثًا عن الحلول المقترحة للمشكلات القائمة أو المتوقعة . كما ينهض ببحث مسائل يطرحها العقل على ذاته، ويسعى في الوصول لنتائج نحوها يعتبرها صحيحة أو قابلة للسلامة والصحة. وكلما وصل إلى نتائج اندفع للتي بعدها. ومتى أمكنه الوقوف على حقيقة حاول الإمساك بالتي تليها، وكلما واجهته مشكلة بذل المجهد الأكبر ، حتى قيل أن الحاجة هي أم الاختراع. والله تعالى لم يجعل الناس في مستوى فكري واحد، بدليل ما نراه في الظواهر الفكرية القائمة بين الناس والتباين القائم بالأغراض والغايات، وكل ذلك لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى على وجه الكمال[١] ، وأن وقفنا على بعضها ، فما ذلك إلا من منح الله تعالى ، لأن الأمور كلها بيده وحده وترجع إليه جل شأنه، بل هي من أقسامه التي لا شأن لأحد بها .

وهذا التباين الفكري ، يترتب عليه وجود طبقات فكرية عديدة، بعضها يقنع بما وصل إليه ، ويعتبره غاية ما بنفسه ، وأطيب أمانيه ، وبعضها يحلق في الأجواء ، ويسعى للمجهول دون أن يكون لديه إلمام كامل بالمشاهدات من حيث حقائقها أو وقائعها ، ومن ثم، فهو يسفه كل الآراء المطروحة، كما يحاول النيل من جميع الأفكار القائمة، غير آسف على ما يفعل، ولا نادم متى ظهرت سلبيات نتائج ما قام به[٢] ، وهم أصحاب الذاتية أو الأنا الذاتي ، الذين يمكن الحكم عليهم بأنهم مرضى من نوع خاص .

ثم يأتي بعض آخر يتسم بالهدوء ، وتغلب عليه الواقعية، فهو يفكر في الممكن ، ولا يعتبر الحديث عن المستحيل إلا من قبيل تحميل النفس فوق طاقتها ، وتكليف العقل بما لا قبل له به ، وهو في طريقه ، العقلي ومنهجه الفكري ، يلتزم الموضوعية ولا

---

(١) لأن أفعال الله تعالى محكمة كلها، فالحكيم من أسمائه الحسنى، والحكمة صفة أفعاله جل شأنه، ولا يخرج شيء عنها ،سواء أدرك الناس وجه الحكمة أو لم يدركوا، راجع كتابنا تعليل أفعال الله بالأغراض بين المثبتين النافين ، الطبعة الثانية .

(٢) والحمقى دائما هم الذين يظنون بأنفسهم الكمال وينعتون غيرهم بالقصور والنقصان ، ويقدمونهم مهما كانت أفكارهم صحيحة وآراؤهم سليمة ، وكذلك يفعل المفرزون الذين ينظرون لغيرهم نظرة متدنية .

يهمل الذاتية . كما لا يتجاهل الغيرية. لأن الوصول للحقيقة هو الهدف الذي يسعى إليه والغية التي ينشدها[١] .

وهذا الأخير يمكن تقسيمه إلى طبقات أو منازل أو درجات. بحسب الاستعدادات أو البدايات والنهايات. بل لا مانع من النظر إليه باعتبار المجتمع الذي يعيش فيه. والواقع العلمي أو العملي الذي يحتويه . إذ ليس من المعقول أن يتساوى صاحب الخبرة الطويلة المتواصلة مع صاحب الأفكار القصيرة المبتدئة في طريقة البحث والنتائج[٢]، وإلا ما كان هناك فرق بين عالم أضناه البحث الفكري. وباحث مستجد ما يزال في مطالع الطريق يحبو

على كل فإن أصحاب الفكر الجانتيني ، قسموا أنفسهم إلى طبقات فكرية. بحيث يسمح للبعض بممارسة جوانب من الفكر ولا يسمح لبعض آخر بها ، اعتقادا منهم أن المسموح به لطائفة بعينها هو المناسب لها ، بدليل أنهم سمحوا لطائفة أصحاب الأردية البيضاء بالتأمل في سلوكيات ماهافيرا جميعها. وكذلك مأثوراته[٣] ، ولم يقفوا في وجوههم بشأنها. حتى إذا ما استمروا في طريق التأمل الفيزيقي وخاضوه ، أمكنهم أيضا النظر العقلي ثم الاتجاه لما سواه .

أما طائفة العري ، فلم يسمحوا لهم بالتفكير إلا في حدود ما يطلب منهم، اعتقادا، وسلوكا، بحيث لا يمكن إ طلاق العنان الفكري لهم، وكان شانكيرا يقول ، يسمح للجانتيني بممارسة الفكر ، لكن لابد له من حدود يبتدئ منها، ويقف عندها، ومن غير المعقول أن نكلف صاحب الرداء الأبيض وهو الذي تلقى تعاليم ماهافيرا كاملة ، بمثل ما نكلف به أصحاب العرى الذين لم يفهموا عن ماهافيرا، ولم يتلقوا عنه إلا أقل القليل ، وإلا نكون

---

(١) رغم أن هذا النوع من الناس قليل، لكن آثارهم ظاهرة ، ونتائجهم ملموسة، وأفكارهم تقبل التطبيق العملي، راجع كتابنا: التفكير الإنساني أصوله ومستوياته .

(٢) راجع كتابنا: الحثيث في المنطق الحديث، حيث تعرضت هناك لهذا الجانب، أو راجع للدكتور / فؤاد أبو حطب، الفروق الفردية .

(٣) فيكتور أندراوس : الحركة الجانتينية في الهند القديمة، صـ ٢٥٧، ترجمة وفاء صابر سنة ١٩٥٨، وهذا الاتجاه أكد عليه ول ديورانت في قصة الحضارة، وذكره هيدسون رافي في كتابه : الحركات الفكرية في الهند القديمة .

قد ذبحنا الفريقين معا [١] .

وهذا اعتراف منه بضرورة قيام الطائفية الفكرية داخل الجماعة الجانتينية، لكن ما هي الطبقات الرئيسية في الفكر الجانتيني، ذلك ما سوف أعرضه في الآتي :

الأولى : طائفة القديسين

وهم الذين اختارهم ماهافيرا بنفسه حال حياته ، ليكونوا قديسين له ، كهنة لمعابده . يقومون معه بنشر مبادئ المذهب . والعمل على أن تقوم في الناس من الناحية العملية التطبيقية . وهؤلاء القديسون يسمح لهم بالتأمل في كل شيء ، بل لا حدود يمكن الوقوف عندها ، إنهم تحولوا إلى صور مستنسخة من ماهافيرا [٢] ، أو هم الذين يظهر فيهم ، بحيث يكونون معالم له الفكر والجود .

ويعتقد " أناكو " أن هؤلاء القديسين قد مكنتهم الآلهة من ارتياد كل الجوانب الفكرية، بل دربتهم على الخوض فيها، فلما أرادت الخير المطلق جعلت ماهافيرا يظهر للوجود حاملا البذور المختلفة لكافة النباتات التي يمكن أن تلقيها بحيث تجيء في النهاية بنتائج ترضى عنها الآلهة، وتأمل فيها القبول ، بل وتكون هي الأخرى آلهة، وهذه البذور التي نمت هم طائفة القديسين[٣] .

صحيح كان القديسون الجانتينيون مميزين في طبقتهم الاجتماعية والدينية، بل والفكرية أيضا، وأنهم صاروا يمارسون ما يريدون من غير قيود، لكن هل كل قديس صاحب إمكانيات عقلية راقية ، تسمح له أن يكون متميزا ؟ وهل يمكن اعتبار كل أفراد هذه الطائفة من ذوي الفكر المرتب حتى يكونوا فوق الرؤوس، أو الطبقة الأولى؟ [٤] .

---

(١) أندريه هيكر: الحركات الفكرية في الهند القديمة، صـ ١٩٧، ترجمة وفاء حسن سنة ١٩٧٥ ، وإنها كانت من أهم عقائدهم على وجه الإطلاق ، أو هي أحد القاوسم المشتركة في الاتجاهات العقائدية كلها .

(٢) وهذا يؤكد أن فكرة التناسخ الروحي يسعى الجميع التناسخيين إليها ، وإنها كانت من أهم عقائدهم على وجه الإطلاق ، أو هي أحد القاوسم المشتركة في الاتجاهات العقائدية كلها .

(٣) إدوارد هنري : الفكر الشرقي القديم أصوله ومشكلاته، صـ ٤١ .

(٤) هذه التساؤلات مشروعة أو تجد لها مكانا من عقل الدارس الذي لا يحصر همه في نقل الآراء، وإنما يسعى لمعرفة الحقيقة، أو على الأقل يضع في اعتباره أن يكون صاحب رأي يقوم على أصول سليمة .

ذلك وغيره ما لم يتم تقديم إجابات كافية بشأنها. وكل ما تم الوقوف عليه بهذا الشأن لا يخرج عن كونه جملة من الاحتمالات التي دارت برؤوس من أرخوا لهذه الطائفة أبان مرحلة ظهورها الأولى ٠

غير أن بعض المؤرخين المحترفين، قد حاولوا تقديم إجابات لذات الأسئلة اعتقدوها صحيحة ، أو يقينية ، ثم انتهوا إلى أن القديسين كانوا من ذوي النباهة والفكر[١] ، وأنهم في جملتهم تم اختيارهم من وسط اجتماعي متميز[٢] ، وتمت عليهم دارسات عديدة، ووضعت لهم اختبارات ذكاء كفيلة بأن يكونوا طبقة فكرية متميزة. ويستدلون لذلك بأنهم كانوا قادرين على تقديم الحلول المقترحة لآية مشكلة تطرأ عليهم ، أو تواجه المجتمع الجانتيني، كما أنهم صاروا بمثابة دعاة البعث الجديد للأفكار والآداب والفنون والقيم التي دعت إليها، ومهدوا لإرساء القواعد حتى يستفيد بها من أتى بعدهم لخدمة ذات الجماعة ٠

يقول " جيرار " كان أغلب الكهنة والقديسون الجانتينيون من أكبر الناس ذكاء ، وأعلاهم اجتماعيا ، وأوسعهم ثقافة ، بل وأعظمهم طهارة ، وأقدرهم على تنفيذ تعليمات ماهافيرا سلوكا واعتقادا، أنهم كانوا المثل العليا لكل أفراد المجتمع الهندي، ويكفي الواحد منهم أن تكون له معرفة بأي قديس حتى لو كان في بداية دخول الخدمة الكهنوتية[٣] ٠

على كل ، فقد كانت طائفة القديسين تمثل نوعا من الطبقية الفكرية والاجتماعية أيضا، على أساس أن هؤلاء القديسين قد نالوا في الناس المنزلة العليا بجانب الخطوة ، وصاروا بينهم المثل العليا التي تحمل أفكار ماهافيرا ، ثم تطورت هذه الأفكار -

---

(١) ممن ذهب إلى هذا الاتجاه "بيركلي" في كتابه الإنسان والحضارة القديمة ، صـ ٢٧٧، ترجمة وفيق خضر ٠

(٢) يؤكد هذا الاتجاه "جورج داني" في كتابه المجتمع الهندي القديم والحضارة الإغريقية، صـ ٣٢١، ترجمة صبحي رزق ٠

(٣) أنط وان جيرار : الحركة العاقلة في الهند القديمة، صـ ٢٤١، ترجمة هناء رزق، مراجعة فاطمة العبد، وهو يقيم رأيه على مشاهدات تاريخية ، وظواهر اجتماعية ، لم تنل القبول العلمي بقدر ما تعبر عن الاتجاه الذي يعيش في وجدان صاحبه ٠

حمل أفكار ماهافيرا - حتى صارت عقيدة تعبر عن الاستنساخ الروحي والجسدي[١] ، وهما من صلب العقائد التي تمسك بها المجتمع الهندي القديم. كما ظهرت داخل البلاد الصينية والإغريقية. بل وجميع الأقطار التي حبلت بهذه العقائد ولم تتنازل عنها وظلت ترعاها فكان التناسخ الروحي هو الوليد الذي يعبر عن صورة من القواسم المشتركة بينهم عقائديا وعرفيا •

الثانية : طبقة مظهر ماهافيرا

هم الجماعة المستخلصة من القديسين الذين تمكنوا من قهر الرغبات، وإذلال الشهوات، والسيطرة على كافة النزوات بجانب النزعات. حتى صار كل واحد منهم مظهرا لماهافيرا نفسه، وكان أصحاب الأردية البيضاء ممن تظهر فيهم صفات تلك الفكرة بشكل مكثف، حتى أن أغلبهم قد زعم لنفسه هذه المنزلة، وأدعى انه مظهر ماهافيرا[٢] ، وصار يتحدث بلسانه ويعبر عن أفكاره وآرائه •

يقول " هنري" سرت فكرة تلك التناسخ في هؤلاء الناس مسراها ، حتى صار بعضهم يعتقد حلول الأرواح العديدة به ، بحيث يتحول هو من إنسان طبيعي له استقلال تام ، إلى مظهر إنسان فيه الكثير من الأجسام المتعددة، والمظاهر المختلفة ، ثم تطورت هذه الأفكار داخل عقول أفراد ذات الجماعة بوجه •

طبقا لهذا فقد فصار كل فرد منهم يزعم لنفسه إمكانية أن يكون مستخلصا ليحل ماهافيرا فيه . وكل من ادعى هذا الحلول اعتبر من طبقة مظهر ماهافيرا، لهم حقوق كثيرة، وعليهم واجبات عديدة، ولهم أيضا امتيازات لا حصر لها، ويكفي أنهم اختيار زعيمهم وموضع ظهوره[٣] •

---

(١) فكرة التناسخ الجسدي قديمة ولها أصول قد تكون مقبولة، أما فكرة التناسخ الروحي فليست لها قواعد ثابتة ولا أصول مقبولة ، وإنما هي من مستولدات الفكر الوثني التي لم يتوقف القول بها •

(٢) فكرة المظهر الجسدي بصوره روحانية يتحدث عنها الكثيرون من ذوي الاتجاهات المنحرفة، راجع كتابنا: تأملات غزالية في النحل الشيطانية •

(٣) إدوارد هنري: الفكر الشرقي القديم أصوله ومشكلاته، صـ ٢٥٣، وهذا يؤكد شيوع فكرة التناسخ في المجتمعات الوثنية جميعها، وقد اختلفت طرق التعبير عنها، أو المظاهر التي أحاطت بها •

ولا شك أن فكرة ظهور أشخاص غائبين أو علويين في أجساد أشخاص حاضرين أو مشاهدين ليست وليدة طائفة بعينها أو زمان بذاته ، بدليل وجودها لدى قدماء المصريين متمثلة في إخناتون مظهر الإله الشمسي . كذلك كثير من الكهنة المصرين الذين علموا في المعابد لفترات طويلة . حيث اعتقد فيهم الشعب أنهم مظهر العدل. ودليل غضب الآلهة [١] أو رضاها. فإذا ابتسموا كانت الآلهة هي الباسمة وإذا غضبوا اعتقدوا أن الآلهة هي التي غضبت. وما ى ذلك . إلا لأنهم الأجساد التي تظهر فيها الآلهة. أو أنهم أجساد إلهية بشرية في وقت واحد .

كما ظهرت الفكرة ذاتها لدى قدماء الصينيين ، وسكان بلاد ما وراء النهر ، ويعتقد " هالي " أن أهل الرافدين كانوا يقدسون بعض النباتات الطبية اعتقادا منهم أنها مظهر الآلهة، أو أن الآلهة سكنت فيها. ومن ثم حرموا قطعها مهما طال بها الأمد، حتى لو فقدت خواصها الطبيعية. وتحولت إلى شجرة يابسة .

يقول أن المطالع لتاريخ الديانات القديمة في بلاد الرافدين يرى أهل تلك البلاد قدسوا العديد من النباتات . ومنها الجميز اعتقادا منهم بأن هذه النباتات تختبئ فيها الآلهة التي تمدها بما فيها من دواء ، وأن من يحافظ على هذه النباتات ترضي عنه الآلهة رضاء تاما[٢] .

من المؤكد أيضا أن بلاد الفرس القديمة، كانوا يقدسون النار ويطلقون عليها اسم النار المقدسة [٣] ، ويقيمون لها المعابد. ويرسمون الكهنة ، ويوقفون عليها الأوقاف الكثيرة ، التي فاقت في بعض الأحيان ميزانية الدولة، بل صارت القيادة السياسية في كورش مدينة للمعابد بكميات كبيرة من الذهب والأموال التي هي في الأصل أوقاف دائمة

---

(١) راجع كتابنا: تأليه الديفات الوثنية للآيات الكونية، ط.أولى، صـ ٢٧٧وما بعدها، حيث تعرضت لبيان هذه الجوانب بل قامت فكرة الكتاب كلها على تقديس الإنسان العاقل للكائنات غير العاقلة ، مع أن هذا إهدار للعقل للعقل ، وكفر بالله العظيم جل علاه .

(٢) جوزيف هالي : تاريخ الأديان القديمة، صـ ١٢٣، ترجمة رجاء فضل، ط. أولى سنة ١٩٤٧ .

(٣) راجع لسيرجي توكاريف: الأديان في تاريخ شعوب العالم، حيث تناول هذه الجوانب بشيء من التفصيل، ولول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الأول، الجزء الرابع .

علـى الكهـنة ، وخدمـة المعابد[١] . ولم تكن ظروف البلاد الإقتصادية في بعض الأحيان تساعد على دفع هذه الديون بصورة منتظمة ·

الثالثة : طبقة مستخلفي شهود ماهافيرا

أجل ظهر فريق من القديسين اعتبروا أنفسهم مظهر شهود ماهافيرا ، وأنهم طبقة متميزة عن غيرهم، كما أكدوا أنهم قد اختيروا من قبلة هو لا من قبل الشعب ليكونوا هم العلامة أو الصورة التي يرتضيها. وأكدوا مرة ثانية على حقهم في انتداب طوائف بعينها تكون هذه الطوائف بمثابة الخلفاء المتمكنين الذين يظهر فيهم الكهنة والقديسون[٢] ، ومـن هـنا ظهـرت طـبقة جديـدة سميـت طـبقة المستخلفين لشهود الماهافيرا ، وهم الذين اختارهم المظهر ليكونوا خلفاء لهم ·

ومـن الواضـح أن فكـرة شـهود يهـوه ، ليسـت بعـيدة عن فكرة شهود أو مستخلفي ماهـافيرا ، بل يمكن القول بوجود علاقة رابطة بين الفكرتين عمادها الأصلي هو التناسخ الذي يسمح في اليهودية باصطفاء مجموعة من البشر[٣] يمكنهم أن يشاهدوا يهوه في كل حالاته، نظرا لكونه اختارهم، ثم اختبأ فيهم ، فصاروا معه ، كما بات هو قائما فيهم ·

ونفـس الفكـرة بالنسـبة لمسـتخلفي شـهود ماهافيرا الجانتيني ، كل ما في الأمر أن الأخيرة جعلت الوسائط متعددة[٤] ، بينما في اليهودية الوسائط قليلة أو متكافئة، وهي في الحالـتين تعـبر عـن وجهة نظر تحتاج لمزيد من إعادة النظر حتى تظهر علاقة التأثير ، ويتمايز الأصل الذي نشأت فيه الفكرة عن الفرع الذي ظهرت فيه فيما بعد ·

---

(١) راجع كتابنا: أثر الوثنية في اليهودية، صـ ٤٧٧وما بعدها، وكتابنا: تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية، صـ ٢٤٥ وما بعدها، ففيها بعض التفاصيل حول ذات الجانب ·

(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة ، راجع لجيرار لافي : الحركة الفكرية في الهند القديمة، صـ ١٩٤ وما بعدها ·

(٣) راجع للدكتور عبد الباسط حسن : عقيدة الاصطفاء الإلهي في اليهودية وموقف الإسلام منها ، رسالة ماجستير بإشرافنا في قسم الأديان المقارنة بمعهد البحوث والدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق سنة ٢٠٠١ ·

(٤) فكرة الوسـائط هنا تتعلق بشـهود يهوه، أو ماهافيرا، وهي غير فكرة الوساطة في الفكر اليوناني التي يريدون بها حل مشكلة خلق العالم، وكلتاهما تحمل الفساد والقصور من كل ناحية ·

على كل ، تعددت الطبقية الفكرية والإعتقادية حتى صارت موازنة لطبقية القيادة التنظيمية، وأن كلا منهما حاولت أن تبقي فوق سطح الأحداث ، بل وسعت بكل طاقتها للانفراد بنوع من السلطة الدينية أو السياسية أو القيادية [١] . وهو ما يؤكد أن القوم كانوا يرفعون شعارات كثيرة، لكنهم عند التطبيق العملي لم يتمكنوا من إثبات كونهم أصحاب دعاوى صحيحة، أو أفكار مستقيمة ، بقدر ما أسقطوا أنفسهم في آبار الوثنية التي شربوا منها، وأوحالها التي لم تتمكن أقدامهم من السير فيها بشكل آمن[٢] . وإنما ارتعشت أقدامهم ، وتهاوت آمالهم ، ثم توارت أحلامهم ، وكأنها أقيمت في العراء لمحمومين تأتيهم الأمراض من كل ناحية ، وتتناولهم العوارض آنى بهد آخر ، وفي النهاية تلاقيهم العواقب السيئة ، والعذاب الأليم •

ثالثا : الطبقية الفكرية

المجتمع هو البناء الذي يضم الأسر، ويربط بينهما برباط واحد، من خلال عناصره الأساسية، وهم الأفراد ، ثم الأرض، وبعدهما يأتي النمط الحياتي ، وأخيرا القيم والعادات التي تحكم سلوكيات هذا المجتمع ، ولا بد من وضع العقيدة فوق جميع الأولويات •

وأفراد المجتمع الإنساني فيهم الفقير والغني، وفيهم الشريف والوضيع، وبينهم الأمين والخائن، كما يظهر فيهم الصادق والكاذب والمنافق، ولأنه مجتمع بشري فإن كافة الفوارق تظهر بين أفراده، إذ هم ليسوا ملائكة مطهرين ولا جملة من العصاة المتمردين ، ولا شياطين لا يطيعون، وإنما هم بشر فيهم كافة المتناقضات[٣] . وبينهم جميع أوجه الاختلافات •

فإذا نظرنا إلى أصحاب الفكر الجانتيني من هذه الناحية، تبين أنهم يقسمون المجتمع الجانتيني إلى طبقات عديدة من أبرزها ما يلي :

---

(١) وهذا التنازع قد يكون خافيا أو خفيا، لكنهم في كل الحالات لا يستطيعون استمرار السير في هذه الجوانب للأبد، بل سرعان ما تزول القشرة الخارجية، فتظهر المشكلات الحقيقية ظهورا لا يقبل الجدل، بل ويستعصي على المهادنة •

(٢) وكل من يركب طريق الغواية ينحرف، ومن يلجأ إلى صراط الله المستقيم فإنه يكون في الدنيا من الموفقين، وفي الآخرة عند الله تعالى من المقبولين الناجين •

(٣) والدافع المعاش يؤكد ذات النتيجة، بل إن كافة الإحصائيات التي قامت بها جهات رسمية انتهت عليها ، مما يؤكد أنها قاعدة عامة ، وربما فيها حكمة لا يعلمها إلا الله تعالى •

١ - طبقة أصحاب النفوذ

وهم الذين يملكون الأموال المختلفة والأصوال المتعددة من أراضي زراعية إلى أراضي تتعلق بالمراعي، كما أنهم أصحاب العقارات . وفوق ذلك فهم الذين يستطيعون تقديم خدمات للجماعة عن طريق تدوير هذه الأموال . وتحريك استثماراتها في أشكالها التي تتعلق بمصالح الجماعة ذاتها . ومن ثم كانوا يقومون بأعمال التجارة الداخلية والبينية حتى تجمعت بين أيديهم ثروات كبيرة(١) . وبناء عليه تنوعت الطبقات الاجتماعية تنوعات عديدة . بعضها راجع لاعتبارات الهيئة الاجتماعية . وبعضها راجع إلى الفقر أو الغنى . وبعضها ارتبط بالعلاقات السائدة في المجتمع الهندي القديم .

٢ - طبقة أصحاب القيود

وهم الذين أعلنوا أنهم تركوا الملذات. وغادروا الشهوات، وتحصنوا بأفكار ماهافيرا وقلدوا سلوكيات شانكيرا . واعتبروا كل شيء في الكون ممثلا للشهوة والمتع الذاتية، ومن ثم قيدوا أنفسهم بقيود الزهد والتريض . بجانب التأمل العقلي المتواصل (٢) . وأقاموا داخل عقولهم بناءات عالية من الأماني الكاذبة، والأحلام الساذجة، زاعمين أنهم بذلك ينطلقون نحو بوابة السماء، أو كما يقولون الانطلاق إلى حيث انطلق البطل العظيم ماهافيرا .

لا شك أنهم بهذه الأفكار يعطلون مسيرة الحياة فلا هم متعاونون حتى يأخذوا بأسبابها، ولا هم مبتعدون حتى لا يقع لهم تأثير سلبي بالنسبة للمشاركة فيها، وحين يقف المرء بعيدا عن المشاركات الاجتماعية في المسائل التي تتعلق بالأنماط الحياتية، فإنه يحكم على نفسه بالعزلة الشخصية، بل يدفع المجتمع إلى الانهيار في أسسه العامة ، وقواعده التي يجب المحافظة عليها(٣) ، لأن الإنسان مخلوق اجتماعي مدني بطبعه ، لا

---

(١) ومع أن الجانتينية قامت في الأصل على التخلي عن الأموال ، إلا أن الواقع أثبت عكس ما زعموه، وهي المشكلة التي لم يجدوا لها حلولا مقبولة، بل أنهم فوق ذلك كشفوا عن الفارق الكبير بين فساد الفكر عندما ينزل إلى مجال التطبيق على أرض الواقع .

(٢) راجع إدوارد هنري : الفكر الشرقي القديم أصول ومشكلاته، صـ ٢٥٧، ولجوزيف هافي : تاريخ الأديان القديمة، صـ ١٢٧ .

(٣) وهذا الاستنتاج تؤكده الحالة التي انتهى إليها من تناقض الإعداد، وضعف الموارد، وضغط الحكومات عليهم حتى كادوا أن يتلاشوا، وبخاصة في الآونة الأخيرة .

يمكنه الاستغناء عن مشاركات الآخرين له . أو مشاركته لهم في كل ما من شأنه القيام به داخل إطار استثمار الحياة في مسيرتها العادية •

وطبقة أصحاب القيود تمثل ثنائيا مزدوجا، لأن أصحابها يعلنون خروجهم من الملذات والشهوات . وهم في نفس الوقت يمارسون كافة الملذات والشهوات . ألا ترى أن الزهد ذاته أحد الملذات النفسية، ومع هذا فهم يكونون أسرا فيها زوجات وبنون وبنات ، ويقيمون علاقات اجتماعية تبادلية بين أفراد الجماعة ذاتها. وفوق كل ذلك. فهم عندما ينحازون لاتباع بوابة السماء. إنما يمارسون الشهوات في كل صورها، والملذات بكافة أشكالها، بحيث يمكن القول بأن أفكارهم لا تتفق مع سلوكياتهم أو أن أفكارهم تمضي في ناحية غير الناحية التي تجيء عليها سلوكياتهم أو تظهر فيها •

٣ - طبقة الفقراء المتنازعين

وهم الجماعات التي ليست لها موارد مالية ثابتة، وليست لهم عادات اجتماعية منتظمة، نظرا لارتباطهم بمناطق الكر والفر. بجانب وقوعهم في دوائر الحروب التي لم تنقطع، فهم يزرعون الأرض لمالكيها، ويدفعون الضرائب لطالبيها، ثم يقاتلون في صفوف مالكي الأرض حتى لو كانوا مجبرين على هذا القتال ، مع أنهم ضحايا هذا كله ، إذ هي حروب لا ناقة لهم فيها و لا جمل •

وهم أيضا الذين يقومون بعمليات الرعي داخل الأماكن الرعوية لصالح أصحاب المراعي تارة ، ولصالح القيادة السياسية تارة أخرى ، بدليل أنهم إذا طردوا من أرض مرعى لجأوا إلى غيرها، فإذا أعادهم ذو بطش وقوة إليها عادوا، وكأنهم لم يخرجوا منها ، وربما وقع العدوان عليهم فصاروا ضحية يقع التنازع عليها ، بين المالك السابق ، والمغتصب اللاحق •

ثم أن هؤلاء يقع التنازع فيما بينهم أيضا، إذ يحاول كل فريق تقوية جانبه ولو على حساب القيم والأخلاق ، أو على حساب الأصول العامة، وهنا يذبحون الفضيلة بأيديهم، ويحرمون أنفسهم من تعاطف الآخرين معهم، كما يفقدهم حماسهم الطبيعي الفطري، لأنهم لا يخرجون عن كونهم آلات تؤدي أعمالا بطريقة آلية، تنعدم معها القيم الأصيلة وتنهار العواطف الفطرية ، كما تتلاشى المسئوليات الإنسانية •

رابعا : الطبقة الأسرية ـ المنزلية

المعروف لدى علماء الإجتماع أن الأسرة هي اتحاد تلقاني تؤدي إليه الاستعدادات والقدرات الكامنة في الطبيعة البشرية ، النازعة إلى الاجتماع ، ومن ثم اعتبرت الأسرة مؤسسة اجتماعية تنبعث عن ظروف الحياة والطبيعة التلقائية للنظم والأوضاع الاجتماعية[١] ، وبناء عليه ، فالأسرة هي اللبنة الأولى في البناء الاجتماعي ، وهي في ذات الوقت إحدى الضرورات الحتمية لبقاء الجنس البشري ٠

من المؤكد أن الأسرة لا يكون لها وجود إلا إذا حدث اجتماع قام بين رجل وامرأة في حياة زوجية متكاملة [٢] ، سواء أعقب ذلك الاجتماع ثمرة أو ثمرات يعبر عنها بالأولاد والبنات - الذرية - أو لم يعقبها[٣] ذلك ، لأن الأسرة في البناء الاجتماعي أكثر الظواهر الاجتماعية عموما وانتشارا ، كما أنها الإطار العام التلقاني الذي تبرز فيه سلوكيات الأفراد وتصرفاتهم، وهي أيضا التي تتم فيها عملية التنشئة بحيث يترتب عليها تشكيل الحياة لأفرادها ، وتفرض عليهم طبيعتها ، كما اتسمهم بخصائصها وسماتها ٠

أجل مرت الأسرة بمراحل عديدة كل واحدة منها تسلم المرء للتي بعدها، كأنها ترجع به للخلف ، أو تقذف به للأمام ، لكن العناصر الهامة في البناء الأسري هما الزوجان، وكل منهما يتكامل مع الآخر ، أما لماذا؟ فلأن الله تعالى بدأ الخلق البشري بآدم عليه السلام، ثم بدأ الخليقة بخلق حواء من آدم ، حيث تم اقتطاع جزء من جسده ، ترتب عليها إنقاص من الرجل ، ولأن حواء مخلوقة من جزء الرجل ، فهي أيضا منقوصة ، هذا النقصان فيهما ليس جسديا فقط ، وإنما هو نقصان نفسي واجتماعي أيضا ٠

---

(١) الدكتور / مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الثاني، المدخل إلى علم الاجتماع، صـ ٣٥٤ مكتبة الا نجلو المصرية ٠

(٢) ويذهب بعض كتاب الغرب إلى أن الأسرة يمكن أن يكون لها وجود إذا ضمت عدد من الأشخاص يكفلون لأنفسهم استقلالا اقتصاديا منزلي، سواء أكانوا من الذكور أم من الإناث ، راجع وليم جفري : الأسرة في الميزان الاجتماعي ، صـ ١٧٧ ، ترجمة حنان رشدي ٠

(٣) يعتقد بعض كتاب الغرب أن الزوجين إذا كان بينهما عقم فلا يصح إطلاق مصطلح الأسرة عليهما، إذ لابد لهذا الزواج من ثمرة ٠

ويحسن بي أن أنقل لك صورة هذا التكامل بين الزوجين ، حسب رؤية أحد المفكرين المعاصرين[١] . يقول :

بدأ الله سبحانه وتعالى الخلق بخلق حواء من آدم ، باقتطاع جزء من جسده[٢] ، وهذا ترتب عليه إنقاص من الرجل ، ولأن حواء مخلوقة من جزء من الرجل ، فهي أيضا منقوصة وهذا النقصان في كلا الطرفين ليس نقصانا جسديا فقط ، وإنما نقصان نفسي واجتماعي أيضا . والحكمة من ذلك أن يعمر الكون بوجود الرجل والمرأة معا فلا يمكن للرجل أن يعيش ويعمر وتستمر الحياة إلا بوجود امرأة بجواره ، ولا يمكن للسيدة أن تعيش وتعمر وتستمر الحياة بمفردها ولكن بوجود الرجل بجوارها .

وذلك لأن الحكمة الإلهية تقتضي أن يوجد هذا المنقوص في الرجل والمرأة ، ويوجد هذا الجزء المنقوص سواء في الرجل أو في المرأة ، وتبدأ الحياة كما يقولون بالحب بالمعنى الكامل للكلمة ، أي بدون الحب لا يوجد ارتباط أو ود[٣] ، وبدون الحب لا توجد علاقة حميمة ، وبدون الحب لا يمكن الإنجاب ، حتى ولو كان الحب لحظيا ومؤقتا ، فالحياة تبدأ دائما بالحب بين الطرفين المنقوصين ، الرجل والمرأة .

ومنذ بدء الخليقة يحاول الرجل التقرب إلى المرأة لتعويض هذا النقص واكتمال مسيرة الحياة ، سواء أكان هذا بالزواج في البلاد الكتابية ، أو تحت أي مسمى آخر في غير الكتابيين ، ولكن المحصلة واحدة[٤] ، وهي تكامل بين إنسانين منقوصين لعمل وحدة متكاملة ، لاستمرار الحياة وعمارة الكون ، ويخطئ خطأ كبيرا من يعتبر هذا النقص ضعف سواء في المرأة أو الرجل[٥] ، فهذا النقص ليس بضعف ولكنه من حكمة الخالق سبحانه وتعالى ، وما نسمعه من تشدق بعض السيدات بأن المرأة مخلوق ضعيف ، فهو أكذوبة كبرى

---

(١) هو الأستاذ الدكتور : أسامة الغنام ، أستاذ جراحة المخ والأعصاب بكلية طب الأزهر ، والمقال منشور في صحيفة الجمهورية القاهرية بتاريخ ٢٦ أغسطس سنة ٢٠٠٣ ، الصفحة التاسعة ، العمودين الرابع والخامس من أسفل .

(٢) راجع تفاصيل ذلك في كتابنا : قوانين الوراثة بين الدين والعلم ، صـ ٤٧ .

(٣) وإشارات القرآن الكريم لهذا المعنى أبلغ ، لأنها جمعت ذلك في لفظين هما المذكورين المودة والرحمة .

(٤) هذه المحصلة التي يتحدث عنها تتعلق بعملية بيولوجية خالصة لا تنشئ آخر .

(٥) هذا النقص نوعي تترتب عليه مصالح يعلمها الله تعالى .

لأنها شخص منقوص تماما مثل الرجل ، وليست بضعيفة ، ولذا لتسير الحياة الزوجية أو العاطفية مسارها الطبيعي •

ولهذا يجب أن يفهم كلا الطرفين أن هناك نقصا في كل منهما، وهذا النقص يحتاج إلى استكمال من الطرف الآخر بغض النظر عن وظيفة ومقومات الرجل ، أو مقومات المرأة الجسدية [١] . فلا جدوى من تفاخر الرجل بأنه قوى العضلات عريض المنكبين . لأن القوة قوة العقل . وليست قوة الجسد وتفاخره على السيدة بذلك بالتأكيد سوف يجعلها تفاخره بأنها أقوى منه بمواصفاتها الجسدية. بقدرتها على الحمل والإنجاب . والذي لا يمكن لرجل أن يقوم بذلك. فلكل شخص له مقوماته ومميزاته ، وله الحق أن يتفاخر بها مع بني جنسه [٢] ، فممكن للرجل أن يعامل زميله الند بالند لأنه من صفته ونده ، والعلاقة بين الرجل والرجل تقوم على الندية والمساواة ، وكذلك بين المرأة والمرأة تقوم على الندية والمساواة أيضا •

أما العلاقة بين الرجل والمرأة فتقوم على التكامل والتوحد ، وليست على الندية أو المساواة، لان كل طرف يكمل الآخر [٣] ، أما إذا طالب الرجل مساواته بزوجته أو حبيبته في البيت ، أو العكس ، إن طالبت المرأة المساواة بزوجها ، فتبدأ من هنا فشل الحياة الزوجية ، لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن يتكامل الرجل والمرأة ، ويحصل الرجل على احتياجاته من زوجته ، وكذلك الزوجة تحصل على احتياجاتها من زوجها •

وهذا ليس متصورا به الاحتياج الجسدي فقط ، فهو أقل الاحتياجات .ولكن الاحتياج النفسي والاجتماعي، بمعنى أن وجود السيدة بجوار زوجها ، حيث تعطيه الحب والحنان والراحة النفسية والاستقرار الإجتماعي ، وكذلك وجود الرجل بجوار زوجته يعطيها الإحساس بالأمان والثقة والاستقرار [٤] ولو نظرنا إلى نسبة المشاكل الاجتماعية والاضطرابات النفسية لوجدنا أن الأشخاص غير المتزوجين أو الأرامل أو المطلقات هم

---

(١) راجع كتابنا : قوانين الوراثة بين الدين والعلم ، صـ ٨١ وما بعدها •
(٢) المراد أفراد النوع المذكور ، أومن المؤنث •
(٣) يتضح هذا من فهم قوله تعالى " لتسكنوا إليها " إذ كل من الطرفين يتكامل مع الآخر ويسكن له •
(٤) وهذا ما تشهد به الفطرة السليمة ، والعادات الصحيحة وتواتر القول به لدى الجميع •

الأكثر تعرضا لهذه الاضطرابات .

ورغم أن السيدات هم أكثر من الرجال مطالبة بالطلاق لتفتت هذا التوحد والتكامل لكن عند حدوثه مها كانت أسبابه ، فإن السيدات عادة تبدأ بالإحساس بالوحدة الشديدة ، والانتقاص وعدم التكامل من الناحية النفسية أو الجسدية أو الاجتماعية [١] ، وعند إساءة الفهم واستغلال هذا التكامل وهذا الانتقاص يظلم طرفا دون الآخر .

بمعنى إذا اكتشفت السيدة أن هذا الرجل في حاجة ماسة إلى هذا التكامل ، لإشباع نقيصته واستغلت ذلك بتطويع الرجل حتى أصبح لعبة في يدها ، وكذلك إذا اكتشف الرجل بأن هذه السيدة في حاجة ماسة إلى استكمال نقيصتها واستغل ذلك بتجريدها من كل ما تملك ، من ثروة أو علاقات أسرية واجتماعية ، فهذه الأنماط الاستغلالية ، رغم ندرتها فإنها مازالت موجودة بين الرجل والمرأة تحت مسيمات مختلفة مثل الزواج أو الزواج العرفي ، أو الحب أو العشق أو الصداقة .

ومنذ بدء الخليقة يدور الإنسان في فلك هذا التكامل والانتقاص ، فدائما يبحث الرجل على من يجد فيه نقيصته ، وكذلك تبحث المرأة عن التوحد مع الرجل لاستكمال نقيصتها [٢] ، ولكن هناك بعض الأشخاص يبحثون عن التوحد والتكامل مع الطرف الآخر ، فلا يجد ضالته التي يحلم بها في الزواج الأول ، ويظل يبحث عن زواج آخر ، ولا يجد ضالته التي يحلم بها ، ويعتبر هذا حالة مرضية ، لأنه لم يجد الإشباع أو التكامل المفترض أن يكون بارتباط واحد ، أو في ارتباط آخر على الأكثر ، ولذا فإن تعدد الزواج ، وخاصة دون أن يكون هناك سبب حقيقي أو قهري ، مثل زواج الأرامل أو المطلقات [٣] أو بسبب عدم الإنجاب ما هو خارج هذه المبررات القوية ما هو إلا للإشباع الجسدي ، وليس له علاقة بالتكامل النفسي المفترض أن يكون عادة مع شخص واحد أو شخصين على الأكثر .

---

(١) راجع لإدوارد هيث: الإنسان والتكيف الاجتماعي ، صـ ٧٥ / ٩٨ ، ترجمة زكي أنور .
(٢) ومن هنا كان الزواج هو الذي يمثل اللبنة الأولى في البناء الأسري حتى يقوم على قواعد سليمة .
(٣) هذه الإشارة واضحة ، وكأنها تمثل صيحة في آذان البعض ممن يتعجلون أسباب الحياة الرغدة في صورها الناعمة .

بدليل أن هناك بعض الرجال لا يمكن أن يستثار إلا بمن ارتبط بها نفسيا . مهما تعرض لمغريات جسدية من الطرف الآخر و أيضا تحت أي ظرف أو مسميات أخرى تسمى بالزواج في المجتمعات الكتابية أو بالمعاشرة في المجتمعات الأخرى ، ودائما وأبدا هناك تكامل وتوحد بين الزوجين حتى ولم يكن قد بدأ بالعامل النفسي ، وقد نصت الأديان السماوية على ذلك بأن الله سبحانه وتعالي خلق المودة والرحمة بينهما ليصل هذا التكامل والتوحد إلى قمته . واعتبر الزواج في الإسلام نصف الدين [١] .

أما ما يثار عن أن المرأة مخلوق ضعيف وأين حقوق المرأة ؟ ويجب المطالبة بحقوق المرأة باعتبار أن المرأة مخلوق ضعيف ، فهذه وجهة نظر جانبها الصواب العلمي ، لأن الانتقاص أو هذه النقيصة في الرجل والمرأة ، وكلاهما وحدة متكاملة والا سنقول أين حقوق الرجل لأنه أيضا شخص به نقيصة . ولكن تحت مسمى حقوق الإنسان سواء الرجل أو المرأة ، فالكل هنا له حق من حقوق الإنسان [٢] .

فالمرأة أو الرجل لهم الحق في الحياة ، حق الملبس والمسكن ، والحقوق السياسية ، وحق الدفاع عن النفس ، ودفع العدوان ، وحق عدم الظلم ، ولا يوجد ما يسمى من الناحية النفسية أو العلمية حقوق المرأة ، فهي تتساوى في الإنسانية مع الرجل [٣] ، وأرجو ألا تعتبر المرأة نفسها مخلوقا ضعيفا ، لأنها ليست كذلك لأنها تقوم بوظائف كثيرة مثل الرجال ، بداية من العمل بالمناجم مثل إنجلترا ، إلى الصعود إلى سطح القمر كأمريكا ، إلى عزق وفلاحة الأرض في ريف مصر ، جامعة ما بين هذه الوظائف الصعبة كلها .

من الملاحظ أن هذا التكامل يمكن أن فهمه على انه نوع من الطبقيه التي يترتب عليها امتياز طرف على الآخر فيما هو من خصوصياته أو على الأقل امتياز يتعلق بطبيعة كل منهما استقلالا وهو في ذاته نوع من الطبقية القائمة بذات طرفي الأسرة ، بدليل تلاقي الطرفين في داخل إطار الاستقرار النفسي والقلبي والعقلي ثم العاطفي و البدني، أو بعبارة أخرى الاستقرار بمعناه العام ، وهو ما يمكن فهمه من قول الله تعالى " ومن

(١) ومن مأثورات الناس " الزواج نصف الدين " ، وجرت أعرافهم على القول الصادر من طالب الزواج " أريد استكمال نصف ديني " .
(٢) راجع كتابنا : حلف الفضول عند الرب وأثره في العصر الحديث ، صـ ٧١ / ٧٢ .
(٣) وفي الحديث الشيف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " النساء شقائق الرجال " .

آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون "[١] .

يقول الدكتور سيد مرسي : من هنا يتضح أن سكون الزوج لزوجته ، والزوجة لزوجها فيه استمرار للنوع البشري ، من خلال كيان عائلي منظم ومستقر . له تبعاته وحقوقه[٢] ، ومعنى السكن هنا أيضا أن يطمئن كل منهما إلى حياته بسبب الآخر . بحيث تكون هذه الحياة بعيدة عن القلق والهموم والمخاوف ، إلى جانب أن يكون كل من الزوجين سترا للآخر ، يمنعه من أن يزل فتظهر زلته ، ويقيه من الجنوح والإغراق[٣] .

إذن ، فكرة الطبقية تعني امتياز كل منهما عن الآخر في جانب أو جوانب غير قائمة في الثاني بنفس المستوى . ثم تكامل كل منهما مع الآخر ، بحيث يقع التوافق الذي تنتظم به أمور الحياة ، وينهض به الفرد باعتباره واحدا من اللبنات الأولى التي يقوم عليها البناء الإجتماعي .

يقول العلامة الرازي في معنى الآية الكريمة ، لما بين الله تعالى خلق الإنسان ، بين أيضا أنه لما خلق الإنسان ولم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة ، أبقى نوعه بالأشخاص ، وجعله بحيث يتوالد ، فإذا مات الأب يقوم الإبن مقامه ، لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة في العمارة لا تنسد [٤] ، وبناء عليه ، يكون الميزان الطبقي والامتياز الأسري أمرا واقعا لا جدال فيه وإنما النزاع في كيفية توظيفه على المعنى اللائق به .

الآراء في المسألة

والباحث في الجانتينية يجد أن الطبقية داخل الأسرة الواحدة تأخذ ثلاثة أشكال مختلفة أو هي في الأصل لا تخرج عنها ، نجملها فما يلي :

---

(١) سورة الروم ، الآية ٢١ .

(٢) الدكتور سيد عبد الحميد مرسي : الفرد والمجتمع في الإسلام، صـ ١٩٥ ، مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٩٨٩ .

(٣) الدكتورة زينب رضوان : النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي، صـ ١٤٦، ط. دار المعارف سنة ١٩٨٢ .

(٤) الإمام الفخر الرازي : مفاتيح الغيب، المجلد الثاني عشر ، الجزء الرابع والعشرون، صـ ٤٥٦، ط. دار الغد العربي بالقاهرة .

الفريق الأول : أصحاب تغليب العنصر الرجالي

تقرر في بعض المصادر الجانتينية أن الرجل هو القائد الأعلى داخل الأسرة. ثم هو المسئول عن الرعاية الكاملة لها . بل هو الوحيد الذي يطلق عليه رب العائلة[١] . بحيث تحمل الأسرة أسمه . وتتغنى بأمجاده ، كما تردد مآثره ، أنه الأسطورة التي يجب محاكاتها والخرافة التي لا يمكن الاقتراب منها أو نسيانها. لقد عايش الرجال أحلامهم على أرض الواقع ، ورأوها حقائق حتى برزت فكرة تقديس الرجال داخل الفكر الجانتيني . فيقرر فورد أن الرجل في الأسرة الجانتينية كانت له حقوق هي الأقرب شبها كالإله نفسه[٢] وكانت هذه الحقوق المفروضة له . يقوم بها باقي أفراد الأسرة على أنها واجبات لا يمكن إهمالها أو التفريط فيها •

في نفس الوقت قد نقلت ذات المصادر أن الرجل كان يمارس هذه الأدوار من صباه حتى يكون مدربا تدربا دقيقا على القيام بها عند بلوغه ، بل الأكثر من ذلك هو شعوره الداخلي بأن له كافة الحقوق[٣] ، ومن واجبه إجبار العنصر الآخر على تنفيذها واحترامها ولم يختلف الأمر حول هذه المسألة بين قبيلة وأخرى ، أو مذهب قائم على أساس ديني وآخر قائم على نمط عسكري قتالي لأن القاعدة المطبقة على الجميع كانت واحدة •

ولقد كان للرجل الحق في إصدار الأحكام الأسرية كلها ، وعلى الجميع الإصغاء التام لتعليماته ، ثم التصرف التلقائي لتنفيذها ، كما أن هذا الحق قد يمتد إلى أنماط الحياة جميعها، حتى قيل ، كان الرجل الجانتيني إلها يسير داخل أسرته[٤] ، وليس المراد أنه يشبه الإله في صفاته وما يتعلق بهذا الجانب ، وإنما كان هذا التعبير ينصرف إلى

---

(١) وهذه الصورة كانت موجودة في المجتمعات القبلية والرعوية على وجه الخصوص، بل أن الدراسات التاريخية القديمة والحديثة أكدت سيطرة ذات الفكرة على المجتمع الهندي القديم، حتى صارت قواعد شفوية ،يتم التعامل بها على الدوام •

(٢) أنطوان فورد: الفكر الهندي القديم، صـ ١١٧ ، ترجمة زكريا حسن سنة ١٩٨٧ •

(٣) فكرة الحقوق والواجبات في النظم الحديثة - القوانين الوضعية تحيطها جملة من الشكوك ، مع العديد من أوجه القلق والاضطراب ، أما في الدين الإلهي فقد جاءت الشريعة الإسلامية فيها التوازن بين الحقوق والواجبات ، فكل ماله حق فإن عليه في ذات الوقت واجب، وتشمل ذات القاعدة المجتمع الإنساني كله ، راجع كتابنا : حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ، صـ ٩٧ وما بعدها •

(٤) إدوارد جيرافون: النظام الأسري في المجتمع الهندي القديم، صـ ٢١٥ ، ترجمة حنان راضي مراجعة د. / صابر خيري •

فكرة الأوامر التي لا ترد . والأحكام التي تنفذ فورا ·

أضف إلى ما سبق. أن الرجل في المجتمع الهندي القديم كان هو الوارث الوحيد لثروة الوالدين. حتى لو كان صغيرا وله أخوات كبريات[١] ، على أساس قاعدة جانتينية قديمة هي لا يحمل الآثار سوى الأبناء الأبرار. ثم انصرفت مسألة الأبناء الأبرار إلى البنين وحدهم . ولذا لم يكن للبنات نصيب في الميراث مهما تقدمت بهن السن [٢] . وكانت حاجتهن إليه متزايدة . المهم أن البنات ليس لهن حظوظ في أ ي نوع من أنواع الميراث ·

وربما يتساءل المرء لماذا كان هذا التحيز للعنصر الرجال، ولماذا تكاثرت حوله الحلول الاسترضائية . والجواب أن هذه الجماعات كانت تعيش على الحل النادر والترحال المتواصل، والرجال هم الأقدر على القيام بهذه المهام . كما أن طبيعة الجماعات القبلية تفرض عليهم الكر والفر [٣] . وهذا ما يعني أن يكون كل رجل مستعدا للدخول في حروب طويلة الأمد وصراعات مستمرة تطبيقا لمبدأ البقاء للأقوى . وهو القانون الذي طبق في عصور كثيرة داخل المجتمعات القبلية والبدائية ، ولماذا يأخذنا العجب ونحن في القرن الحادي والعشرين نرى هذه النماذج التي تمارسها دول بعينها تحت سمع العالم وبصره ، بل وربما كان صمت العالم هو الهدية المقدمة إليها حتى تستمر في ممارساتها الوحشية منقطعة النظير[٤] ، كالحال مع أمريكا وما تفعله في أفغانستان والعراق ، وما فعله الصرب بأهل البوسنة والهرسك، بل ما تفعله العصابات الإجرامية الإسرائيلية في أرض فلسطين فما هو إلا صورة من صور تأكيد المبدأ الحيواني [٥] " البقاء للأقوى ، وليس للأصلح " ·

---

(١) هذا النظام ظل معمولا به في كثير من البلدان ، حتى جاء الإسلام فوضع نظاما دقيقا للميراث وهو الذي شرعه الله تعالى لصالح البشرية جمعاء على أساس أن الشريعة الإلهية ما جاءت إلا لمصالح البشرية ، راجع للإمام الشاطبي : الموافقات جـ ٢ ، صـ ٦ / ٧ ·

(٢) الدكتور توفيق محمد صالح: الميراث وعادات الجاهلية ، صـ ٤٧ ، وراجع كتابنا : حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ، صـ ١٤٥ ·

(٣) ولما لم يعترف شداد بابنه عنترة أول الأمر ، وقال أنت عبد للحلب والصبر وست للكر والفر، فلما احتاج ولده في استرداد هيبة القبيلة بعد اختطاف نساء ذويه وفيهن عبلة راح شداد يعلن اعترافه بولده ، وقد تمكن من استرداد ابنة عمه ، راجع في ذلك : أيام العرب الجاهليين للأستاذ / احمد محمد سخسوخ ، صـ ٢١٥ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ ·

(٤) لست هنا أقدم إحصاء بما قامت به الدول الكبرى والقادرة تكنولوجيا مع الدول الأخرى كالحال مع كمبوديا والشيشان وغيرها ·

(٥) راجع كتابنا:الفكر السياسي بين الإمام الغزالي والأنظمة الحديثة،ط. الثالثة،صـ١٧٥سنة٢٠٠٤

على أن ما يلفت النظر هو تمسك أصحاب الفكر الجانتيني بهذه الممارسات . حتى كان الرجل إذا دخل بيته ، أو مرعاه، ولم يجد امرأته أو فتاته ناهضة له، ثم تركع أمامه في إستذلال . فإنه يوجه إليها العديد من الضربات واللكمات الموجعات . فإذا اشتد بها الألم ودافعت عن نفسها تحول الأمر معهما حتى كأنهما ثوران تصارعان . وقد سقط أحدهما صريعا . وجاء دور الآخر لينهي المهمة أو يجهز عليه ٠

يقول " لافي " من الصعب أن تجد امرأة جانتينية تناقش زوجها . وبخاصة إذا كانت من ذوي الظروف الاجتماعية ، إذ لم يكن مسموحا لهن بحق التحاور أو المناقشة ، كما أن العادات القائمة أبان تلك الفترة ، لم تكن تعطي المرأة سوى واجب الطاعة من غير مراجعة[١] مهما كانت الفكرة المعروضة قابلة للمناقشة أو فيها مساحة تسمح بالرأي والرأي الآخر ٠

ولهذا كانت النساء أول البدايات التي تنالها وسائل الحريق في الحروب التي تنشأ بين القبائل البدوية، ذات الترحال المتواصل ، أو التي لها نوع من الاستقرار، بل أن الرجال تتم مبادلتهم بغيرهم أو أمثالهم ، أو تتم عليهم عملية البيع ، وهو ما عرف باسم الرقيق ، أما المرأة فإنها تصير وسيلة استمتاع واسترضاء ، بل كانت بعض القبائل تدفعهن لممارسة البغاء ، بغرض تحقيق نوع من الربح، أو الاصطياد الرجال المتميزين من الخصوم ، وربما ليكن ذات مهام أخرى[٢] ، لكنها تصب في النهاية لخدمة الرجال ٠

من ثم يمكن القول بأن الولد كانت له أفضلية على الفتاة في كافة المراحل العمرية ، وأن الفكر الجانتيني طبق ذلك بصورة دائمة ، أو أنه سعى لإنقاذ هذه المهام بحيث تتأصل في النفوس ، ولا يكون هناك من معول عليه بعد هذا التأصيل، لذلك كان أغلب القديسين والكهنة من الرجال[٣] ، ولم يكن للنساء دور أو وجود إلا في شكل هامشي أو ثانوي ، إن صح التعبير ٠

---

(١) أندريه لافي : العادات القبلية والأعراف الاجتماعية ، صـ ١١٩ ، ترجمة صابر زكي ٠

(٢) راجع للأستاذ / على عبد العظيم أبو حصوة : المرأة في زمن ما قبل الإسلام ، صـ ١٤١ ، ط. ثانية سنة ١٩٥٧ ٠

(٣) هذا الاستنتاج لا يقوم على قراءة الواقع ومطالعته ،وإنما هو نتيجة لما تم رصده داخل المؤلفات أو المصادر التاريخية، ومن غير الصواب السعي لإصدار أحكام قبل الانتهاء من النظر في الدعاوى المقدمة والأدلة التي يرددها كل من أطراف الخصومة ٠

الفريق الثاني : أصحاب تغليب العنصر النساني

وهم الذين يذهبون إلى أن الطبقية الأسرية قد حفرت لنفسها في أعماق الفكر الجانتيني ، وأن ذلك قد مورس داخل المجتمع الهندي أبان تلك الفترة ، وكان عمادها المرأة فهي الأم ، والأخت ، والزوجة ، والابنة ، هي المديرة لشئون المنزل ، و الحامية للعرين ، وفوق ذلك هي التي تشد من أزر الرجال في الملاحم ، وصاحبة القول الفصل داخل الكثير من المواقف التي كانت تتطلب اتخاذ قرارات حاسمة وقوية معا .

يقول " أندريه هافر " يظن البعض أن المرأة الهندية كانت هملا مثل سقط المتاع أو موضوعا للشهوة ، واستدرار الجنس . ولكن الأمر بعكس ذلك تماما ، بدليل ظهور هيزا ، وزنيو ، شاكرا ، بجانب ثورا ، وزونكر ، وغيرهن ممن كان لهن شأن كبير في المجتمع الهندي القديم ، وأنهن مارسن أعمالا شاق وتولين الزعامة ، وكانت آراؤهن تنال من الاحترام أعلى مما تنال أراء زعماء القبائل أنفسهم [١] .

ويعزز هذا الاتجاه ما ذهب إليه اللورد " جيلي " من أن المرأة الهندية انعقدت لها الزعامة الأسرية ، ثم خرجت منها إلى الزعامة المحلية[٢] ، وأخيرا تولت مقاليد الأمور ، وصار لها دور لعبته في السياسة والاقتصاد ، كما كان لها دور كبير مؤثر بالنسبة للمشكلات الاجتماعية ، في نفس الوقت كانت هي المؤثر القوي في عمليات القتال والتلاحم حتى قيل أن الرجل الهندي لا يحقق الانتصارات السريعة إلا إذا كانت بجواره امرأة تشد من أزره[٣] وتدفعه للقتال ، وتؤكد له أنه فارسها الأوحد وبطلها المغوار[٤] .

---

(١) أندرية جون هافر : المرأة في التراث الهندي القديم ، صـ ٢١٥ ، ترجمة ناهد قطب سنة ١٩٨٧ .

(٢) ويستشهد بأنديرا غاندي ، وكثير من النسوة اللاتي كن يعملن معها ، واستطعن إنجاز مهام تعلقت بتنظيم النسل وغيره مما ساعد على تحقيق التنمية في الهند وتحقيق معدلات سريعة راجع لجيلي : الزعامات المحلية في البلاد الهندية، أنديرا مثال تطبيقي صـ ١٤٤ ، ترجمة عادل نصر سنة ١٩٨٧ .

(٣) وجود المرأة بجوار الرجل في الحروب سلاح ذو حدين، فإما أن ينظر إليها الرجل على أنها العرض الذي يجب أن يصان ، والكرامة التي يجب أن يحافظ عليها ، وحينئذ يقاتل بكل ما لديه من قوة وأقصى ما يملك من شجاعة أو يخشى عليها من الوقوع في أسر الأعداء وهو لا يرجو لها أن تدنس ، ولأعدائه أن ينالوا منها، وهذا ربما دفعه إلى الفرار والهروب بها بعيدا عن الميدان .

(٤) اللورد جبي: لحباة في المجتمعات البدائية ، صـ ٩٥ ، ترجمة ظافر خيري .

علـى أن وجـود هـذه المرأة بجوار الرجل في ميدان القتال أو الرعي . قد يعضد مواقفـه أمـا إذا كانـت هي صاحبة الشخصية القوية الآمرة ، فإنها تتولى الزعامة ، وتأخذ زمـام المـبادرة ، وتسبق إلى المصاف فتجلس في مقدمة الصفوف ، دون أن يأخذها شيء من ذلك ، إلى تقمص شخصية الرجل ، أو ينتقص من دورها الأمومي الفطري في رعاية أولادها ومنزلها وصيانة ذلك كله على الوجه الأمثل ٠

ويعـتقد " فوكـر " أن المرأة الهندية في فترة ما قبل الميلاد ، كانت تقاسم الرجل اختصاصـاته ، ثـم ما لبثت أن نازعته فيها منازعة الأكفاء ، وأخيرا استولت هي على عجلة القـيادة حتى صارت الآمرة والناهية و صاحبة الحول والطول . في الوقت الذي لجأ الرجل إلى الـرعي أو الصـيد متجنـبا الموازنة لأنها ستكون لصالح المرأة على كل حال[1] ، وهو ما كان يخشى الإعلان عنه أغلب الرجال ٠

فإذا نظرنا إلى المرأة داخل الأسرة ، وجدت صاحبة أرصدة كبيرة ومتنوعة . فهي الأم والمرضعة ، وهـي الطاهـية والمربـية ، ثـم هي التي ترقع الثوب ، وتخصف النعل ، وتـديـر البيـت ، كمـا تـدبـر الشـئون ، ولـذا جاءت منزلتها عالية داخل الأسرة ، حتى أن الفـتاة الـتي تبلغ سن الزواج كان ولي أمرها يرفع مهرها إلى عنان السماء[2] ، وكلما كانت متعددة المواهب والإمكانيات أمسك وليها عن زواجها حتى تتم تلبية متطلباته كلها ، فكانت بمـثابة الكنز الذي يملكه والدها أو ولي أمرها [3] ، وفي نفس الوقت صار حقها في اختيار الأكفأ من بين المتقدمين لها ٠

يذهب " مونتيكر " إلى أن المرأة الهندية كانت صاحبة السيادة في الوقت الذي لا يـزيد دور الـرجل عـن كونـه أحد عوامل الإنتاج ومصادر الثروة ، بجانب الوظائف التي يتم التخطيطي لها من قبل رئيس العشيرة ، وربما بلغت المرأة درجة الرئاسة في العشيرة

---

(١) جيمس فوكر : العادات الاجتماعية في شبه القارة الهندية ، صـ ١٣٤ ، ترجمة فوزي نصر ، ط. الثانية سنة ١٩٧٤ ٠

(٢) لا يقال أن المرأة هنا تشبه السلعة التي تخضع للعرض والطلب ، لأن الضوابط الاجتماعية لم تكن تسمح بهذا الدور، وإنما كانت المرأة قيمة إيجابية، ولا بد من التعامل معها بما يناسبها٠

(٣) ولـي أمر المرأة فـي الهند القديمـة ، إن لم يكن والدها فهو الولي الذي تختاره ، حتى لو لم يكن من أقاربها المقربين ، إذ يكفيه إعلان المرأة أنها اختارته وليا لها ، وربما قامت هي بإعلان كونها ولية نفسها ٠

أو القبيلة [١] ، وبخاصة إذا كانت من أسرة قيادية . وأمكن تدريبها على ذات المهام .

من ثم صارت الطبقية في نظر أصحاب هذا الاتجاه لصالح المرأة داخل الأسرة الواحدة، مادامت كفتها هي التي ترجح ، فإذا انعقدت لها الرئاسة داخل ذات الأسرة ، أمكن القول بأن كلا من الرجل والمرأة في الطائفة الجانتينية يتبادلان المواقع القيادية . لكن باعتبار من له القدرة على القيام بأعبائها ، وتساعده الظروف المحيطة به في إنفاذ ذات المهام .

بيد أن " هوفر " يقلب الموازين ، حيث يهبط بالرجل إلى أسفل الدرجات ، حيث يقول كانت المرأة الهندية قادرة على منازلة الرجال الأشداء ، والمحاربين الألداء، وأنها اشتهرت بالصلابة في الرأي مع القدرة عند الاحتمال ، بجانب إمكانياتها التي سمحت لها باستنفار الآخرين ، من الذين لم يرو في قيادتها لهم أدنى شائبة[٢] ، مهما كانوا على قدرة في القيادة وإبراز المواهب .

في نفس الوقت . فإن المرأة الهندية القديمة قد خبرت الوقائع الحياتية على طريق الاكتساب ، فصارت لديها الحاسة السادسة التي أخذت في التنامي السريع [٣] ومكنتها هذه الحاسة من إعداد بيتها للظروف الطارئة ، وتهيئة نفسها لمواجهة كافة الاحتمالات ، وهو ما يعني أن المرأة استطاعت أن تحوز لها مكانا عظيما داخل الأسرة الجانيتينة التي كانت التقاليد الأولى[٤] فيها غير قابلة لأن تتولى المرأة هذه المنزلة .

والغريب المدهش أن هذا الفريق ينظر للمرأة الهندية على أنها مدرسة متعددة المواهب ، من خلال أرصدتها المعرفية تارة ، وقدرتها على اكتساب معارف جديدة تارة أخرى ثم هي في النهاية لديها العديد من القدرات التي يكنها إنفاقها في حيازة أولادها

---

(١) جيرالد نتيكر: فن القيادة في العالم القديم، ص ١٧٧ ، ترجمة وفاء سليمان سنة ١٩٦٤ .

(٢) جيرالد هوفر: العقائد والديانات القديمة ، ص ١٢٣، ترجمة صالح فوزي، ط. ثانية سنة ١٩٥٧ .

(٣) الحاسة السادسة اصطلاح يقصد به القدرة على توقع مشكلات بذاتها ، واستقراء النتائج المترتبة عليها ، ثم اختيار الحلول المناسبة لها ، والمتوقعة بشأنها ، وبالتالي فلها دور كبير في حياة الكثيرين ممن برزت فيهم وتميزوا بها .

(٤) حدثت تطورات على التقاليد الجانتينية الأولى التي صاغها " ماهافيرا " ومن جاء بعده ، لكن هذه التقاليد حدث لها تطور مباشر ، وتطورات متلاحقة فيما بعد ، وبخاصة عندما انقسمت الطائفة إلى فريق الأردية البيضاء وفريق العري ، فصارت لكل منها تقاليده الفرعية .

ناحيتها[١]. وبخاصة أولئك الذين كانت لديهم استعدادات وصول خاصة، وتحتم ظروفهم عليهم بالبقاء قريبا من أمهاتهم اللواتي صرن في المستقبل بمثابة القاعدة التي تصنع فيها القوانين ، وتصاغ بداخلها القرارات ٠

من غير المعقول أن تحوز المرأة فضل السبق على الرجل في كافة الأنشطة ، وأن يكون ذلك كله على حساب الرجل ، وإنما يمكن القول بأن المرأة تسعى إن لم تسر مع الرجل في خط متواز بعد أن استطاعت القفز على أكتافه[٢] وأن تسبقه في ميادين كثيرة ، كما أنها حققت العديد من النجاحات التي أمكنها أن تضمها إلى أرصدتها الاجتماعية والسياسية ، وأن تظفر فوق ذلك بمغالبة الرجل حتى تجتاز كل الفوارق ، وتبلغ درجات الفوز عندها أكبر مما هو عند الرجل ٠

ويمكن القول بأن الرجل حاز الغلبة على المرأة في بعض المقاطعات ، التي كان من طبيعة بنيها أن يكون الرجل هو صاحب الكلمة العليا ، والقاعدة الاجتماعية المتميزة ، وأن يكون هو أيضا صاحب الصوت المسموع ، حتى وإن فكر الجميع بعقولهم ، المهم ، أن ناتج هذا التفكير يخرج التعبير عنه من فم الرجل لا من فم غيره[٣] ، وأن يكون تفكير الجميع بآذانهم لا بعقولهم متى حدث تصادم بين ما يريده الرجل أو يفكر فيه ، وبين ما يريده الآخرون أو يسعون إليه ٠

وفي مقاطعات أخرى، كان الأمر بالعكس، فإذا كانت السيادة للمرأة لم يجد الرجل منها أمرا صعبا أو غير مقبول ، وإنما يسعى لإعلان دور المرأة القيادي ، وقد يبلغ به حد الفخر حين الإعلان عن هذا الدور الذي تحولت به المرأة [٤] ، كالحال مع " روني بيتر " حيث كان زوجها " دو - ني " يعلن امتيازها على الجميع حتى عن نفسه ، ولم يكن يخجل

---

(١) أندريه لافي: العادات القبلية والأعراف الاجتماعية ، صـ ٢٢١ ، وراجع لأندرية هافر : المرأة في التراث القديم ، صـ ٢٢٧ ٠

(٢) راجع كتابنا : الفلسفة الشرقية ، جـ ٤ ، صـ ١٥٧ ، وكتابنا : ملامح الفلسفة الهندية القديمة صـ ١١٥ ٠

(٣) ومن ثم يسمح للجميع بالتفكير ولكن غير مسموح لأحد سوى ذات الرجل بالتعبير ، وبالتالي فهم فرقوا بين حرية التعبير ، ولما كانت حرية التعبير هي المسئولة عن بيان حرية الرأي ، فإن انعدامها يمثل القضاء عليها ٠

(٤) راجع لإدوارد فورد : الحركة العاقلة ، صـ ١٤٤ / ١٤٥ ، ترجمة عادل فوزي سنة ١٩٥٧ ٠

من ذلك ، أو يرى فيه أمرا غير طبيعي ، ولما سئل في ذلك قال إنها منحة الآلهة العظماء لي [١] .

الفريق الثالث : أصحاب الطبقية الازدواجية

وهم الذين يذهبون إلى أن النظام الطبقي في الأسرة الجانتينية ، استلزم تقسيم القيادة تبعا للأعباء العائلية إلى خارج وداخل ، أو أعباء داخلية وأخرى خارجية ، وأن هذا التقسيم إجباري[٢] . لكن نوع القيام بالعمل هو الذي يقع الأمر فيه بالاختيار ، فإذا أرادت المرأة القيام بالأعباء الخارجية وسمحت لها ظروفها وإمكانياتها بها ، لم يكن لدى الرجل مانع من التنحي حتى تقوم هي بذات الأعباء من رعي ، وزراعة ، وعقد صفقات ، بجانب الموافقة على الأحلاف والمعاهدات ، وكذلك المشاركة في إعلان قرارات الحرب والسلم [٣] .

وحينئذ يتولى الرجل الأعمال المنزلية أو الداخلية كلها، وليس لأحدهما الحق في التراجع عن القيام بالأعباء التي اختارها ، وإذ كان لابد من ذلك فيعرض الأمر على القائد الجانتيني الذي أفرزته الأعمال التي قام بها ، واختاره الشعب من أهلها، وأي حكم يفرضه سيكون الجميع ملزما به ، وبخاصة إذا كان هذا الرجل القائد من جماعة شهود ماهافيرا ، أو أحد المظاهر التي يبرز فيها .

يقول " لافي " أن القائد الجانتيني الفرعي صارت آراؤه بمنزلة الأحكام واجبة النفاذ ، لأنه متى جاءه الزوجان مختلفين فمن الطبيعي ، بل والمنطقي ، إنهما جاءاه باختيارهما ، وعرضا عليه مشكلتهما باختيارهما ، وبناء عليه يكون رأيه ملزما لهما ليس استشاريا ، بدليل انه إذا خرج الزوجان من عنده ولم ينفذا تعليماته ، كان له الحق في إصدار عقوبات متكررة عليهما ، أو على الأقل كل واحد منهما استقلالا [٤] .

---

(١) انطوان فورد : الفكر الهندي القديم ، صـ ١٦٣ / ١٦٤ ، ترجمة زكريا حسن سنة ١٩٨٧ .
(٢) جبرية التقسيم راجعة للقسمة العقلية ، وهي التي تجعل الأعباء الأسرية إما داخلية ، أو خارجية، لكن الجمع بينهما يمثل القيام بعمليتين في وقت واحد ، أو على أوقات مترتبة ، المهم أنها لا تقبل القسمة إلى أكثر من ذلك .
(٣) راجع لأدوارد جيرافون : النظام الأسري في المجتمع الهندي القديم ، صـ ١٥٧ ، ويؤكد ذات الفكرة أيضا أندريه جون هافر: المرأة في التراث الهندي القديم ، صـ ٢٢٣ .
(٤) أندرية لافي : العادات القبيلة والأعراف الاجتماعية ، صـ ١٨٣ / ١٨٤ ، ترجمة صابر زكي .

على كل . ظهرت الطبقية داخل النظام الجانتيني في ملامح وأشكال مختلفة . لكن هـذه الأشكال والملامح لم تكن منضبطة على الدوام ، كما لم تأخذ لها صورة ثابتة . وإنما حدثت عليها تطورات عديدة وانقلابات رأسية بالنسبة لها ، وهو ما يحير الدارسين للفكر الجانتيني ، وبخاصة متى تعلق الأمر بالنظام الاجتماعي في جانبه الأسري ٠

والـذي أراه أن الـنظام الطـبقي قـد اسـتخدم في الجانتينية طبقا للظروف التي أحاطت بهم ، وأنهم تأثروا في هذه ا لأنماط بالمشكلات السياسية والاجتماعية والأخلاقية كما بـرزت آثـار ذلـك في عقائدهم وفلسفتهم . وهو ما سوف يكشف عنه أثناء تناول هذه الجوانب بالدراسة إن شاء الله تعالى ٠

أهم مصادر الفصل الثاني

حسب ورودها بأسفل الصفحات

١ - القرآن الكريم

٢ - القاموس المحيط

٣ - صحيح الإمام مسلم

٤ - هليموت جيرار — نظرية القيمة وعلاقتها بالأوضاع الإنسانية ، ترجمة زهدي خيري ٠

٥ - جيرار لافي — الحركة الفكرية في الهند القديمة ، ترجمة علية عبد الرحمن ٠

٦ - انظوان هيلي — الفلسفة الهندية القديمة ، ترجمة عادل فوزي ٠

٧ - أنطوان هيداس — الهند عبر العصور التاريخية ، ترجمة إيناس عابدين ٠

٨ - ول ديورانت — قصة الحضارة ، المجلد الثاني

٩ - إدوارد هيكل — الحضارة الإنسانية في الهند

١٠ - هيداسون رافي — الحركات الفكرية في الهند القديمة ٠

١١ - الدكتور محمد حسيني الغزالي — الحثيث في المنطق الحديث ٠

١٢ - فيكتور إندراوس — الحركة الجانتينية في الهند القديمة ، ترجمة وفاء صابر ٠

١٣ - أندريه هيكر — الحركات الفكرية في الهند القديمة ، ترجمة وفاء حسن ٠

١٤ - إدوارد هنري — الفكر الشرقي القديم أصوله ومشكلاته ٠

١٥ - جورج داني — المجتمع الهندي القديم والحضارة الإغريقية ، ترجمة صبحي رزق ٠

١٦ - الدكتور محمد حسيني الغزالي — [illegible] ٠

١٧ - جوزيف هالي — تاريخ الأديان القديمة ، ترجمة رجاء فاضل ٠

١٨ - سيرجي توكاريف — الأديان في تاريخ شعوب العالم ٠

١٩- الدكتور مصطفى الخشاب — علم الاجتماع ومدارسه ، مكتبة الأنجلو .

٢٠- وليم جفري — الأسرة في الميزان الاجتماعي ، ترجمة حنان رشدي .

٢١- الدكتور محمد حسيني الغزالي — قوانين الوراثة بين الدين والعلم

٢٢- الدكتور سيد مرسي عبد الحميد — الفرد والمجتمع في الإسلام ، مكتبة وهبه سنة ١٩٨٩ .

٢٣- الدكتورة زينب رضوان — النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي .

٢٤- الإمام الفخر الرازي — مفاتيح الغيب . ط. دار الغد العربي بالقاهرة .

٢٥- جيرا فون — النظام الأسري في المجتمع الهندي القديم ، ترجمة حنان راضي .

٢٦ أندريه لافي — العادات القبلية والأعراف الاجتماعية ، ترجمة صابر زكي

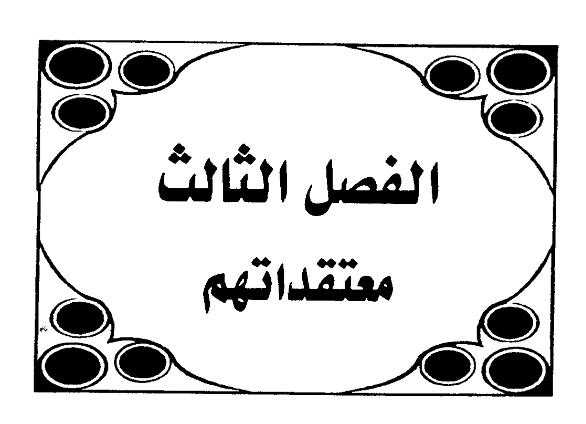
٢٧- الأستاذ / على عبد العظيم أبو حصوة — المرأة في زمن ما قبل الإسلام .

٢٨- جون هافر — المرأة في التراث الهندي القديم ، ترجمة ناهد قطب

٢٩- اللورد جيلي — الحياة في المجتمعات البدائية ، ترجمة ظافر خيري

٣٠- جيرالد مونتيكر — فن القيادة في العالم القديم ، ترجمة وفاء سليمان

٣١- الدكتور / محمد الغزالي — تأملات غزالية في الفلسفة الشرقية



الفصل الثالث

معتقداتهم



ملامح العقيدة الإلهية

تعتبر العقيدة أهم ما يلوذ إليه المرء المؤمن بالله تعالى، وكلما كانت عقيدته في الله تعالى سليمة، كلما بقيت حياته صحيحة، بل أن نهايته تكون هي الأخرى بنفس الخط الذي ابتدأ به حياته، أو سار عليه فيها، أما لماذا؟ فلأن منطقة العقيدة قد خلقها الله محتاجة إلى ذات العقيدة الإلهية، وتظل آخذة بصاحبها حتى يشبع نهمها ، ويغطي احتياجاتها بالأدلة المعرفية، بعد الأدلة القلبية والجوانب الإعتقادية الفطرية والوجدانة

يدل على كون العقيدة الإيمانية فطرية قوله تعالى " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله فطر الناس عليها تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون"[(١)]، ومن ثم كانت العقيدة الإلهية أسمى ما يحافظ عليه المرء المسلم، بل أرقى الأمور كلها، إنها علاقته بالخالق العظيم جل وعلا ، على النحو الذي جاء من عنده سبحانه وتعالى، بالشكل الذي يرضيه، ومن ثم تكون النجاة في الآخرة، والسلامة في الدنيا مترتبة عليها ، كما أن السعادة في الدنيا والآخرة لا تقوم إلا من خلالها، ولا تقع على وجه الكمال والتمام إلا بها •

أضف إلى ما سبق أنه على أساس صحة العقيدة أو فسادها ، يتحقق للناس أمر السعادة إن كانت العقيدة صحيحة سليمة، أو يقع أمر التعاسة والشقاوة متى كانت العقيدة التي يتمسك بها صاحبها فاسدة غير صحيحة[(٢)]، لما هو معروف من أن الأعمال الجليلة ، والآمال العظيمة تزكو من خلال العقيدة السليمة، كما أن سلامة المجتمعات ونجاتها من كافة المشكلات لا يتحقق ذلك كله إلا إذا كانت العقيدة في الله تعالى سليمة، وتتم في قلب صاحبها وعقله ووجدانه على وجه الدقة والإتقان •

من ثم ، فإن العقيدة بالمعنى العام تنقسم إلى صحيحة وفاسدة ، كما تتنوع كل منها باعتبار الألفاظ المستخدمة ، والعبارات المستعملة إلى أنواع عديدة ، والذي يعنيني هو أن

---

(١) سورة الروم ، الآية ٣٠ •

(٢) راجع كتابنا- حقيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان، صـ ٥٧،الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م. •

العقيدة الإلهية التي تقوم في أجزاء ستة ، جاءت بها الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الصحيحة ، يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره" [١] ·

ثم أن هذه العقيدة الإلهية تمثل الجانب النظري من الدين الإلهي ، الذي يقوم على أربعة أجزاء[٢]، أحدها العقيدة، ثانيها التكاليف العملية، ثالثها المعاملات ، ثم تجيء الفضائل ومكارم الأخلاق والآداب متمثلة في الجزء الرابع . والواضح أن العقيدة وحدها هي التي يتمثل فيها الجانب النظري الذي لا يكلف صاحبه شيئا . و لا يمكن لأحد انتزاعه منه ، أما باقي الأجزاء فإنها تقع في العمليات والفضائل بجانب المعاملات والآداب والقيم ·

ولأن العقيدة هي سنام الأمر كله ، في الرسالات السماوية الحقه جميعا،فقد جاءت آيات القرآن الكريم، وأحاديث البشير النذير الفذ ناطقة بها، في مثل قوله تعالى" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير"[٣] فالدين الإلهي واحد، مهما تعدد الأنبياء وتكاثر المرسلون ·

وقوله تعالى " قل آمنا بالله وما انزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد ونحن له مسلمون"[٤] كما أن الأنبياء المصدقين من الله يكون مصدرهم واحد وهو الله سبحانه وتعالى، وبناء عليه، فالعقيدة الإلهية واحدة من لدن آدم عليه السلام حتى جاء بها الخاتم الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ·

بل أن مقياس صحة الدين من فساده ، هي ذات العقيدة الإلهية ، لأن عليها ينعقد

---

(١) الإمام مسلم – صحيح الإمام مسلم، كتاب الإيمان والحديث مشهور باسم حديث جبريل ، وفيه السؤال عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة ، فراجعه بتمامه ·

(٢) هذه الأجزاء لا ينفصل بعضها عن بعض إلا في التناول لها، لأنها جميعا تتكامل فيما بينها، بدليل أنه لا يكون الإيمان صحيحا إلا إذا قام على أركانه جميعا، وتلاقت أجزاؤه كلها مع بعضها في قلب المؤمن وعقله وجوارحه أيضا ·

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٥ ·

(٤) سورة آل عمران، الآية ٨٤ ·

القلب ، ومن خلاله يتم التعامل مع الجوارح، لذا عرف الإيمان بأنه تصديق بالقلب واللسان، وعمل بالجوارح والأبدان[١] . وبناء عليه، فكل دين أو ديانة تخلو عن العقيدة الإلهية الصحيحة في مصادرها، السليمة في إثبات الكمالات كلها لله تعالى. ونفي التشبيهات وأوجه العوز والقصور عن الله تعالى لا تكون مقبولة أبدا، كما لا يمكن النظر إليها على أنها عقيدة إلهية، حتى وإن زعم القائلون بها نسبتها لله تعالى، أما لماذا؟ فلما يلي :

١ - إن العقيدة الإلهية واحدة في مصدرها[٢]، ومن ثم فلا يكون التنزيه والتشبيه إذا نسبا لله تعالى معا. قد جاءا على ناحية صحيحة أبدا، وإنما إذا جاء التشبيه أفسد التنزيه[٣]، لأنه إذا وقع التنزيه على الناحية الشرعية فلا مكان للتشبيه أبدا ٠

٢ - أن الأنبياء جميعا مصدرهم واحد هو الله تعالى ، ومن ثم ، فعقيدتهم واحدة، لقوله صلى الله عليه وسلم إنا معاشر الأنبياء وأخوة لعلات، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد [٤]، ولا يكون المصدر الواحد ناقلا العقيدة وضدها، فلا يوجد تنزيه وتشبيه ويمكن حملهما على مصدر واحد، فاليهود مثلا أدعو نسبة الولد لله تعالى، وهو العزيز لقوله تعالى وقالت اليهود عزيز ابن الله[٥]، وفي هذا الادعاء تشبيه الله تعالى بغيره من المخلوقات التي تقع عليها نسبة الولد لأبيه، ومادام الأمر كذلك ، فلا يكون هناك تنزيه، لأنه لا يجتمع تنزيه الله في كونه فردا صمدا، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد[٦]، مع كونه له ولد، لأن الكلام نفسه يحمل التناقض والاضطراب، فإما توحيد كامل وأما تشبيه فاسد ٠

---

(١) راجع كتابنا: الغزاليات في الإلهيات، صـ ٤٧، وكتابنا حبو الوليد في علم التوحيد، صـ ٢١٣ ٠

(٢) ويسمى ذلك وحدة المصدر التي يتسم بها الدين الإلهي ، ويقع له الامتياز عن ما سواه من الأديان ٠

(٣) على أساس أن التوحيد يتم فيه إثبات الكمالات كلها لله تعالى، وبهذا يتم نفي التشبيه والتعطيل وغيرها مما لا يليق بالله تعالى ٠

(٤) الشيخ محمد منصور : العقيدة الإلهية ، صـ ١ ٧، ط. أولى ، صـ ١٩٣٧ ٠

(٥) سورة التوبة، الآية ٣٠

(٦) وذلك وارد في سورة الإخلاص قال تعالى" قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد" ٠

٣ - أن غاية العقيدة الإلهية واحدة، هي تعريف الناس بالخالق العظيم جل علاه وما له من صفات الجلال والجمال والكمال والإكرام، ثم بيان ما يصلح لهم في أمور دنياهم، وما يسعدهم بالنسبة لأخراهم[١]. ويمكن اعتبار تلك الغاية من خواص الدين الإلهي على وجه العموم.

٤ - إن العقيدة الإلهية تجيء فيها الأخلاق السليمة، بجانب الفضائل الثابتة، وفي النهاية تتبع ذلك جملة من الآداب والسلوكيات العامة ، التي إذا طبقت على الناحية الصحيحة تحقق من خلالها الخير للبشرية[٢]، طبقا للقاعدة العامة وهي أن الله تعالى لا يستفيد بطاعات أحد، كما لا يتضرر بالمعاصي ، مهما كانت كبيرة أو صغيرة .

٥ - أن العقيدة الإلهية تجد أثرا واضحا لها في النفوس، فما من نفس إلا وهي مفطورة على قبولها. ثم يجيء دور النبي ليساعد على تثبيت هذه العقيدة في العقول والقلوب ، بجانب الإعلان عن نفسها، من خلال انضمام صاحبها لجملة المؤمنين،وجماعة الموحدين[٣] في سلوكياتهم العملية الصحيحة .

وفي تقديري ، أن كل كائن حي مفطور على العقيدة السليمة في الله رب العالمين، وكذلك جملة الفضائل والآداب الإلهية، بحيث يمكن اعتبار ذلك قسمة بين العباد، لكن مظاهر ذات العقيدة قد تختفي داخل بعض النفوس نظرا لانشغال أصحابها بالهواجس الشيطانية والنزعات الشهوانية[٤]، ومن ثم يجيء الرسول فيلتقط أصحاب العقيدة التقاطا كريما لقيامه على الربانية والرحمانية ، ثم النعم الإلهية .

ويمكن تقديم تشبيه تقريبي يقوم على تصوير هذه الفطرة العقدية في النفوس، بمادة الجذب في المغناطيس، فإذا مر بها جاذب قوي التقطها وتعلقت به فرفعها وعن مواطن الضعف أزالها ، فالرسول - التشبيه مع الفارق يكون - هو الجاذب القوي ،

---

(١) راجع كتابنا: نظرية السعادة في الفكر الإنساني، ط. الأولى ، صـ ١٥٧ .
(٢) راجع كتابنا: لماذا انتشر الإسلام ج. ٢، صـ ١٤٥ وما بعدها .
(٣) راجع كتابنا: الغزاليات في النبوات، صـ ٣١٢، وكتابنا: الغزاليات في السمعيات، صـ ١٤٣ .
(٤) وقد يستمر هذا الاختفاء فترة من الزمان ، ربما تطول أو تقصر، لكن تبقى آثارها عالقة بالذهن مؤثرة في الوجدان .

الذي يمر بالنفوس السليمة فيأخذ بها أخذا قويا من كافة مجامعها وأطرافها[١]، مادامت على الفطرة ولم يقع لها تلوث أصلا .

من هنا يمكن القول بأن الناس بالنسبة للعقيدة الإلهية أو الاستجابة لدعوات المرسلين ثلاثة أصناف :

الأول : أصحاب الفطرة السليمة

وهؤلاء تظل عقيدتهم صحيحة، وفطرتهم قوية ، ونفوسهم هادئة مطمئنة، وجوارحهم تحت سلطان نفوسهم، حتى تقع لهم السيطرة الكاملة على ذات الجوارح والأبدان، فإذا جاءهم الرسول داعيا الله تعالى، انقلبوا إليه وتمسكوا به، بل لم يفكروا في الابتعاد عنه[٢]، أو الانقلاب عليه، لأن ما هم فيه أغناهم عن التعلق بغيره، وما يجدونه في رحاب العقيدة الإلهية مع ذات النبي ، هو الذي تتوق إليه نفوسهم، أو تتعلق به قلوبهم، واستجابتهم له تكون كاملة نظرا لسلامة عقولهم ، وتوافقها مع فطرهم واستجابة وتعاظم أهدافهم .

الثاني : أصحاب الأفكار الفاسدة

وهم الذين طمسوا أنوار الإيمان في قلوبهم، ثم تابعوا خطوات شياطينهم ، وأخيرا، أغلقوا منافذ الهدى حتى لا تصل لقلوبهم أصوات الحق ، ولا تعاليم الله، فإذا جاءهم النبي من قبل الله تعالى، بأنوار الحق عموا كثيرا[٣]، ومتى دعاهم هادي الله للفلاح قاوموه بأقصى ما يملكون، كأنهم شياطين في صورة بشر أو آدميين .

فهؤلاء لا يصلح معهم جاذب من الله نحو العلا لأنهم ارتضوا الركون للهلاك، والسقوط في الهاوية، ثم حاربوا الله ورسله، لقد صاروا في رداءة الكبائر ، وحملوا الملامح

---

(١) حذار من لمي عي أو يحاول الزعم بأني أشبه النبي في رسالته بالمغناطيس في قوة جذبه، كلا وألف كلا، وإنما أشبه النفوس المستعدة للتلقي عن الله تعالى،ومدى محافظتها على الفطرة التي خلقت فيها، فالأنبياء صفوة الله من خلقه، وهم أعلى الناس منزلة والإيمان بهم من أجزاء العقيدة الإلهية التي نلقى الله تعالى عليها .

(٢) راجع كتابنا: الغزاليات في الإلهيات ، صـ ١٧، وكتابنا: حبو الوليد في علم التوحيد، أثناء الحديث عن أدلة وجود الله تعالى .

(٣) وهؤلاء هم الذين طبع الله على قلوبهم، وفيهم وأمثالهم قول الله تعالى فبما نقضتم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء خير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا" سورة النساء، الآية ١٥٥ .

الفاسدة التي تعمقت داخل نفوسهم، فحولتها عن الفطرة النقية إلى السلوكيات الشاذة، والأفعال المؤثمة، بجانب الأخلاق الأكثر رداءة، حتى أن الرذائل تكون هي التي تطبع سيمهم، وتستولي على تصرفاتهم .

وإذا كانت قطع المغناطيس تفقد خواصها إذا أصابها ما يعطل عملها، فمتى مر بها من جاذب أصلي فلن يكون قادرا على جذبها إليه ، نظرا لفقدان خاصية الجذب بين الطرفين على العديد من الجوانب. والكثير من الجهات ولو بقيت على حالها الأولى لظل الجذب قائما، والشوق مستمرا، والتلاقي غير منقطع .

الثالث : أصحاب الفطر والفكر

وهم الذين بقيت لديهم بعض ملامح الفطرة السليمة، لكنهم وقعوا في اختلال بنائي معرفي[١]، أو بعبارة أخرى فسدت أفكارهم ولم تتأثر فطرهم، فإذا جاءهم المرسلون من قبل الله تعالى استجابوا لهم وقد يكون ذلك على بطئ ومهل، ثم أنهم بعدها قد يتمسكون بمناطق الجذب والانجذاب الجديدة متى كان توجههم مباشرا طريقة سوية، أما إذا لم يكونوا كذلك، فإن توجهاتهم قد تتخبط بهم نحو الدرك الأسفل، لأنهم أنكروا الحق بعدما عرفوه[٢]، وكذبوا الرسول مع يقينهم بأنه صادق، ومن عند الله تعالى مرسل .

فهم يشبهون المغناطيس الذي فقد بعض خواصه، ولكنه قد يستجيب لعمليات المغنطة مرة أخرى،إذا أبعدنا عنه عوامل الفساد ، وكان تأثيرها السابق عليه قليلا، أم إذا لم يستجب لهذه العمليات التجديدية ، فإن رفضه يكون لازما، وعملية قبوله لا تكون ذات قيمة، أنه ذاته يعتبر فاقد القيمة من الناحية العملية[٣]، وإن لم يكن فاقدا لها من الناحية الواقعية أو الشكلية .

---

(١) دليل ذلك ما جاء في الحديث الشريف من قوله صلى الله علية وسلم، ما من مولود إلا يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة، بهيمة جمعا، هل ترون فيها من جدعاء .

(٢) وآيات القرآن الكريم في هذا الشأن كثيرة، منها قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون" سورة البقرة، الآية ١٤٦ .

(٣) وهم كالاجادب من الأرض التي لا تنبت زرعا ولا تمسك ماء، ومن ثم تعتبر فاقدة القيمة من أصلها ولا يعول عليها ، كما لا يهتم أحد بها .

أبرز العقائد الجانتينية

والملاحظ أن المذهب الجانتيني قد تعددت اعتقادات أفراده تعددا كبيرا لكون أفراده يعيشون على العقائد الوضعية[١]، ولا يستندون في شيء منها إلى العقيدة الإلهية أو حتى لا يكون في الرأي مصادرة على المطلوب . سأعرض أبرز عقائدهم ثم أناقشها على النحو التالي :

الأولى : تأليه الطبيعة

أ - أزلية الكون

١ - اعتقد الجانتينيون أزلية الكون، ومن ثم فلا بداية له ، كما لن تأتيه النهاية، يقول " فيكتور " ذهب الجانتينيون إلى أنه من الصعب التسليم بوجود خالق مستقل يمكن القول بأنه خلق الطبيعة ويكون غير مدرك ،بالحواس ، أو يمكن التعرف عليه بعيدا عن المظاهر الطبيعية، أو المظاهر التي لا تخضع لقوى هذا العالم الذي ندركه بحواسنا، ونتعرف عليه بعقولنا[٢]، ولكن لا بد من النظر إلى القواعد الأساسية التي لا بد منها أثناء تتبع الأفكار والعقائد الهندية ذات الصبغة الدلالية .

٢ - أبدية الأطوار

اكد الجانتينيون على استمرار الاعتقاد في أن ما يجري في الكون من تغيرات لا نهاية لها، وإنما يتم ذلك كله من خلال تطورات تتم على الدوام ، اعتقادا منهم بأن الأطوار القائمة في الكون لا انقضاء لها، ومن ثم فهي الإله القائم ، الذي يجب أن يحظى بكافة ألوان الاحترام والتقديس .

كما أنه الذي يختار القديسين حتى يكونوا بين الناس نيابة عنه، يقول " هداس " اعتقد الجانتينيون أن حركة الكون ذاته هي التي تحدث التغيرات في ذات الكون على أساس إنها الحركة الذاتية ، ويتم من خلالها تبدل أشكال الحياة ، دون احتياج إلى إله خارج عنها ، بل هذه الحركات هي الإله نفسه، الذي تتم عليه كافة ألوان

---

(١) العقائد الوضعية هي التي صنعها الناس، وتواضعوا عليها ، ولا علاقة لها بشيء من شرع الله تعالى، راجع كتابنا: حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان، صـ ١٩٨ وما بعدها .

(٢) ادوارد فيكتور: المعتقدات الدينية الكبرى في الهند القديمة، صـ ٢٧٥، ترجمة صبري صادق، سنة ١٩٨٧ .

التطور[١] كشأن الإله عندهم كالحال مع باقي أجزاء الكون الطبيعي •

والواضح أن فكرتهم هذه تؤدي إلى القول بالدهر المحي والطبع المفني ، ولا حاجة لشيء أخر وراء ذلك ، وهم الدهريون لدى أصحاب المقالات ، وهم الطبيعيون في مفهوم علماء العقيدة، وإن كانت أراهما فريقين لا فريقا واحدا ، لكل واحد منهما آراؤه التي يعتقدها، وأتباعه الذين يسيرون معه[٢]، ومتى أمكن الرجوع للمصادر القديمة برؤية وتأمل ، فإن الوقوف على الفروق الجوهرية، بينهما يكون أمرا ميسورا •

بيد أن هذه التغيرات الكونية لا تتم بطريقة عشوائية، ولا تكون وليدة المصادفة، وإنما تجري طبقا لسنن الله الكونية، لأن العشوائية لا تنشأ عنها عالم محكم متقن، تجيء فيه الأمور على مستوياتها في صورة دقيقة تعبر عن الحكمة الإلهية، لأن أفعال الله تعالى محكمة، قال جل شأنه "إنا كل شيء خلقناه بقدر "[٣] •

ومادام كل شيء مخلوقا لله تعالى، فإنه يجري في حكمة باهرة، كما يتم من خلال عناية الله التامة ، وعلمه الواسع الذي لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، كما أن القدرة الإلهية تتمم كل مقدوراتها على ناحية الإتقان، لقوله تعال "صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون"[٤]

٣ - قدرة قوى الطبيعة الكامنة على الاختراع

يعتقد الجانتينيون أن الطبيعة لها ذات قوى ظاهرة ، وأخرى كامنة، وأن النظام البادي في عالم الكائنات ، مرده إلى قوى الطبيعة الكامنة في عناصر الطبيعة ذاتها، بناء على فكرة التناسخ، ومؤداها أن كل فكرة يعبر عنها مظهر، قد يكون بارزا أو خفيا، فإذا كان بارزا أمكن حسبانه أحد المظاهر العامة لقوى الطبيعة الكامنة، وإذا كمن فإنما هو رجوع إلى الأصل الذي قام عنه ، أو نما عليه •

---

(١) جوزيف هداس:الحركات الفكرية في الشرق القديم، صـ ٧٧، ترجمة عادل راضي سنة ١٩٨٧ •
(٢) راجع كتابنا: الغزاليات في النبوات، حيث تعرضت لكل منهما تعرضا خفيفا، وراجع كتابنا: حبو الوليد في علم التوحيد، أثناء عرض الأدلة على وجود الله تعالى •
(٣) سورة القمر، الآية ٤٩ •
(٤) سورة النمل، الآية ٨٨

يقول " ميدراس " أن نظرية الكمون الطبيعي هذه تمثلت فيها كافة الموجودات تمثلا يحمل المظاهر الأولى للتناسخ الجانتيني الذي حاولوا مرات عديدة إسقاطه من عباداتهم أو على الأقل عدم التركيز عليه بشكل سافر ، أو لافت للنظر، بدليل ذهابهم إلى اختزال عناصر الطبيعة في جملة من القوى ، ثم إبراز هذه القوى في أشكالها التناسخية مرة أخرى[١] طبقا للاعتبارات التي ترسخت مفاهيمها في عقولهم . أو لم يتمكنوا من إبعاد أشباحها عنهم .

وليس من الصواب القول دفعة واحدة بأن عناصر الطبيعة أو قواها قادرة على الاختراع، لأنها أشد عجزا عن صيانة ذاتها، أو إدراك أبسط الجوانب التي يمكن الوقوف عليها، بدليل أن التطورات التي تقع على عناصر الطبيعة ذاتها تكون من خارجها لا من داخلها، ولو كانت من داخلها لصارت هي الفاعلة والمفعولة معا[٢]، والخالقة والمخلوقة في ذات الوقت، ولا يقول بذلك إلا من فقد البسائط المعرفية، وتهاوت أمام ناظريه الحقائق والقضايا البديهية .

كما أن تحديد عناصر الطبيعة، من خلال مصطلح ثابت يمكن التحاور به، أمر مهم جدا، بل المشكلة الأساسية في كافة الأبحاث النظرية هي عدم الاتفاق على تحديد المصطلح، لأن البعض قد يستخدم لفظا معرفيا بمعنى من المعاني، ثم يجيء آخر فيقطع له استخدام ذات اللفظ لكن بعد تعبئته بمعنى أخر، أو توظيفه على ناحية ثانية [٣]، وبعد ذلك يقع إنكار كل منهما لمصطلح الآخر، فتضيع العلوم، وتتلاشى المعارف، بل يقع الاختلاف والتباين بين الناس إلى أبعد مدى .

---

(١) جوهان ميدراس: الثقافات القديمة في الشرق الأوسط، صـ ٢١٨، ترجمة وفاء صبري، ط. ثالثة سنة ١٩٨٨ .

(٢) لأنه يلزم على القول بها تقدم هذه العناصر على نفسها باعتبارها الفاعل ، ثم تأخرها عنها تارة أخرى باعتبارها المفعول، وهذه القضايا التي لا ينكرها إلا من فقد عقله النوراني، والتزم عقله الشيطاني .

(٣) راجع كتابنا:حصاد الاقتصاد في الاعتقاد، جـ ٣ ، صـ ٧٣ وما بعدها، أثناء الحديث عن الاصطلاح والمصطلح، فسترى أمثلة لذلك، يمكنك مراجعتها والوقوف عليها، ثم الاستزادة من مصادرها .

فإذا حاولنا معرفة عناصر الطبيعة التي يعول عليها الجانتينيون مثلا، وجدناها محددة في الجزئيات الكائنة داخل العالم المشاهد وتسمى المادية المرئية ، أو قل هي عناصر المادة في صورها الثلاثة، الغازية، والسائلة، والصلبة[١]، ومن ثم يمكن القول بأنهم أرجعوا مفهومهم عن القوى الكامنة في الطبيعة إلى التحولات التي تتم في المادة لا من ذاتها ، وإنما من خلال قدرة قادرة، وإرادة نافذة ، تجيء بها سنن الله الكونية وتطرد معها ، بكم العادة الجارية في مخلوقات الله العلي .

٤ - عدم معقولية وجود إله خارج الطبيعة

من الملاحظ أن هؤلاء قد اعتقدوا تأليه الطبيعة من كل ناحية، وقد فرض عليهم ذلك الرجوع بالمعقول إلى أرض الواقع المادي، بمعنى أن ما أمكن قبوله على جانب العقل هو الذي يتم التأكد منه عن طريق الواقع العملي، فكل فكرة قابلة للتطبيق العملي التجريبي يمكن اعتبارها موجودة . وما لم يتم التجريب عليه ، أو قبوله من الجانب التطبيقي ، فلا يجوز أبدا قبوله ، أو الاعتقاد في وجوده .

من ثم زعموا عدم وجود إله خالق ، خارج نطاق العناصر الطبيعية، ظانين أنها مسألة غير مقبولة، بل ذهبوا إلى عدم معقولية ذات الفرض[٢] أيضا، يقول " ادوارد فيكتور " كان الجانتينيون يقولون ليس من الضروري أن يفرض وجود إله خالق مستقل عن الطبيعة ذاتها، أو خارج نطاق عناصرها ، أو وجود سبب أول قامت عليه، لأن كل طفل يستطيع تفنيد هذه الفرضية. بل وإثبات بطلانها، متى قال أن الخالق الذي لم يخلق ، أو السبب الذي لم يسبقه سبب ، لا يقل صعوبة في الفهم عن افتراض عالم بلا أسباب، ولم يخلقه خالق [٣] .

---

(١) هربرت ابيسون: الفيزياء والميكروفيزياء، صـ ١٤٣، ترجمة عماد فاضل، ط. ثانية سنة ١٩٨١ .

(٢) عدم معقولية الفرض لا يترتب عليه انعدامه في ذاته، إذ قد يكون موجودا ثابتا، ويبقى الخلاف في قبوله من عدمه، فالنزاع حينئذ لا يكون في الحكم عليه بالعدم، بقدر ما يكون في الحكم عليه باعتباره المعقولية، لأن الجهة منفكة .

(٣) ادوارد فيكتور: المعتقدات الدينية الكبرى في الهند القديمة، صـ ٢٧٣، ترجمة خيري صادق طبعة سنة ١٩٨٨ .

بيد أن عدم الإعتراف بوجود إله خالق خارج نطاق عناصر الطبيعة فكرة ساذجة من كافة الوجوه، بل الطفل مهما كان عمره العقلي يجد من نفسه رغبة في الاعتراف بوجود هذا الخالق، لأن ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها. كذلك مستقر في كبائع الحيوان أنه ما من ضربة إلا لها ضارب. وما من صوت إلا له صاحب[١]. والعقول السليمة والفطر الصحيحة تشهدان بكل ذلك .

أضف إلى ما سبق. أن فكرة وجود إله داخل نطاق العناصر الطبيعية يجحدها العقل السليم دفعة واحدة. إذ كيف يكون هذا الإله جزءا من ذات العناصر الطبيعية التي يقع عليها التأثير من فاعل . يلزمها بأوامره، ويخضعها لإرادته. وتجري فيها قدرته، أليس من السفه والعبث والبلاهة العقلية ، قبول هذا الغرض الذي يعتبرونه معقولا، وضده غير معقول ؟!.

وقد ناقش مفكرو المسلمين هذه الفرضية في مؤلفاتهم الكلامية[٢] والفلسفية[٣]، بل والصوفية ثم انتهوا إلى بطلانها من النواحي العقلية على طريق البداهة مع الجوانب العقلية والمعرفية من خلال الأدلة التي تقوم مقدماتها على أسس صحيحة، كما أن العقل الذي لم يمارس صاحبه هذه الأدوار المعرفية متى عرضت الفكرة أسقطها من حسبانه ، أو تخلى عنها من فوره، مادام ذات العقل صحيحا، قادرا على ممارسة أدواره في طريقة عملية ، أو يتم له ذلك في أشكال منظمة .

ب - مظاهر تقديسهم لتأليه الطبيعة

مادام هؤلاء قد اعتبروا الطبيعة هي الإله ، وتوجهوا إليها بكل ما أمكنهم فقد سعوا إلى إثبات وجود كافة القوى لعناصر الطبيعة، ثم وضعوا لها العديد من الطقوس ، والتعاليم الخاصة بغرض استرضائها ، حتى لا تغضب منهم ، فتظهر آثار غضبها عليهم، وأهم مظاهر التقديس والاسترضاء عندهم جاءت فيما يلي :

---

(١) راجع للإمام الشريف الجرجاني: شرح المواقف، المجلد السابع، الموقف الخامس، في الإلهيات، أثناء حديثه عن أدلة وجود الله تعالى مع دليل الحدوث في الأعراض .

(٢) راجع على سبيل المثال طوالع الأنظار، صـ ٣١٢، والمواقف صـ ٣١٠، كتابنا: حبو الوليد في علم التوحيد، صـ ١٨٧ .

(٣) راجع في المسألة للشيخ الرئيس ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ، القسم الثالث، النمط الرابع، في الوجود وعلله، وكتابنا: الإلهيات عند ابن سينا، صـ ١٤٥ .

١ - السير بأقدام حافية

حيث زعم هؤلاء أن الطبيعة ذادت عناصر حساسة، فمن سار عليها حافيا قبلت سلوكه واعتبرته موافقا لأغراضها . ومن استخدم حاجزا بينه وبين الأرض التي يسير عليها، أيا كان نوعه، فقد استوجب عقابها . لكونه قد وقع في إغضابها. يقول " داني " ذهب الجانتيون إلى أن وجود نعل في القدم أثناء المسير، يعبر عن رفض تأليه الأرض التي هي أحد عناصر الطبيعة المتألهة[١] وبالتالي اعتبرت الأرض واحدا من الآلهة التي يجب استرضاؤها في كافة الأحوال .

ويقرر " هداس " أن فكرة السير على الأقدام الحافية، كانت أحد الطقوس التي مارسها " ماهافيرا " نفسه، حينما ترك ثروة أهله، وتخلى عن ملابسه . ثم انصرف إلى السياحة في أرض الهند، وكم قابل الصعوبات ، لكنه تغلب عليها، فاعتبر أتباعه ذلك طقسا ترضى به قوى الطبيعة المتألهه[٢] ، ثم مارسوه مع أنفسهم ممارسة اتسمت أول الأمر بالعنف والقسوة، إذ كانوا يسيرون حفاة على الأرض التي امتلأت طرقاتها بالحجارة والعظم والأشواك وقد ظنوا في هذا العمل العنيف بلوغ أقصى درجات السعادة

٢ - الظهور بالأجسام العارية

سلف القول بأن أصحاب هذا الاتجاه كانوا يسيرون عراة، وبخاصة فريق العري أو أصحاب الأجساد العارية ، وهو الفريق الذي ظهر في مواجهة أصحاب الأردية البيضاء، ثم نفر الناس منهم. ومن هنا سارعوا إلى تعديل بسيط في بعض هذه الطقوس، حين جعلوا العري قاصرا على القديسين من فريق العراة أو أصحاب الأجسام العارية[٣]، وظل ذلك طقسا دينيا يقوم به هؤلاء القديسون في أماكن العبادة ، ويقلدهم فيه أولئك الذين انسجموا في ذات التوجهات .

---

(١) راجع كتابنا: تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية ، هذه الجوانب بشكل تفصيلي .

(٢) جوزيف هداس: الحركات الفكرية في الشرق القديم، صـ ٨٣ / ٨٤، وراجع لهيلز: الهند وحضارتها، صـ ١٣٥، ترجمة صابر شاكر ، ط. أولى سنة ١٩٧٧

(٣) ذكرت أن الجانتينية انقسمت إلى فريقين ، أحدهما فريق أصحاب الأردية البيضاء، والثاني أصحاب الأجساد العارية، فراجعه أثناء الحديث عن التعريف بها .

فيذكر " فيكتور " أن قصة الأجساد العارية كانت واقعة في نطاق ضيق، أول الأمر بحيث لم تتجاوز جملة من القديسين أو كهنة ماهافيرا، ثم ما لبثت هذه الفكرة أن صارت طقسا دينيا ترضى به الآلهة المختلفة، وكان ذلك كله يتم في إطار المعابد ويقوم به الجمهور من عامة أفراد الطائفة، لكنهم لم يمارسوه في العلن، حتى لا يضاعفوا من كثرة النافرين منهم الرافضين لهم[١] ولو كانت هذه السلوكيات توافق الفطرة ما نفر الناس منها . بل ولتمسكوا بها إلى أبعد مدى •

بيد أنه لما كانت فكرة الأجساد العارية تخالف الطبيعة التي فطر الله الناس عليها، من ضرورة ستر الإنسان عورته، وتحديد اللباس الذي يتناسب مع ذات الإنسان في الظعن والإقامة، أو في الحل والترحال، فكل هذا التحليل يخالف الفطرة السليمة ، ومن ثم تبغضه النفس الكريمة ، كانت الشرائع الإلهية قد أمرت بستر العورة[٢] ، وبينت طرائف ذلك. كما حددت مفهوم العورة في الرجل والمرأة، الحر والعبد، الطفل الصغير والبالغ الكبير، فإن ما يمارسه هؤلاء يخالف الفطرة الإلهية ، والشرائع السماوية •

٣ - إنكار الذات

اعتقد الجانتينيون أن التعالي والاعتداد بالنفس ، مهما كان الشأن ،يغضب الآلهة الطبيعية ، وأن الكبر عليهم يدفعهم من أكثر الجرائم فظاعة ، لأن هذا للانتقام ، وبالتالي فلا بد من إنكار الذات أمامهم حتى يكون خادما لكافة قوى الطبيعة، ثم ينكر ذاته بين زملائه في المذهب بحيث يصير بينهم المثل الأعلى. فلا كبر ولا تعالى، كما ترفع عنهم أو تصانع لهم إنما يسير فيهم مسيرة ماهافيرا نفسه[٣]، حافي القدمي ن، عاري الجسد، قليل الطعام والشراب، معرضا عن لذات النفس، ضاربا عرض الحائط بآمالها وأحلامها •

---

(١) ادوارد فيكتور: المعتقدات الدينية الكبرى في الهند القديمة، ص ٢٨١ •

(٢) بعض النصوص تحدثت عن العورة البدنية، وبعضها تحدث عن العورة بالمعنى ، ثم جاءت نصوص جمعت بين كل منها، وفي نفس الوقت فصلت القول بشأنها، راجع كتب الفقه المذهبية ترى ذلك واضحا، وكذلك المؤلفات الأخلاقية التي عنيت بدراسة هذا الجانب •

(٣) كانت حياة ماهافيرا صورة من التواضع والمسكنة، ولذا اعتبروه البطل الأسطوري أو الشخص الخرافي •

يقول " هنري كابييه " أن إنكار الذات يعني نسيان المرء كينونته أمام الخدمات التي يقدمها للآخرين. فهو بذاته يسعى لراحتهم ويسعد كلما وجدهم سعداء، لا يبالي بنفسه، ولا يحاول مواجهة أحد . بحق له فيه ، وبعبارة أخرى، أنه يقوم بما عليه من الواجبات، ولا يطالب بشيء مما له من الحقوق[١]، ومن هنا يصير النموذج الأمثل ، كما يتحول هو ذاته إلى المثل الأعلى بالنسبة للآخرين ، ففي المسألة اتجاهات كل منهما يتقلب مع الآخر .

من ثم فإن فكرة إنكار الذات قد تحولت لدى هؤلاء إلى طقس عملي ، يمارس من خلال إظهار الخضوع للآخر. وابراز الرغبة في تقديم الخدمات له، بجانب الحرص الشديد على نبذ التعصب والعنف. ثم التعامل بقدر شديد من الاحترام للفكر الذي يدعو إليه[٢]، وهي مهمة شأن صاحبها يعلو في نفوس المتابعين له، القائمين على تقليده ومتابعته.

بدليل أن الكهنة والقديسين كانوا يخفضون جناح الذل والمسكنة لهؤلاء وأولئك، وكانوا يقومون بالأعمال المشتركة من تنظيف المسكن وغيره - نيابة عنهم أو يتساهمون معهم في القيام بأعبائها ، عن طيب خاطر ، إذ لم يكن أحد من الناس يستطيع إجبارهم أو إلزامهم بها[٣]، وذلك كله مما يبرز ظاهرة إنكار الذات .

ولئن كان إنكار الذات على الناحية الشرعية الإلهية أمرا أخلاقيا، وأدبا اجتماعيا، وسلوكا تربويا، لكنه لا يصل إلى حد إهمال المرء ذاته والتعلق بخدمات الآخرين، وإنما يبدأ بنفسه حيث يعطيها حقوقها، وبعد ذلك يجيء الدور على الآخرين على طول الخط ، ففي الحديث الشريف من توجيه المصطفى الخاتم صلى الله عليه وسلم

---

(١) هنري كابيه: السلوكيات الايجابية وآثارها الاجتماعية، صـ ٧٣ / ٧٤، ترجمة حنان عبد المقصود، ط. الثانية سنة ١٩٨٧ .

(٢) يذكر المؤرخون أن ماهافيرا كان يعلم أصحابه هذه الأمور بطريقة عملية، من خلال الممارسات التي قام بها في حياته التي دامت فترة طويلة، ويعتقدون أن الآلهة هي التي دربته على القيام بها حتى يكون مثالا واقعيا، وطريقة عملية .

(٣) جوزيف كاير:المذاهب والاتجاهات في الشرق القديم، صـ ١٨١ / ١٨٢، ترجمة ظافر بشر .

" دينار دينار أنفقته على أهلك" (١)، وقوله صلى الله عليه وسلم : ابدأ بنفسك ثم بمن تعول" (٢). وقوله صلى الله عليه وسلم " أفضل الصدقة ما كان عن غنى " (٣) .

كما أن تغليب مصالح الآخرين على مصالح المرء نفسه ، رغم ما فيه من إيثار الغير على الذات . لكن لا يبلغ حد الذل والمسكنة، لأن الإنسان خلق الله، فلا يصح أن يخضع في شيء أبدا أو في شأن من شئونه إلا له وحده . ولا يعتمد إلا عليه، كما لا يكون خضوعه إلا لله عز وجل خضوعا تاما بالمعنى اللائق به جل شأنه. وتلك مسألة مهمة جدا متى نظر إليها المرء أمكن الموازنة بين الإيثار والأثرة

٤ - التغاضي عن اللذات

يرى المؤرخون أن التغاضي عن اللذات، سواء باشتهائها، أو طلبها وممارستها، كان أحد المظاهر الطقسية التي يقوم بها هؤلاء الجانتينيون لإرضاء الآلهة التي تملك العطاء والمنع وتقود للشرور متى غضبت، أو تحقق الخيرات إذا رضيت(٤)، والتغاضي عن اللذات يكمن في عدم اشتهائها حتى لو كانت أمامه، ويرفض طلبها إذا غابت عنه، وهو في كل الحالات ليس مستعدا لإسقاط هيبة نفسه أمام الآلهة التي يخضع لها .

يقول " داير" إن التغاضي عن اللذات في الفكر الهندي القديم كان مظهر التنسك والسيطرة على قوى البدن، ثم إخضاعها لسيطرة القوى النفسانية الأكبر تأثيرا، والأعظم خطرا، فلما جاء الجانتينيون أضافوا إلى هذه المفاهيم أمرا جديدا عليها ، وهو إعلان ذات التغاضي من خلال ممارسة عملية مستمرة ، نظرا لفكرهم القائم في مظاهر

---

(١) والحديث في مجمله كاشف عن قاعدة عامة متى روعيت تحققت بها مصالح كثيرة، وأمكن تطبيقها على جوانب كثيرة ، ومن نواح شتى .

(٢) فالبداية تكون مع الذات حتى يكون القيام بالنتائج عنها مؤثرا ، لأنه لا يعقل أن يقوم فاقد شيء بفعل ليس متمكنا منه، أو مستغنيا عنه، وألا كان مخالفا لقاعدة الفطرة الإلهية التي جبلت عليها النفوس الإنسانية .

(٣) لأن المحتاج حينما يعطي قد يكون عطاؤه يحمل المكرمة من الناحية الأخلاقية ، لكنه في نفس الوقت يعبر عن فهم ضيق للنصوص الشرعية، والغني يراد به النفسي والقلبي والمالي أو أي واحد منها .

(٤) هذا الاعتقاد السائد عندهم يزيح من أمام الآخرين القدرة على فهم طبيعة هؤلاء الفكرية، وبعبارة أخرى يمكن الحكم عليهم بأنهم فقدوا خواص التمييز التي خلقها الله تعالى في الأسوياء .

سلوكية حياتية [١] .

وقد يفهم من هذا القول أن التغاضي عن اللذات يعني إهمالها وتدميرها. ولكن هذا المفهوم غير وارد ، إلا لدى هؤلاء الذين يعتبرون ذات النعم وسائل اختبار لإمكانياتهم تاتيهم من قوى الطبيعة ذاتها. وهو فهم فاسد. لأن النعم الإلهية قائمة ومعقودة. والتغاضي عنها معناه ألا تكون هي المؤثرة في حياة الإنسان من الناحية الرئيسية[٢]. مع استعمالها بالقدر المسموح به شرعا .

بل أنها كما تكون في القيام بها وإتيانها على الوجه الأمثل. فإنها تكون كذلك في تعريفها من الناحية الشرعية . باعتبار أن اللذات نوع من المتع والزيفة. ومن حرمها بغير دليل شرعي، إنما يكون مخالفا لأمر إلهي دليل ذلك قوله تعالى " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل لآيات لقوم يعلمون " [٣] .

كما قد يكون التغاضي عن اللذات وقتيا، حيث يرتبط بأمر من الأمور الاضطرارية أو حدث من الأحداث الاختيارية ، ثم يقع الإقبال عليها بما يعوض فترة التغاضي والحرمان، ولكن هذا لا يعتبر مقبولا على أنه قاعدة، بقدر ما يكون موقفا محددا له طبيعة خاصة، ومثله لا تقوم عليه المبادئ القانونية التي يعتمدها الأخلاقيون ، كما أن أصحاب الأذواق والمواجيد ينصرفون عن تقييم ذات المواقف لكونها متناقضة مع بعضها[٤]، ولا تعبر عن قلب نقي، أو سلوك مستقيم .

---

(١) جوزيف داير: العقائد الهندية القديمة ، صـ ١٤٤، ترجمة السيد لطف الله، مراجعة عادل زكي .

(٢) لأن هذه النعم إذا ملكت المرء لذاتها جعلته أسيرا لها، ثم يتحول بعد ذلك إلى عبد لها تكون هي الأمر الناهي فيه ،طبقا لقاعدة المالك والمملوك، أو السيد والعبد، وهي مشكلة المشاكل في حياة كثير من الناس .

(٣) سورة الأعراف، الآية ٣٢ .

(٤) وصوفية الإسلام من أكثر الناس حرصا على هذه السلوكيات القلبية، قبل أن تكون لها صورة على الجوارح، إذ هم لا يضعون لها قيمة لقوله صلى الله عليه وسلم أن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

٥ - التخلي عن المظاهر العامة

يقف أصحاب المذهب الجانتيني من المظاهر العامة في أشكالها المتعددة موقفين فيهما الكثير من التباين. أو على الأقل لا يعبران عن فكر واحد في الوقت المعين . ومهما كانت صورهما فيها شيء من التقارب •

أحدهما: إنكار الذات أمام الآخرين ، وعدم التعريف بها، أو التذكير بخصالها وآثارها وفضائلها . وما يتعلق بهذه الجوانب التي يكون الفخر هو المراد بهذه الحال

الثاني: إنكار ما يسعى إليه الآخرون ، ويقع في دائرة الاهتمام الأقصى . ويدخل في جملة ما يسمى بالمظاهر العامة أيضا . ومن ثم لا تتلاقى الفكرتان، لأن المرء أما منكر لذاته ، أو معرف بها . فإن أنكرها لم يكن معرفا بها . وإن عرف بها لم يكن منكرا لها ، على وجه من الوجوه . لذلك يعتبر الأمران في محل التقابل بالتضاد[١] على نحو من الأنحاء أو صورة من الصور •

بيد أن الجانتيني يسعى للأمرين معا، فهو منكر ذاته كفرد، معرف بها كسلوك ينم عن جماعة بذاتها . واتجاهات لا يمكنها أن تهبط إلى ما دون ذلك، يقول "جيرار" إن الطقوس الجانتينية التي هدفوا من ورائها إرضاء الآلهة جاءت فيها المظاهر العامة بصورة تجعل المرء يقع في التناقض الغريب . فالكائن أما حي أو ميت، أما أن يكون حيا وميتا في وقت واحد فذلك أعلى من إمكانيات العقل وقدراته ، وهم قالوا به [٢] •

من البين أيضا ، أن فكرة المظاهر العامة ، معناها لدى هؤلاء التخلي عنها مع إهمالها، وعدم السعي إليها أو القيام بها . لكن هذه المسألة غريبة عن الطبيعة البشرية التي تدفع صاحبها إلى الإعلان عن نفسه، مع احترام الآخرين، بحيث تقع الموازنة بين هذه وتلك [٣] ، وإلا فما فائدة وجود الإنسان من غير أن يتعامل مع الغير، وكيف يتم ذلك التعامل بدون وقوع معرفة متبادلة ، تبدأ من الإنسان الآخر بداية صحيحة •

---

(١) من حيث أنهما لا يجتمعان معا وقد يرتفعان ، فلا يكون معرفا لنفسه، ولا منكرا لها ، بقدر ما يكون ملتهيا عن هذه الأفكار على وجه الجملة •

(٢) جيمس جيرار : الشرق القديم عقائده واتجاهاته الفكرية ، صـ ٤٥، ترجمة وفاء صابر •

(٣) كلما وقع التوازن ، اندفع الناس لتحقيق الخير والقيام به على الوجه الأكمل، ومتى انصرف الناس عن هذه الفوارق في مسيرة الحياة يقع لها التردي، وربما سقط أصحابها في دائرة الهلاك •

والمعلوم أن الناس شركاء في التفكير العقلي، لأن العقل قاسم مشترك بين الغالبية العظمى منهم . لكن الموضوعات التحتية التي يتم التعامل معها ، ويقع التفكير فيها موقع القبول . هي التي تدخل في دائرة المعول عليه أو المهتم به(١)، ومن ثم فاختلاف الناس وتباينهم إنما هو المردود الفكري الذي يقع في دائرة القصور الذهني بجانب القدرات العقلية، ثم الفروق الفردية بناء عليه، فلا بد من التعريف بهذه وتلك على وجه العموم.

لقد كانت السلوكيات الجاتتينية كفيلة بجعل الغالبية من أهل الهند مقلدة. بحيث يسارعون إليها . ويتزاحمون عليها . بنفس القوة التي مارسها " جنا " و " ماهافيرا " الزعيم المعلم والبطل العظيم(٢)، وبخاصة أنه ظل يمارسها مدة تزيد على ثلاثة عشر عاما . لكنها لما قامت على أسس غير صحيحة ، لم تدم فترة طويلة، بدليل أنه لما دعا إليها " ماهافيرا " نفسه لم تكن لديهم صعوبة في تقليده أول الأمر ، أو تطبيقها على الجانب الذي يريده ، لكن بعد وفاته أدركوا أنهم كانوا في كابوس التقليد، خاضعين لسيطرة العقل الجمعي ، ومن هنا تركوه وغادروا إلى ذات الطقوس الجافة طبيعتهم الأولى من غير اكتراث بما لا قوه معه ، أو أضاعوه من عمر، واستنفدوا من طاقة .

على كل ، يمكن القول بان هؤلاء، لما ألهوا قوى الطبيعة ، أفرغوا السماء من الآلهة التي كان لها وجود لدى غيرهم ، من أصحاب الفكر الشرقي عامة، والهند بصفة خاصة، ثم تحولوا بعد ذلك إلى ذات السماء فجعلوها إلها مستقلا، فصارت السماء إلها، ثم طبقوا ذات الفكرة على الأرض(٣)، لكن فاتهم التصريح أو إعلان بيان موقعهم من الأقمار أو الشموس بجانب الأنهار والبحار والجبال

وبعبارة أ أخرى ، لم يحددوا أدوار المجموعة الشمسية في قضاياهم العقدية ، كما أنهم لم يقدموا فكرة واضحة عن موقفهم من الأودية والهضاب في مسألة التأليه لقوى

---

(١) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته، صـ ٧٧ وما بعدها، وكتابنا : المعرفة عند ابن رشد، صـ ٩٨ .

(٢) القاهر ، والبطل العظيم، والزعيم المعلم، ضمن جملة الألقاب التي أطلقت عليه ، بعضها عرف أثناء حياته، وبعضها الآخر عرفه الناس أو أطلقوه عليه بعد موته .

(٣) راجع كتابنا: تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية ، حيث ذكرت تأليههم للأرض والسماء ، ثم الليل والنهار ، كما ذكرت تأليههم للشمس والقمر ، وثبت فسادها جميعا بالأدلة النقلية والعقلية .

الطبيعة[١]، ويبدو أنهم اكتفوا بالتأليه العام الجماعي للعناصر الطبيعية ، وقوى الطبيعة ، عن ذكر العناصر من الناحية التفصيلية ، مع أن هذه مسألة مهمة ، ولكن طبيعة الديانة الجانتينية هي التي سمحت لهم بذلك. نظرا لكونهم يعتقدون بتتابع الآلهة عن طريق التَوَالُدَ الطبيعي ، والتدوير المتوالي[٢]، ثم القيادة المستمرة بين هذه العناصر الطبيعية كلها •

الثانية : التناسخ الدوري

يذهب الجانتينيون إلى ضرورة اعتقاد أن قوى الطبيعة يقع فيها تداخل من نوع ما، أما النفوس العلوية فتتداخل فيما بينها ، والسفلية هي الأخرى تتداخل فيما بينها ، ثم يقع تبادل للعلوية مع السفلية ، واختلاط من السفلية مع العلوية إلى الحد الذي لا يجعل العناصر الأساسية واضحة ، وهو معنى التناسخ [٣] •

لكن التناسخ عندهم قد يكون من كائنات وقوى طبيعية ، قابلة للتبديل ، كالحال مع الماء حيث يكون باردا أو دافئا. فإذا ازدادت درجة البرودة تجمد فصار أرضا أو يابسا ، وإذا ذادت درجة الدفء فيه تمدد فصار بخارا ونارا، وهذه الصيرورة هي ذاتها التناسخ في قوى الطبيعة، الذي لا يتوقف عند حد معين ، أو صورة بذاتها •

كما أن التناسخ الدوري في قوى الطبيعة عندهم ، يمكن أن يقع فيه اختلاط عنصري حتى تتحول السماء إلى شهب نارية ، والأرض إلى براكين ، وقد يحدث العكس فتصير السماء جسما فيه الأنهار والهضاب والجبال ، وبخاصة الآبار والزروع التي تنتج العناصر المختلفة من أنواع الثمار [٤] ، وهذا أمر يقع في التبادل وليس الطرد والعكس •

---

(١) لأن البحث التفصيلي هو الذي يكشف هذه العلاقة، أما وقد عنوا بالجانب الإجمالي، فقد ساعدهم ذلك على الهرب السريع من ذكر التفاصيل العديدة التي لا بد منها، مما يؤكد فساد اعتقاداتهم جميعها •

(٢) قد يظن البعض أن الفكرتين يقع بينهما تقابل أو شيء من التلاقي ، ولكن الحقيقة مغايرة لذلك، إنهما مختلفتان إلى أبعد مدى، لأن فكرة الوالد الطبيعي تتم في الكائنات ، أما البذور فتقع في مفهوم الأزمان وحركاتها فالأولى مادة ساكنة أو أشياء مادية ، بينما الثانية حركة زمانية متغيرة •

(٣) راجع :التناسخ ومفاهيمه في الفكر الإنساني ، ستجد له صورا عديدة ، وأنماطا متباعدة ، كل واحد منها يعبر عن فكر جماعة بذاتها •

(٤) راجع كتابنا: أوراق منسية في النصوص الفلسفية، أثناء الحديث عن التناسخ وأنواعه، صـ ٢٨٨ وما بعدها •

يقول " هيل " لقد عاشت فكرة التناسخ أطوارا مختلفة، وانتقلت من شعوب بدائية إلى أخرى ، لها بعض المساهمات الحضارية ، لكن في كل الأحوال جاءت الفكرة معبرة عن تأليه الإنسان لقوى الطبيعة وعناصرها ، وكان أصحاب الفكر الجانتيني من أبرز الذين أحدثوا فيها تعديلات كثيرة . وأدخلوا عليها تطورات متعددة [١] مع إيمانهم إيمانا قويا . ومحافظتهم عليها من كافة النواحي .

من ثم فقد أله الجانتينيون فكرة التناسخ أيضا دون أن تفصح الأقوال الواردة عنهم نوع التناسخ الذي يريدون ، أهو تناسخ روحي تجيء فيه الأرواح متنقلة بين عوالم متعددة، ما أن تهبط في روح وتستقر حتى تبحث عن غيرها، ثم تنطلق منها متى كانت سعيدة إلى أعلى وهكذا . بحيث تبلغ الأرواح العلوية[٢] وتلتحم بها بل تصيد جزئا منها أم تأخذ في الهبوط المتواصل والتدني من روح خاسرة إلى جسد شرير . ثم الطريق الأحد تدنيا ، حتى تصير في أحقر حيوان وأخس كائن .

أم أن التناسخ عندهم يجمع بين هاتين الصورتين ، ويوفق بين النوعين، الجسدي والروحي ، ثم يخرج من ذلك بنوع جديد ، تعتبر جامعا بين النوعين السابقين[٣] ؟ وذلك كله ما لم تعره الكتابات التي تحدثت عنهم أي اهتمام ، كما أن المؤرخين القدامى والمحدثين الذين وقفت عليهم، تناسوا بحث هذه النقطة، ويبدو أنه لم يكن لها وجود حينئذ ولا شك أن هناك قسما آخر للتناسخ، وهو التناسخ الجسدي، الذي يقوم على اغتذاء جسم آخر مع استفادة الجسم الذي أكل من الجسم المأكول، وتحلل الثاني في الأول بعد انضمامه إليه، فلا يظهر أثر للمأكول داخل جسم الآكل ، إلا من خلال المظاهر الحيوية التي تعبر عنها طبيعة التغذية[٤]، فالإنسان يتغذى على الحيوان والنبات ، و يتحول كل جزء مما أكل في جسم الإنسان إلى قوة وحيوية ونشاط .

---

(١) جوزيف أندريه هيل: الحركة العاقلة في الشرق القديم، صـ ٢٧٧ / ٢٨٨ وما بعدها ، ترجمة وفاء صابر .

(٢) وهذا التناسخ الروحي يقوم على انتقال الأرواح من أجساد إلى أجساد أخرى ، في مرحلتي الصعود أو الهبوط، ولا مانع من تبادل المواقع بحيث تصير الأدنى أعلى، والأعلى أدنى ، وبالتالي فهم لا يؤمنون بالبعث ، كما لا يعتقدون بالآخرة .

(٣) يلاحظ أن الجمع بين النوعين السالفين، إنما هو جمع على سبيل الفرض العقلي، باعتبار أن التنوع قد يؤدي إلى التكرار، وربما أدى إلى إمكانية وقوع هذه المسائل جميعا في وقت واحد .

(٤) وهذه مسألة ثابتة بالواقع المشاهد، بجانب التجربة العملية، ثم الأدلة العقلية وغيرها .

وقد يموت الإنسان في البحر فتأكل جسده الأسماك ، وربما يموت في العراء فلا يجد أحدا يقوم بمواراة جسده التراب،ومن ثم تأكله الطيور الجارحة وغيرها، أو تأكله الحيوانات ذات المنقار أو ما شابهها[١]، ثم تتدخل هذه الجزئيات وتأخذ في التحلل، ومن هنا تصير في جسم الآكل قوة وحيوية ونشاطا، إلى غير ذلك من الوجوه التي يحتمل وقوع الاستفادة بها ، أو التبادل معها •

بل ربما يأكل الإنسان فضلات إنسانية عن طرق متحولة ، مما تجيء في صور متعددة[٢]، فيقع التناسخ بين كل هذه الأجساد وفضلاتها ، وهو أمر مقرر في الأذهان ، ومعروف لدى العقول الصحيحة، ولا تنكره الشرائع الإلهية، ويعرف باسم التناسخ الجسدي المشروع •

غير أن الجانتينية لما فهموا التناسخ على الناحية الروحية ، اعتبروه حرا في سلوكياته مسئولا عن تصرفاته ، ثم قفزوا به بعد ذلك، فجعلوه حاكما على الأمور كلها ، متصرفا في كافة الكائنات ، من جهة التكرار والتدوير إلى غير ذلك من الوجوه ، ثم منحوه الحق في التأليه بل اعتبروه من أعلى قوى الطبيعة قوة ، وأكثرها تأثيرا •

يقول " جيرار" أن فكرة التناسخ دفعت بالهند إلى تأليه المثال الدال عليها ، وكان " ماهافيرا " نفسه يلوح إلى هذا التناسخ حين ينادي لا إله خلف القوى الطبيعية، ولا حاجة لغير التناسخة الحقيقية[٣]، وكان " رينر " يقول لا أعتقد أبدا في وجود كائنات خالقة بقدر اعتقادي في خضوعها للتناسخ، فهو الجدير بأن يكون خالقا ممتازا يحمل صفات الجد والاجتهاد [٣] •

---

(١) فقد يكون الحيوان ذو المنقار كالبط والأوز وغيرها ، مما يعبث بالأجساد الميتة ، ويسعى إليها فيأخذ منها ما يروق له ، ثم يتغذى به، ثم تأتي الدورة الجديدة فيأكل الإنسان الجديد هذا الحيوان ، وهكذا يمكن أن تقع العملية في التكرار والتوالد بجانب التناسخ الدوري •

(٢) كالحال مع الفضلات الحيوانية التي يتغذى بها النبات في مراحل نموه المختلفة، ثم يأكل الإنسان هذه النباتات فيتغذى عليها، مع أنها هي الأخرى قد سبق لها التغذي من فضلاته، وعلى ذلك فقس باقي الظواهر التي تتم من خلالها أشكال مختلفة وعمليات تبادلية لم تتوقف أبدا •

(٣) جيمس جيرار: الشرق القديم عقائده واتجاهاته الفكرية، صـ ٥٧ ، وراجع لموريس هونيكر: الاتجاهات الفلسفية في شبه القارة الهندية، صـ ١٤٣ / ١٤٤، ترجمة وفاء زكي •

(٤) جوزيف رينر: حياة الحقائق، صـ ٤٧ ، ترجمة زكريا فريد، وهو غير كتاب حياة الحقائق لجوستاف لويون، الذي ترجمة الاستاذ عادل زعيتر •

لكن القول باعتبار الناسخ أحد العقائد الجانتينية الممتدة ، أو المستمرة ، يحتاج إلى تبرير قبوله من ناحية العرض ، وبعبارة أخرى ، لماذا اعتبر التناسخ عقيدة، مع أنه شطر فكره خاصة [١] ؟ ولماذا تحولوا من تقديس الطبيعة المرنية في قواهم وتأثيراتها غير المرنية ، إلى تاليه فكرة غير قابلة للتأكد منها عن طريق البحث العلمي، أو " الواقع العلمي " .

والجواب أن أصحاب الفكر المنحرف ، وبخاصة الذين لديهم دوافع انهزامية، يعيشون في عداء دائم مع أنفسهم ، والمجتمعات التي يعيشون فيها ثانيا ، والأفكار التي توجد مظاهرها بينهم ثالثا ، نظرا لهذه الخصومة التي قاموا بها مع الجميع [٢]، فإذا انتهت تلك المرحلة الغيبة أو الطارئة تحولوا إلى عبادة الأساطير التي وجدت عند الأقدمين ، كنوع من إبراز العظمة، أو الرجوع إلى القديم كأن لسان حالهم ، يقول :

أمسيت في الماضي أعيش كأنما   قطع الزمان طريق أمسى عن غدي

بدليل أن فكرة التناسخ هذه كانت موجودة في الزمن البعيد ، داخل الأمم الوثنية كلها، ثم قامت وتمددت داخل المجتمعات التي ظهرت فيها الديانات الوضعية، نظرا لاختلاف هذه الديانات في أصولها وقواعدها، وسقوطها دائما بين نزعات الشياطين [٣]، وهذا في حد ذاته يجعل بعضها يلجأ لعبادة الأسلاف، وبعضها الآخر يسعى لتدميرها، فيحدث صراع عنيف ينتهي حتما إلى أن يكون المجتمع هو الضحية التي تذبح بغير سكين.

الثالثة : إهمال الأسفار الهندية القديمة

المعروف أن الهند كانت تتلى فيها أسفار " الفيد" وأسفار " الأوبانشاد" وغيرها، وقد اعتقد الجانتينيون فيها أول الأمر ، ثم أخذوا منها واعتبروها مصادر أساسية، لكنهم عند بناء عقائدهم لجأ أصحاب الأردية البيضاء إلى الأخذ منها فقط ، ثم الانتساب إليها

---

(١) لأنه ليس فكرة كاملة يمكن تقليبها على وجوهها الممكنة ، بدليل أن كلامهم منصب على نوع من أنواع أحد قسمي التناسخ الجسدي أو الروحي .

(٢) والواقع يشهد بهذه الخصومة التي لم تنقطع، وفي نفس الوقت كل واحدة منها تعادي الأخرى، وتدفع إلى التعادي عليها ، وهي مشكلة لا ينكرها صاحب عقل .

(٣) لأن الدين الإلهي واحد في أصوله ومصدره وقواعده، كما أن غاياته محددة ، راجع كتابنا: حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان .

في إصرار غريب ، وفي الوقت الذي تعامل معها فريق الأجساد العارية نظرة تقديسية[١] ما لبث أن تحولت إلى صور تشاؤمية ، مردها الحقيقي للأرواح الشريرة ، البعيدة عن روح الآلهة العظمة الكامنة في قوى الطبيعة •

من هنا تحولوا معها إلى عداء مستحكم . بل أكدوا أن آية أسفار عاجزة عن تفهم حقائق الأشياء على ما هي عليه من الناحية التي يدركها ويراها القديسون. ثم انتهوا إلى أن هذه الأسفار لا تقدم سوى جملة من المعارف الاحتمالية التي تعبر عن صيغ دلالية متواضعة [٢] ، لأن هذه الأسفار لم تنزل من إله، ولم تهبط من مكان عال، وكيف لا وهم لا يعتقدون بوجود إله أصلا، سوى القوى الطبيعية، والتناسخات التي لم تتم من خلالها أو تعبر عنها •

ورغم شعورهم بتناقض أقوالهم وتردي مذاهبهم، إلى الحد الذي يفقدها كل شيء ويكشفها تماما مع كل ناحية، إلا أنهم غيروا هذه الطرائق حتى تساير الأفكار التي يريدونها ، وهو ما يعبر عن صورة من الجدل لا تقترب كثيرا عن الذي كان عليه المتشككون والعدميون، بل والسوفسطائيون وغيرهم[٣]، ولا أغالي إذا قلت أنهم أزادوا عليهم من غير إعلان عن هذه الزيادات •

صحيح لم يعلنوا عن قبولهم بفكرة العدم ، ولم يتمسكوا باعتقادات اللا أدريه، وفي نفس الوقت لم يتحولوا إلى المذهب الآني كما فعل الشكاك والعدميون، لكنهم مع ذلك لم يخالفوهم مخالفة تامة ، إلى الحد الذي يجعل أقوال سابقيهم بعيده عنهم ، وهذا في حد ذاته كفيل بتقرير مبدأ عام .وهو أن معاداة الجانتينين للأسفار الهندية ، إنما كانت أمرا موقفيا ، ما لبث القوم أن عادوا إليه ثم تساقطوا وتنحوا فيما ترنح فه غيرهم •

يقول الجانتينيون مادامت الأسفار المقدسة لا تقدم الأشياء في حقيقتها ،ولا تعبر

---

(١) ومن هنا ظهرت عبادة المخاوف، كما نشأت عبادة المنافع، بحيث تعتبر كل منهما هي رد الفعل الطبيعي للآخرين، ولا تعبران في الجملة إلا عن انحراف فكري، وخروج على الفطرة في الجانب العقدي، وابتعاد تام عن التكاليف الشرعية والقيم الأخلاقية الإيجابية •

(٢) راجع كتابنا: التفكير الإنساني في أصوله ومستوياته ، حيث يلجأ الإنسان إلى استعمال صيغ دلالية ليهرب بها من مشكلاته الحقيقية •

(٣) فالقاسم المشترك بين هذه الجماعات هو الجدل ، والشك ، وإنكار الحقائق المطلقة ، ثم الاعتماد على الفكر الوافد من المجتمعات الوثنية كلها •

عن جوهرها ، فيجب إهمالها تماما ، بحيث يحل بدلا منها ناتج العقلية والطقوس والشروح الجانتينية ذاتها، لأن هؤلاء قد تخلصوا من العوارض العالقة بأذهان الماضي وتشبثاته ، ثم صارت لديهم القدرة على بلوغ الحقائق المطلقة(١)، في أوضاعها الحقيقية التي صورتها قوى الطبيعة لها، وزينت وجودها فيها .

يقول " بهار " من الخطأ الكبير اعتقاد أن الجانتينية كانت ديانة هندية ، لأنها مجرد أوهام وخيالات لمرضى لفظتهم مجتمعاتهم ، فصارت هذه وتلك تدفع لليأس والانتحار ، لقد أعلنوا أول الأمر هدمهم للجدل والسفسطة، ثم انقلبوا إلى جدل من نوع خاص، ثم قدموا سفسطة تحتضن الشك والجدل معا ، بل وتدعو للجهل المعرفي ، حين أعلنوا موت الحقائق المطلقة ، وأكدوا على أمر آخر يقوم في مفهوم أن الحقائق نسبية ، مع أنها مطلقة كلية (٢) .

أجل ، هناك العديد من الأسماء التي تعرضت للكثير من هذه الآراء بالنقل والنقد، وكان لها دخل كبير في بناء الاعتقادات الجانتينية وقد أثرت على حركاتها الفكرية في القرون التي عاشها ، ولكنها لم تقدم حلولا عملية، أو إجابات صحيحة ، لرفض هؤلاء نصوص الأسفار القديمة، ومع هذا تناقلها الناس عنهم، ثم اعتبروها صحيحة وهي مشكلة بحثية تحتاج المزيد من المراجعة بجانب البحث والاستنتاج .

الرابعة : ضرورة التزهد

اعتقد الجانتينيون أن التزهد عقيدة تتم من خلالها عملية تهذيب النفس، أو تخليصها من الشوائب المادية، ولا بد فيها من التقشف الذي هو أحد مظاهر التزهد ، لأن التزهد فيه تطهير النفس من أدرانها ، يعينها على معرفة أسرار الوجود في أرقى مظاهرها مع بلوغ الغاية فيها، وذلك من شأنه تحويل الإنسان الواعي إلى واقعة مدروسة(٣)، من حيث أنه ذاته الذي يلتحم بأسرار الوجود ، ويمكنه الكشف عن طبيعة هذه الأسرار .

---

(١) جيمس جيرار: الشرق القديم عقائده واتجاهاته الفكرية، صـ ٤٧ / ٤٧ وما بعدها .

(٢) الدكتور محمد زكي صبري: نظرات في الأديان الهندية القديمة، صـ ١٥٣، وراجع للدكتور عادل فيصل: الأسفار الهندية والواقع التاريخي، صـ ٧٧ .

(٣) الوقائع المدروسة مصطلح علمي يطالب أن تكون المقدمات في وضعها الطبيعي حقائق مسلمة حتى تكون النتائج سليمة، راجع كتابنا الحديث في المنطق الحديث، صـ ٤١١ ، الطبعة السادسة .

والجاتتينيون يعتقدون أن الوجود الكامل مصور في العناصر الطبيعية المشاهدة ، أو القابلة للمشاهدة، أما قوى هذه العناصر الطبيعية فهي القوى المؤلهة النائمة المختفية ، ومن ثم فمتى أمكن النظر إلى دائرة العناصر الطبيعية وحدها ، أمكن الحكم بأن الوجود متكرر متواصل . والتزهد في العيش بجانب الملبس . ورغبات النفس بعطي للإنسان فرصة أكبر ، بحيث يدرك الوجود الأصلي في صورته الحقيقية دون اعتبار لشيء آخر[١]، ومن غير نظرا لما هو وراء ذلك .

يقول " جيد " منذ ظهر الفكر الجاتتيني وهو يحاول محاربة الترف، وينادي أصحابه بالفقر والزهد . كما يرفضون التمتع باللذات مهما كان شأنها ، بحجة أنهم بذلك يطهرون النفس من آثامها، ويفصلونها عن الوقائع السلبية الحيطة بها .

ولست أدري من أين جاءوا بهذه الأفكار الساذجة ، مع أن النفس البشرية جبلتها الطبيعة على الاعتراف بالتنعم ، وعلمتها كيفية الشعور باللذائذ ، كما أن المذاهب السابقة عليهم واللاحقة لهم حث بعضها على التقشف والتزهد بفرض أخر ، هو تحرير النفوس من قبول العبودية ، وقدرتها على ممارسة حريتها ، وقيامها بمسئوليتها الأخلاقية[٢]، من ثم فالتقشف والعري على النحو الذي قال به هؤلاء ، إنما كان ناتج خيالاتهم ، ومعبرا عن سوء أحلامهم التي طاردتهم في اليقظة والمنام معا .

ومع أنهم اعتبروا التزهد أحد اعتقاداتهم الأساسية ، إلا أنهم عند وصفهم للطرائق التي توصلهم إليه، لم ينجحوا في تقديم أنفسهم للمجتمع الهندي بصورة لائقة بقدر ما كانوا صورة زائفة متكررة في أنماط فاسدة ، ومع كونهم عاشوا عرايا - حفاة - تاركين للذائذ ، فإن هذا الأمر لا يعدو أن يكون حيلة من حيلهم التي كم حرصوا علي ابتداعها ، لكنهم من الناحية العقدية يصدق فيهم وأمثالهم قول الله تعالى " أُفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون " [٣].

---

(١) راجع كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، صـ ٤١٥، وكتابنا: رياض الأشواق في الميتافيزيقا والأخلاق ، صـ ١٤١ .

(٢) أندريه جيد: المذاهب الفلسفية الكبرى في الهند ، صـ ١٥٣ ، ترجمة عادل خير الله سنة ١٩٨٧ .

(٣) سورة فاطر ، الآية ٨ .

ثم أن التزهد الذي يطالبون به ، أو يدعون الناس إليه، أو ربما يمارسونه في حياتهم الخاصة ، غير محدد المعالم. كما أنه غير واضح الأبعاد فما معنى التزهد عندهم؟ والجواب، أنه الانصراف عن الشعور بما في الأشياء من متع [١]، بحيث لا تنال هذه المفاهيم من عقلية القائم بها، أو آدابه وأخلاقه [٢]، وهذا المعنى غريب ، لأنه يندرج في افكار ومعتقدات سابقة وطقوس متعددة تم النظر إليها داعية للتخلي عن اللذائذ ، فما هو الجديد حتى يكون التزهد موضوعا له في الفكر الجانتيني ، ذلك ما لم أقف عليه في المصادر التي تحدثت عنهم •

يذكر " هداس" أن زعماء الجانتينية قد وضعوا مفردات لغوية ، يمكن النطق بها والتعامل معها ، ولكنها فارغة عن المعاني التي يمكن أن تحملها ذات الألفاظ ، ومنها فكرة التزهد ، التي تقترب من مفردات التصحر ، والتصخر وغيرهما، وهي مفردات ذات دلالات خاصة من الصعب الوقوف بها عند حد معين، أو تجيء على فهم مستقيم [٣] •

لقد أرادوا بناء ثقافة جديدة تقوم على فكر مخالف لما هو قائم في بلادهم لكنهم ففشلوا تماما ، وحاولوا إقامة عقيدة تنسب اليهم فباؤا بالفشل المتكرر. بدليل أن المجتمع الهندي لفظهم، فتناقصت أعدادهم ، وتناقضت أفعالهم مع أقوالهم [٤] وكتبوا نهايتهم بأيديهم ، وحطموا المعبد فوق رؤوسهم •

وإذا كانت أسفار " الفيدا" وغيرها قد تحدثت عن التزهد من الناحية العملية السلوكية، فإنها لم تضع له منهجا معرفيا، أو خطة علمية تمكن من التزم بها في الوصول إلى قضايا حقيقية ، أو تقديم خدمة علمية ذات نسق منهجي [٥]. ولما كانت الجانتينية قد

---

(١) فهذا الانصراف يتحول إلى حالة نفسية تصاحب الفرد، ويمكنه التخلي عنها بإرادته ، أو ممارستها طبقا لما يريد، ومن ثم يمكنه ممارسة كافة المتع تحت نطاق أو إطار السير في طريق التزهد وممارسته •

(٢) والواضح أن الانصراف الإرادي عن المتع المباحة على الناحية المشروعة ، من غير إسراف ولا تقتير بعمق في النفس في أوضاعها الطبيعية القواعد الأساسية التي جاءت بها الشرائع الإلهية، كما يصادرون على متطلبات النفوس الإنسانية •

(٣) جوزيف هداس: الحركات الفكرية في الشرق القديم، صـ ٨١ / ٨٢ •

(٤) جيمس جيرار: الشرق القديم عقائده واتجاهاته الفكرية ، صـ ٨٥ •

(٥) وهذا الاستنتاج هو ما يؤكد طبيعة الفكر الإنساني الذي إذا لم يسترشد بالشرع فقد مقوماته الأساسية ، أما إذا ألتزم به فإنه يمضي في طريقه السليم، لأن الذي أنزله هو الله تعالى رب العالمين •

هجرت الأخذ بالأسفار الهندية القديمة ، واعتبرته خروجا على المألوف ، فإنها أعلنت رفضها للسلوك العملي الهندي أيضا وهنا يأتي التساؤل الضروري من أين لها حتى تتمكن من تقديم الجديد[١]. بل من أين لها السير قدما فيما زعمته يحقق بعض صور التزهد العملي أو المعرفي •

طقوسهم التزهدية

قدم الجانتينيون بعض الطقوس الخاصة بهم ، والتي اعتبرت بمثابة تأكيد على التزهد من جانبهم ، أو هي مظاهر له بحيث يحكم على المقترن بها أنه جاتنيني. من أبرزها :

١ - السير على الأقدام مسافات بعيدة ، أو التخلي عن وسائل المواصلات ، من باب تهذيب النفس وتطهيرها ، ثم تعويدها على القيام بالمصالح البدنية[٢]، وقد الزمهم ذلك ممارسة أعمال عنيفة أكثر تأثيرا ، وأعظم خطرا من السير على الأقدام الحافية •

٢ - التخلي عن الطعام والشراب مدة زمانية متباعدة ، وقد ترسخ فيهم ذلك الاعتقاد ، ظنا منهم أن الطعام والشراب فيه طاعة لشهوات النفس ، وهم يريدون تعذيبها ومخالفة أوامرها وتعاليمها، حتى تكون طيعة لأصحابها[٣] •

ولست أدري إذا عذبوا الأنفس التي ينفذون تعاليمها فلمن ينقادون ، هل للعقول وهم لم يذكروها ، أم للقلوب وهم لا معرفة لهم بها، أم إلى شيء آخر أخفوه لم يفصحوا عنه •

٣ - حبس النفس في الصدر ، بزعم تدريب الجسم بعد ذلك احتمال الشدائد والآلام، ثم استمرار تلك العمليات مع كل فرد[٤]، على فترات تطول بعض

---

(١) لما هو معروف ، من أن كل بحث علمي إنما يقوم وينهض على أصول سليمة ، وأسس صحيحة، بجانب منهج علمي ، وغاية نبيلة ، فإذا لم يقم على هذه وتلك ، ظهرت قواعده هاوية متهافته ، حتى إذا وقفت على قوائم سقطت بها مباشرة

(٢) أندريه جيد: المذاهب الفلسفية الكبرى في الهند، صـ ١٧٧ وما بعدها، وراجع لجيمس جيرار: الشرق القديم، صـ ٨٧ •

(٣) جوزيف هداس: الحركات الفكرية في الشرق القديم، صـ ٨٥ ،و راجع لجيرار: الشرق القديم عقائده واتجاهاته الفكرية ، صـ ٨٧ •

(٤) وهم في كل الحالات لا يقدمون شيئا جديدا، بقدر ما هي أطروحات فكرية لا تقوم على أسس علمية أو معرفية ومن ثم كان التنازع حولها كثيرا •

الشيء وتقصر طبقا للطريقة التي يتبعها أثناء هذه الممارسة وكلما كانت طريقته واضحة فإنه يحبس نفسه في صدره مدة أطول.

٤ - **الجلوس على هيئة بعينها** ، في وضع ثابت حيث لا يسمح للفرد بالحركة ، حتى يتعود الجسم على اختزال حركاته المتعددة في حركة واحدة[١]. ثم يأتي بعد ذلك تعويده على ممارسة أعمال عنيفة ، واحتمال آلام شديدة ، وكلما أتقن الفرد القيام بهذه الأدوار ، رقي في السلم المعرفي حتى يبلغ درجة الكاهن أو القديس .

٥ - **تركيز النظر والذهن على واقعة بعينها**، أو اتجاه بذاته، حتى يتمكن من الوصول إلى حقائق القوى القائمة بالعناصر الطبيعية ، ثم الاستفادة منها بأقصى طاقة ممكنة. إذ كانوا يقولون لا يبلغ المرء غايته إلا إذا مارس هذه الطقوس، حتى يكون جانتينيا على الحقيقة ، وإلا اعتبر خارجا عن الجماعة ، أو على الأقل غير مصرح له بالحديث عن نفسه باعتباره جانتينيا .

الخامسة : تحريم القتل والذبح

يذهب أصحاب المذهب الجانتيني إلى أن أي فعل يترتب عليه إزهاق روح يعتبر أمرا محرما أو غير مقبول ، ثم توسعوا في المفاهيم التي تدور حوله ، وأخيرا سعوا إلى إعلان هذه المسائل على أنها جملة من المبادئ الأساسية الجوهرية والقيم الأخلاقية ، من هنا اعتبروا كلا من القتل ، والذبح ، والقطع ، وما يتعلق بشيء منها أمرا محرما[٢]، زاعمين أن ما أوجدته الطبيعة يجب أن يبقى على وجهه الثابت له الذي لا يحيد عنه، ولا يتزحزح من طريقه .

ولما كان الإنسان قد يحتاج في حياته الى ذبح الحيوان لأكله مثلا ، فقد حرموا أكل الحيوان، حتى لا يقع الذبح عليه، ونادوا بتحريم أكل اللحوم مطلقا ،كما عاشوا نباتيين إلى آخر العمر ، حيث لا يقبلون آكلي اللحوم أيا كانت صورة الحيوان، أو طبيعته ، يقول "جيرار" حاول الجانتينيون إثبات أنهم أخلاقيون ، ثم احتاروا في الطريقة التي

---

(١) كأنهم بذلك يمهدون لفكرة اليوجا الهندية التي ظهرت فيما بعد وتحولت إلى رياضة خاصة ، وصارت الآن تعبر عن لون من ألوان الرياضة الحركية البدنية والروحية الانضباطية .

(٢) إن هذا الاعتبار مرده لحقيقة واحدة تدعم مركزها في عقلية هؤلاء الذين ركنوا إلى تعبيرات غير منطقية، ثم أقاموا بناءاتهم على صورة من الأفكار الهزلية التي لا ترقى إلى حد القبول.

يعبرون بها عن هذه الأخلاق. وأخيرا وجدوها في الابتعاد عن لحوم الحيوان[١] . ثم سارعوا إلى ترحيم ذبحه حتى لا يتم أكله . واستخدموا مصطلح نباتي كبديل عن مفهوم مغتذي الحيوان •

لقد اعتبروا أن التنازل عن تناول أكل لحوم الحيوان ، أحد مظاهر التريض الفعلي البدني، كما نظروا لهذه العادة الجيدة باعتبارها مظهرا نفسيا ، جعلته الطبيعة في داخلها قائما بها. وفي ذات الوقت سمحوا بمطاردة الحيوان من البيوت . ورفضوا الانفاق عليه بحجة أن الطبيعة قد تكفلت بذلك كله. كما اعتقدوا أن أي كائن حيوي تجري فيه مظاهر طبيعية لابد أن تكون له صلة قوية بالآلهة على نحو من الإنحاء[٢] •

يقول " هولمز " ولما كان الإنسان البداني القديم قد وجد أمينا صادقا، فمن اللازم مراعاة ذلك في كل الأشياء التي يقع له التعامل معها ، ولا يكون صادقا إذا قام بذبح الحيوان، لأنه يسلبه حقه الذي منحته له الطبيعة في العيش بأمان ، وإذا قتل إنسانا فإنه يكون قد خرج عن دوره الصحيح إلى ممارسة اتجاهات فاسدة [٣]. ومن ثم يحكم عليه في النهاية ، ومن خلالها أيضا بأنه غير أمين •

من ثم ، فالأمانة مظهرها عدم القتل ، أو ممارسة الذبح، وهي في ذات الوقت لا يمكن تجاوزها أو تخطي أسبابها، فكان كل واحدة منها تؤدي دورا محددا يتعلق بطبيعة الطرف الآخر ، ويعلق الجاتتينيون على تلك العلاقة أهمية كبرى ، مؤداها أنه إذا كانت الطبيعة هي التي صنعت الإنسان على النحو الذي نراه ، و هي التي تدخر له أسباب العيش ، فإنها هي ذاتها التي يجب احترام إرادتها[٤] ، حتى لو كانت مخالفة لكافة الأهداف والأغراض الإنسانية الأخرى •

---

(١) جيمس جيرار :الشرق القديم عقائده واتجاهاته الفكرية، صـ ٩٣، وهو بلا شك يرصد هذه الظاهرة منذ نشأتها ، ثم يقف عند حد الرصد، وربما استعمل النقد الهادي في بعض الأحيان •

(٢) فيكتور شابي: هكذا تكلمت آلهة الهند، صـ ١٨٧ ، ترجمة وفاء شوقي، مراجعة خالد زكيا ، ط. أولى سنة ١٩٨٧ •

(٣) جيرار هولمز: المدرسة الجينية وأهدافها الإنسانية، صـ ١٨٥ ، ترجمة حسن صبري، وراجع : هكذا تكلمت آلهة الهند ، صـ ١٩١ •

(٤) هكذا اعتبروا الكائنات والقوى الطبيعية ذات إرادة حرة مستقلة ، في الوقت الذي يعطون أنفسهم ذات الحرية ولو فطوها لكانت لهم من أنفسهم مواقف أخرى •

يقول " ديفيد صوفر " لقد خدعت الأفكار الهندية الموروثة الكثيرين ، وجعلتهم يتحولون من الطريق الطبيعي الى غيره. لأنهم حينما أرادوا تعذيب أنفسهم اخترعوا التزهد ، وحينما أرادوا خداعها زعموا ضرورة وقوع التعذيب على أنفسهم أولا حتى لا يقع بالنسبة للحيوان ، فمن منهم الذي يستحق العطف عليه والإحسان له. أليسوا هم قبل أن يكون الحيوان[١] ، والمفترض فيهم كمال العقل ، بجانب رجاحة الفكر ، وصحة الاعتقاد[٢] ، لكن المفترض شيء والواقع شيء أخر بعيدا عن ذلك تماما ٠

غير أن هذه الفكرة ، لو صح اعتبارها عقيدة لديهم ، فمن المؤكد بيان فسادها على الجوانب العديدة، أبسطها موقف الإنسان الجانتيني نفسه، عندما يهاجم من قبل الآخرين، سواء أكانوا من جنس البشر أم من الحيوانات المفترسة ، والطيور الجارحة[٣] ، هل سيدافع عن نفسه ، حتى لو قتلها في سبيل المحافظة على مبدأ البقاء، حتى لو تم القتل في صورة من الصور، أم سيقف مكتوف الأيدي حتى يقع القتل عليه هو ذاته، وماذا يكون الموقف لو هاجمه إنسان غير جانتيني، يرى الهجوم أفضل وسائل الانتصار، هل سينظر إليه نظرة استرحام غير مجد ، أم سيحاول صده والدفاع عن ذاتهبكل الوسائل وعلة جميع السبل ؟ ٠

الغريب أن أفراد هذه الجماعة يجيبون على ذلك بضرورة الابتعاد عن القتل ، حتى لو كان دفاعا عن النفس، وهذا ما جعل غيرهم يعتدون عليهم ، وبخاصة أولئك الذين نظروا إليهم نظرة استخفاف وضعف و إستذلال(٤) ، وصل بهم إلى حد تجريدهم من كل شيء ، أو قطع بعض أعضائهم ، وتحويلهم من الصور الطبيعية إلى أخرى غير طبيعية ٠

---

(١) ديفيد سوفر: الأديان القديمة دقائق وحقائق، صـ ١٧٨ / ١٧٩، ترجمة ناشد صبري، ط. أولى سنة ١٩٨٣ ، والملاحظ أن هذه الأحكام تم استقراؤها من الوثائق التاريخية التي أمكن التعرف عليها واقتباسها من خلالها بطريقة علمية ٠

(٢) لأن من حاول إقامة بناء حضاري فلا بد أن يكون سعيه إليه من خلال قواعد صحيحة ، وأسس سليمة ، وإلا فإن ما تم بعد ذلك لا يكون مقبولا ٠

(٣) راجع كتابنا: قراءات في العقيدة وفلسفة العلم، صـ ١٨٧ وما بعدها ، لمعرفة أن الإنسان قد جبل وفيه رغبة الدفاع عن النفس من دافع البقاء أو انطلاقا من هذا الدافع الفطري ٠

(٤) وهذه الأفكار تخالف الفطرة من حب البقاء،والدفاع عن الذات وبالتالي فهو غريب ولا يملك أن يقول به أحد من ذوي العقول الصحيحة ٠

لقد قايسوا بين الإنسان والحيوان ، ثم رسخوا هذه المقايسات في أعماق الأبناء والحفدة ، وجعلوها متكررة مع الأيام ، ومن هنا حرموا ذبح الحيوانات في كافة أشكالها ،و جميع صورها ، بل أمتد بهم الأمر إلى تحريم قتل جميع الكائنات الحية ذي الروح التي تحس وتتحرك اعتقادا منهم أن ذبحها أو قتلها يدخل ضمن الأعمال الإجرامية ، التي تصيب الإنسان بالإثم(١)، وتجعله غارقا في الخطيئة مرتكبا لكافة ألوان الدنس •

بل أنهم فرعوا على هذه العقيدة الخرافية تفريعات كثيرة ، ثم حكموا عليها جميعا بأنها محرمة ، ومنها الزراعة التي اعتقدوا تحريمها على الجانتي ، لأنها تمزق التربة، وتسحق الحشرات والديدان، وهي في نظرهم كائنات حية ذات نماء جسدي وروحي أيضا، كما اعتقدوا أن الجانتي الخالص لا يأكل عسل النحل ، لأنه مجهود حيوان ضعيف ، كما أن خلاياه حية ، بل به حياة النحل ذاته(٢)، ومن هنا ، اعتبروه محرما ، فلا يأكلون عسل النحل ، بل ولا يستخدمونه على آية صورة من الصور الاستخداميه •

ويعتقد الجانتينيون أيضا ضرورة تصفية الماء عند استعمالهم له سواء أكان الاستعمال في الشراب أو غيره ، خشية أن تكون فيه كائنات حية كامنة، فيقع عليها الهلاك وهم لا يريدون فعل ذلك ، ومن هنا كان الواحد منهم إذا شرب الماء غطى فمه ، حتى لا يستنشق مع الهواء كائنات حية عالقة فيقتلها، وكذلك يغطي مصباحه بستار كثيف يقي الحشرات حتى لا تتعرض للصعق بالنار وهكذا ارتفعت حركة التحريم في لتعامل مع الحيوان لأبعد مدى •

كما وصلت بهم الأمور إلى حد أن الواحد منهم كان إذا سار على الأرض ، مع أنه يكون حافيا، فإنه يكنسها أمامه أثناء عملية المشي، خوفا من أن تدوس قدمه الحافية على كائن حي صغير أو غير مرني فترديه، لأن ذلك يكون بمثابة إعلان الحرب من قبل الطبيعة

---

(١) من المؤكد أن هذه الغاية قد استفاد منها أعداؤهم ، لأن طهارتهم التي زعموها أسقطوها على الأرض، ثم وطؤها بأقدامهم ، وفوق ذلك ، فإن الطهارة التي زعموها لأنفسهم لا تعتبر ذات قيمة إلا إذا قامت على أصول إلهية ، وإلا فهي الفساد بعينة، وقد وقعوا فيه •

(٢) راجع لهيلفي : الديانات الهندية القديمة، صـ ٣٢٧، ولهولمز : المدرسة الجانتينية وأهدافها الإنسانية، صـ ١٥٧ ، مع ملاحظة أن جملة هذه الاعتقادات قد تظهر صورها في الفكر الجيني أيضا، ومن هنا ظن البعض أن الجانتينية هي ذاتها الجينية ، مع أن الفرق بينهما كبير جدا •

ذاتها . ومن هنا أصدروا تعليمات بعدم ذبح الحيوان أو التضحية به .

وعلى العكس من ذلك. أعلنوا ضرورة العناية بالحيوانات في كل صورها وأشكالها، وطالبوا بإقامة مستشفيات للمتعاملين معها . بجانب المصحات التي تكون لذات الحيوانات ، بحيث تقع لها الرعاية لتامة . مع العناية الشاملة طيلة حياتها، أو عند تعرضها للمرض والحزن . أو أصابها مكروه . أو وقع عليها شيء من الأذى [١] .

صحيح زعم هؤلاء أنهم كانوا ينشدون طهارة الروح، وسلامة النفس. ونقاء الجوهر[٢] ، فيذكر المؤرخون عنهم أنهم لم يقعوا في النفاق ، كما لم يحتاجوا إلى الكذب ، ثم ترفعوا عن المجاملات الكاذبة. وتناسوا استخدام العبارات الخادعة ، بجانب إهمالهم التعلق بمظاهر الحياة في أنواعها المختلفة ، مما جعلهم في نظر الكثيرين جملة من الأنقياء الخالصينعن الغايات الدنيوية . والأغراض الذاهبة[٣]، ولكن كل ذلك حملهم بعبئا أكبر ، ثم مسئولية أعظم . أما لماذا :

فلأن هذه العقول لما تحركت نحو الفضائل ، كان يجب عليها الأخذ بها من خلال المعيار الفطري ، الذي جعل الله الكائنات مفطورة عليه ، قائمة من خلاله ، ولو فعلوا ذلك ، لكانوا حاملي مجموعة من الاعتقادات التي تجعل المزدان بها كأنه كاهن يتجول على الأرض ، أو قديس لم يرتكب خطيئة ، وبخاصة أن سيرهم حفاة الأقدام ، عراة الأجسام، صاحبه اتيان القيود الأسرية. والطقوس الرسمية ،بجانب تمسكهم بالمصلحة العامة[٤]، التي زعموها أفضل من المذاهب الفلسفية ، والاعتقادات الدينية .

لقد أعلنوا عزمهم المضي قدما في تجريد الإنسان من خواصه الذاتية ، حينما طلبوا منه عدم الدفاع عن نفسه، ثم خالفوا الدوافع الفطرية الأساسية ودورها في

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الثاني، جـ ١ صـ ٦١ ، وهي ذات الأفكار التي يمكن اعتبارها من ناحية ناتية فمثلا لصلب الفلسفة الجانتينية في مرحلة من مراحلها القديمة التي صاحبت نشأتها ، وكان لها وجود معها .

(٢) من الواضح أنه ليس بالمزاعم المجردة تتحقق المصالح والأهداف، وإنما لا بد من أن ينضم إلى ذلك العمل الجاد الهادف، الذي تظهر آثاره على أنماط الحياة المختلفة في صورها الإيجابية .

(٣) راجع هذه الجوانب لدى المدرسة الجينية وأهدافها الإنسانية ، صـ ١٨٥ .

(٤) قد يظن البعض أن هذه الأهداف والغايات ذات دلالة أخلاقية أو معرفية، ولكنها في كل الحالات خالية تماما من آية حقائق واقعية أو دوافع يمكن اعتبارها مقبولة .

النفوس من حب البقاء والدفاع عن الذات . وغير ذلك . وبالتالي فهم أصحاب مذهب غريب عن القواعد الصحيحة والفطرة السليمة[١] . ولا يقول بأفكارهم أو يمضي معهم طريقهم إلا من عشق أطياف خيالاتهم . وهاجمته في منامه . حتى أيقظته من سباته الطويل . وأبعدت عنه إدراك الحقائق الثابتة . فما عاد يدرك سوى الأحلام والخرافات ويتغنى بالأساطير والأوهام .

كما أنهم لما حرموا الذبح والقتل . واندفعوا لتحريم أكل لحوم الحيوانات بزعم تشدان طهارة الروح والنفس . لم يحققوا في ذلك أدنى صورة من صور النجاح . أما لماذا؟ فلأن الأسباب التي اتخذوها والطرائق التي سلكوها لتحقيق هذه الطهارة كانت ضعيفة المباني، متهالكة المعاني، لا تقوم على أصول صحيحة . ولا تنهض لها أهداف نبيلة . لأن صحة الطهارة متوقفة على موافقتها ما جاء من عند الله تعالى . لا ما جاء من عند الناس ذوي الاتجاهات الفاسدة والاعتقادات المنحرفة[٢] مهما كانوا أصحاب منازل بين الناس . ما شرعه الله تعالى . لا ما سقط فيه أصحاب الشهوات .

السادسة : حق الجانتيني في الانتحار

في الوقت الذي يرفض أصحاب المذهب الجانتيني القتل أو الذبح حتى لو كان للتغذية المشروعة، أو الدفاع عن النفس، أو إلحاق الأذى بالحيوان، مهما كانت درجته المتدنية، فإنهم يعتبرون حياة الإنسان كفرد إنساني فاقدة القيمة، رخيصة إلى الحد الذي يسمح له فيه بإزهاقها[٣] . وكل فرد جانتيني له الحق في الانتحار . لا توجد عقبة واحدة تمنعه من ذلك .لأنها حياته الخاصة . ومن حقه التعامل معها بما يروق له .

والأكثر غرابة . أنهم يبدعون في ذكر أسباب الانتحار . ويكثرون من الحديث عن وسائله . ومنها الجوع الشديد بجانب العطش ثم السقوط من شاهق جبل . والتردي في بئر عميق . أو الاندفاع في النار المشتعلة . إلى غير ذلك من الوسائل المهلكة. بزعم أن

---

(١) وجه الغرابة أن الإنسان السوي مفطور على ما يحفظ حياته، ويصون كرامته . ويعلي بين الناس قدره، فإذا تخلى عن ذلك كله، كان سلوكه غريبا إلى أبعد مدى .

(٢) راجع كتابنا : لماذا انتشر الإسلام ، جـ ٢ ، صـ ٩٧ وكتابنا : بين المسيحية والإسلام في العقيدة والأحكام ، صـ ١٩١ .

(٣) هذا السماح بالانتحار في المراحل الأولى كان اختياريا ، لكنهم في مراحل لاحقة أوجبوه في حالات وبخاصة على أحد الزوجين إذا مات الأول في سن مبكرة ، ولم تكن لهما ذرية .

ذلك العمل هو أبلغ دليل على انتصار الإرادة الروحية ، التي تهزم إرادة الحياة الجسدية العمياء . ومن ثم تعددت دوافعهم الانتحارية والوسائل التي تؤدي إليها ٠

ويعلق " فالك " على فكرة الانتحار الجانتينية قائلا . إنهم هزموا أنفسهم قبل أن يعلنوا أفكارهم ، وهدموا معبدهم فوق رؤوسهم قبل أن يضعوا لبناته الأولى، لأنهم يرفضون ممارسة القتل مع الآخر، حتى لو كان دفاعا عن النفس . ومع هذا يمارسون قتل أنفسهم دون أن يقيموا لهذا الهلاك وزنا[١]. فما أشبههم النار التي تأكل كل شيء حتى نفسها. ومع هذا يزعم عبدتها أنها للتطهير .لا شيء آخر. مع أنهم في كثير من الأحيان يقدسونها٠

أما " ول ديورانت " فيعلق على فكرة الانتحار قائلا: أن عقيدة هؤلاء قامت على أساس من الشك العميق في قيمة الحياة . مع الإنكار الشديد لها ، وكان من السهل أن تجد لها بين الناس شيوعا وتعلقا بها ، وبخاصة أنها ظهرت في بلد ما فتئت أسباب الحياة به عسيرة شاقة ، لكن هذا التطرف في الزهد ، والانغماس في اليأس، قد حالا دون إقبال الناس عليها [٢]، بل صار أغلب المعتنقين لها يشعرون بأنهم قد أخطأوا الاختيار ، وقصروا في حق أنفسهم والمجتمع الذي يعيشون بداخله ٠

كما أن فكرة الانتحار ، وإن كان ظاهرها ممارسة الفرد لأحد حقوقه، وهو ما قد يعبر عنه بالحرية المطلقة للفرد[٣]، لكنها في نفس الوقت فتحت أمام الناس أبواب اليأس والقنوط على ذات الفرد، بدليل أنها ساقته للأحزان والهواجس ، ودفعته للمعاناة، ثم أرغمته على قبول الخروج من الحياة بأدنى قدر . ومن هنا تعطلت مسيرته الحياتية ، فصار عبئا ثقيلا بالنسبة لذاته والمجتمع الذي يعيش بين أفراده، وهو شأن ذوي الاتجاهات

---

(١) داير فالك: مشكلات الفكر القديم دراسة في الفكر الإنساني ، صـ ١٧٧ ، ترجمة على صلاح ، ط. أولى سنة ١٩٨٧ ٠

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ، المجلد الثاني ، جـ ١ ، صـ ٦١ ، وراجع لهولمز : المدرسة الجينية وأهدافها الإنسانية سنة ١٩٨٧ ٠

(٣) راجع كتابنا: الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة ،حيث نرى أنه لا توجد حرية مطلقة ولا حق مطلق ، إلا الله تعالى، أما غيره ، جل شأنه، فإنها حرية أو حقوق مقيدة بالواجبات ، ولمزيد من التفاصيل راجع كتابنا: نظرية السعادة في الفكر الإنساني ، جـ ١ صـ ١٩٧ وما بعدها ٠

المنحرفة[١] والمذاهب الهدامة الذين يظهروه في كل العصور التي وعتها ذاكرة التاريخ ٠

بل أن الانتحار الذي تناولوه ، قد تنوعت مظاهره، كما تكاثرت أنواعه، بالنسبة للعصر الحديث ، فمنه الانتحار الفردي، الذي يقوم به الفرد ذاته[٢]، ومنه الزوجي الذي يمارسه الزوجان بالاتفاق بينهما[٣]، ومنه الانتحار العائلي ، الذي تقوم به العائلة جميعها بغض النظر عن طبيعة هؤلاء و أعمارهم الزمانية[٤] . ثم يجيء الانتحار الجماعي، الذي تمارسه جماعات كثيرة . وتسعى نحوه عقولهم الفاسدة فتعمل على تقنينه أو وجود أرضية وأسباب للقيام به[٥] . كاليأس من الأمراض، بجانب الخوف على الأرزاق والأقوات . وقد يتم ذلك كله بناء على الرهبة من المستقبل ألمهم أنه صار تعبيرا عن طقس من الطقوس ٠

من المؤسف له، أن بعض جماعات الانتحار الحديثة صارت تمارسه من خلال وسائل تعذيبية لا يشعر بها إلا المنتحر نفسه وقد لا يشعر بها ، كتناول السموم ذات التأثير القوى على جهاز المخ ، حيث تتم السكتة الدماغية . وتخرج الروح ، وبعضها يتخذ الصعق بالكهرباء وسيلة سريعة للانتحار ، واعتبر آخرون القفز بالطائرات أو الاصطدام بها ، أو القفز في الآبار العميقة والبحار المغرقة ، أو التردي من شاهق جبل ، أو تعمد السقوط في حفر عميقة، كل هذه ، وتلك مما يقوم به أصحاب الفكر الانتحاري داعين إليها ، ممارسيها تحت مزاعم كاذبة وأفكار تدل على ضلال في عقول قائليها ٠

مما سلف ، تبين أنها أفكار غير صحيحة تخالف شرائع الله جميعها، لأن النفس ملك لله ، وهو خالقها، وأنه أمر بحفظ حقوقها . ممارسة بما فيه رعايتها وصيانتها، وما يؤدي إلى الحياة الهادئة في مظهرها الأمثل . ويحقق النعيم في الدار الآخرة . تفضلا من الله تعالى رب العالمين ٠

---

(١) يدل على ذلك ما نطالعه على صدر الصفحات في المؤلفات المعنية بهذا الجانب، وكذلك الصحف اليومية والأسبوعية وغيرها ٠

(٢) وهذا النوع هو الشائع في المجتمعات الإنسانية بالنسبة لأنواع الانتحار، بغض النظر عن كيفية القيام به أو الصورة التي تم عليها ٠

(٣) وقد مارسه والدا ماهافيرا نفسه، حيث غاب عنهما ، فلما رجع إليهما وجدهما قد ماتا منتحرين عن طريق الجوع والعطش ، أو تقيد الحركة على السرير كما جاء في بعض الروايات التي سلف ذكرها ٠

(٤) كالحال مع عائلة زانفي التي ظهرت في الهند القديمة، راجع لموريس هيدسون، الانتحار الجماعي ، صـ ١٧٧ ٠

(٥) راجع هذه الأنواع وغيرها بتفاصيلها في الانتحار الجماعي ، صـ ١٧٧ / ٢٢٥

السابعة : ضرورة سيطرة القوى الروحية على الجسمية

اعتقد الجانتينيون أن الإنسان متى خلص من شوائب الأكدار الجسدية والنفسية استطاعت روحه التحرر من قيود الشهوة واللذة . كما تمكنت من إحراز النجاحات المتواصلة في كافة الميادين . ومن ثم تستطيع الغلبة على الآخر ، والتمكن من إلحاق الهزائم بالقوى الجسمانية الداخلية والخارجية جميعها. فإذا تحققت للروح الغلبة المطلقة استطاعت تولي القيادة كاملة. فيكون الجسم تحت إرادتها. وتظهر القيم العليا التي تنشدها هذه الروح في مسارها الأرقى[١] ٠

ويذهب البعض إلى أن الجانتينية هي التي أسست لمذهب "ا ليوجا " الذي يعتبر الرياضة الروحية طريقة الوحيد للخلاص. حيث رياضة النفس على الزهد ، ثم التحرر من قيود الشهوة . والسيطرة التامة على الغرائز من خلال تمارين بدنية تجعل المرء مسيطرا على أنفاسه بتغليب إرادته[٢]. بحيث يرتفع المرتاض عن المستوى الإنساني المادي العادي. وينغمس في سعادة علوية خاصة . حتى يفنى عن الخلائق . كما تتوارى نزعاته الحسية كلها[٣]، ومن ثم فهم يزعمون إمكانية ارتفاع المرتاض بها في الهواء كما يعتقدون إمكانية طيرانه فوق جميع الناس ، وحتى يتم ذلك فلابد له من قاعدة تقوم على أسس خمسة ٠

يقول " ول ديورانت " ألزم الجانتينيون كل واحد منهم بأن يأخذ على نفسه عهودا خمسة . هي : ألا يقتل كائنا حيا[٤] . وألا يكذب وألا يأخذ ما لم يعطه ، وأن يصون

---

(٢) جيرار هولمز: المدرسة الجينية وأهدافها الإنسانية ، صـ ١٥٣، ولهيفي:الديانات الهندية ، صـ ٣٢٥ ، ترجمة هناء صبحي ٠

(٢) ادوارد هيلفي: الديانات الهندية ، صـ ٣٢٧ ، ترجمة هناء صبحي ، ط. دار الفرسان سنة ١٩٨٧ ٠

(٣) بل قد يجلس الواحد منهم فترة من الزمان في وضع معين خاص وثابت، وقد يقف على قدم واحدة فترة من الزمان بنفس المستوى، والصورة من غيران يحرك طرفا من أطرافه ،وربما امتنع عن تناول الطعام والشراب، أو هما معا لفترة من الزمان طالت أو قصرت من غير إظهار التألم أو التأفف٠

(٤) والمؤسف له أنهم قتلوا كائنات حية كثيرة ، ابسطها هم أنفسهم، الذين فعلوا كل منكر، ومارسوا جميع أنواع المحرمات ، فقتلوا أنفسهم وقتلوا غيرهم أيضا ٠

عفته، وأن ينبذ استمتاعه بالأشياء الخارجية كلها وفي اعتقاداتهم أن اللذة الحسية خطيئة والمثل الأعلى أن تعاف روحه اللذة . وتستغني استغناء تاما عن التعلق بالأشياء الخارجية كلها [١] .

لكن ما الحال. إذا لم تتمكن القوى الروحية من السيطرة على الحسية، أو اللذائذ الجسمانية . هل يتحول الأمر إلى صراع لا يتوقف . وحينئذ لا يكون هناك وجود للفرد الجانتيني. أم ماذا يصنع . وهل ينسحب من أرض المعركة ويترك المواجهة إلى غير رجعة، ويتخلى عن الارتباط بهذا الفكر أم ماذا يفعل ؟ . هذه تساؤلات متواصلة تزحف إلى الميدان العقلي . ولكنها لا تجد إجابة واحدة ولو في أدنى صورة •

بيد أن البحث الدؤوب ، أخرج عدة محاولات لتقديم إجابات على ذات الأسئلة ، يقول " هداس " أن الجانتيني لا يولي اهتماما بالأسئلة التي يتم إلقاؤها عليه أو طرحها ناحيته ، بل لا يعبأ بها ، لأنه يراها غير جديرة بالاهتمام ، وإذا أجاب عليها ، فإنما يلجأ إلى الإيهام ، حتى صارت تلك المسائل معروفة عنهم ،كما أنهم لا يبحثون في المسائل بحثا عميقا، وإجاباتهم تكون دائما ناقصة[٢]، ومن كان ذلك شأنه فلا ينتظر منه أن يرتفع بفكره بعيدا عن موضع قدميه •

من المؤكد أن الاعتقادات التي قامت عليها الجانتينية، هي مجرد مسائل يؤدي تناولها إلى حيرة القارئ واضطرابه، ولكنه في كل الحالات يمكنه الحكم بأن هؤلاء كانوا أجسادا تحمل رؤوسا فارغة . تدعو إلى التكاسل . وتقرر البطالة ، كما تدفع لهدم المظاهر الحيوية التي جعلها الله تعالى سأريه في الكون جميعه . لأن الأرض التي أمر الله تعالى بإصلاحها وأعمارها ، هي ذاتها التي تجري فيها بعض المظاهر الحيوية •

وإلا ما كان أمر الاستخلاف من الله تعالى عليها قائما في النواحي المختلفة[٣]. من ثم ، فإن اعتقادهم بضرورة تعطيل الظاهر الحيوية عن العمل لا يقرهم عليه عقل سليم،

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الثاني . الجزء الأول ، صـ ٦٠ •

(٢) جوزيف هداس: الحركات الفكرية في الشرق القديم، صـ ٩٩ ، وراجع لجيرار: الشرق القديم/ صـ ٩٨ •

(٣) يدل على ذلك قوله تعالى : وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني اعلم ما لاتعلمون " سورة البقرة الآية ٣٠ ، ووجه الاستدلال بالآية هو اختيار الله لآدم وبنيه من بعده ليقوموا على عمارة الأرض مع القيام بأوجه الاستخلاف في الشرعية من كافة الجوانب التي أمر الله بها •

ولا الفطرة الخالية عن اللغو والعبث. بدليل انهم رفضهم تناول عسل النحل يكونوا قد عطلوا مسيرته لأن إذا لم يؤخذ منه القدر المسموح به فإن النحل والعسل لا يكون له معنى ولا هدف[١] .

وفوق ذلك . فإن النحل لن يعمل . بل يصاب بالموت المرض . فيفني النوع كله . أما الزعم بأن سحق الديدان والحشرات التي يخلقها الله تعالى في باطن التربة . فإنه يتم لإصلاحها حتى تكون التربة أكثر خصوبة .

وفوق ذلك . فإن تصفية الماء وتنقيته من الشوائب عادة صحية، كما هي شريعة إلهية ، أما أن يكون تركها لغرض واه . وهو احتمال وجود كائنات دقيقة فيها يخشى عليها من القتل والتدمير . فهذا قول السفهاء[٢]، لأنه غريب كل الغرابة عن جميع إفهام العقلاء ، كما يسم قائله بالعته والجنون . كما يصف أفعال هؤلاء وأقوالهم بالتناقض الصارخ مع التدني في الفكر والنتائج .

مما سلف ، اتضح أن الاعتقادات الجاتتينية فيها ضحالة فكرية ، أو تدفع لضرورة إحداث مقابلة مع بعض اعتقادات المدرسة اليوجية ، مما يجعل المرء يقرر ضرورة دراسة كل منهما على وجه الاستقلال لبيان من الذي أخذ تعاليم الثاني ، ولكن الذي يجب الالتفات إليه هو أن التعاليم الجاتتينية كانت أول أمرها شفوية، تلقى إليهم كما كان يفعل سقراط مع أتباعه ، ولذا ضاع أغلبها من صفحات التاريخ، ثم قام اتباع المذهب فيما بعد بكتابة هذه الاعتقادات[٣] . فوقع الاختلاط والتداخل الفكري بين ما تلقاه الجاتتينيون أول الأمر وما تم تدوينه في المراحل التالية وبخاصة الأكثر تأخرا وتأثرا .

---

(١) لقوله تعالى "وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون : سورة النحل ، الإتيان ٦٨/٦٩ .

(٢) والسفهاء لا قيمة لأقوالهم ، لأنهم في كل حالاتهم فقدوا قدرتهم على إقناع الآخرين بأنهم على صواب كما أن السفيه هو الذي يحكم العقلاء على تصرفاته بأنها غير مقبولة، لمخالفتها الأصول الشرعية، والقواعد الأخلاقية ، وفوق ذلك ، فالسفيه هو من يضع الأمور في غير مواضعها ، ولا يعبأ بشيء ، أو ينهض لعمل صحيح أو فكر مستقيم .

(٣) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته، حيث يظهر في هذه الأحوال التأثر الشديد بالفكر الآخر على أوسع نطاق .

بلا شك ، فإن هذا الأمر جعل اعتقاداتهم تختلط ببعض المعارف ، بل دفع إلى خلط الثقافة وهي الجانب المعرفي إلى ميدان العقيدة وهي الجانب اقلبي الإيماني، ومن ثم . صار الخلط المقصود . والاقتباس من الاعتقادات الأخرى . هو طابع ذات المدرسة والمذاهب التي نشأت على أرض الهند القديمة واستمرت فترات طويلة من الزمان ٠

في نفس الوقت. فإن هذا الاضطراب يحيل الفكرة الواضحة إلى غامضة مبهمة . لأن القاعدة الواحدة لن يكون لها وجود ثابت . كما أن طبيعة الأفكار الإنسانية غير المنضبطه بالشرع الإلهي استفادت بعضها من بعض . وانتقال هذه الاستفادات في مظاهر غير مقبولة وتعبر عنها صور يمكن وصفها بالهبوط والتدني ٠

تبقى كلمة تتعلق بالنتيجة المترتبة على اعتقاداتهم ، وهي أنهم كانوا صيحة سوء ونذير شؤم ، كما كانوا حجرا تم وضعه في أرض الهند ، لتقوم عليه جملة من العقائد الوثنية التي مازالت آثارها بادية حتى اليوم ٠

أهم مصادر الفصل الثالث

حسب ورودها بأسفل الصفحات

١ - القرآن الكريم

٢ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان .

٣ - صحيح الإمام مسلم

٤ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي الغزاليات في السمعيات .

٥ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي الغزاليات في الإلهيات .

٦ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي حبو الوليد في علم التوحيد .

٧ - الشيخ محمد منصور العقيدة الإلهية .

٨ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي نظرية السعادة في الفكر الإنساني .

٩ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي لماذا انتشر الإسلام ؟

١٠ - إدوارد فيكتور المعتقدات الدينية الكبرى في الهند القديمة ، ترجمة صبري صادق .

١١ - جوزيف هداس الحركات الفكرية في الشرق القديم . ترجمة عادل راضي .

١٢ - جوهان ميدراس الثقافات القديمة في الشرق الأوسط . ترجمة وفاء صبري .

١٣- هبرت أبيسون الفيزياء والميكروفيزيا ، ترجمة عماد فاضل

١٤- السيد الشريف الجرجاني شرح المواقف وعليه حاشية عبد الحكيم ، القناري .تحقيق د. سليمان دينا

١٥- الشيخ الرئيس ابن سينا الإشارات والتنبيهات .

١٦- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي الإلهيات عند ابن سينا .

١٧- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية .

١٨- هنري كابيه السلوكيات الإيجابية وآثارها الاجتماعية ، ترجمة حنان عبد الموجود .

١٩- جوزيف كاير المذاهب والاتجاهات في الشرق القديم . ترجمة ظافر بشر .
٢٠- جوزيف داير العقائد الهندية القديمة . ترجمة السيد لطف الله
٢١- جيمس جيرار الشرق القديم عقائده واتجاهاته الفكرية .
٢٢- الدكتور محمد الغزالي التفكير الإنساني أصوله ومستوياته .
٢٣- الدكتور محمد الغزالي أوراق منسية في النصوص الفلسفية .
٢٤- جوزيف أندريه هيل الحركة العاقلة في الشرق القديم . ترجمة وفاء صابر .
٢٥- موريس هونيكر الاتجاهات الفلسفية في شبه القارة الهندية . ترجمة وفاء صالح .
٢٦ جوزيف رنر حياة الحقائق . ترجمة زكريا فريد .
٢٧- الدكتور محمد زكي صبري نظريات في الأديان الهندية القديمة .
٢٨- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي الحثيث في المنطق الحديث .
٢٩- أندرية جيد المذاهب الفلسفية الكبرى في الهند ، ترجمة عادل خير الله .
٣٠- جيرار هولز المدرسة الجينية وأهدافها الإنسانية ، ترجمة حسن صبري .
٣١- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي قراءات في العقيدة وفلسفة العلم .
٣٢- ول ديورانت قصة الحضارة ، المجلد الثاني .
٣٣- الدكتور محمد الغزالي الفكر السياسي بين الغزالي والأنظمة الحديثة .




الفصل الرابع
آراؤهم الفلسفية

الفلسفة هي المرآة التي ينعكس عليها الإتجاه العقلي لآية أمة من الأمم . أو جماعة من الجماعات . لأنها المعيار الذي يقاس به تقدم الأمم من الناحية الحضارية على أساس أن الفلسفة هي الاستماع للآخر ، والاستفادة بما لديه من معارف ومنا فع، وملاحظة أوجه القصور مع العمل على معالجتها، ولذا اعتبرت في اللسان العربي مساوية للحكمة من حيث هي، أو هي متقاربة معها باعتبارها محبة الحكمة التي هي مراقبة ما يتعلق بوضع الشيء في موضعه[١] .

وإذا كانت الاعتقادات هي التي تبرز ناحيتها الصور القلبية من الجانب الإيماني ، باعتبار أن الإيمان محله القلب. فإن الفلسفة هي التي تكشف الجانب العقلي المعرفي ودوره في توظيف هذه المعارف لخدمة الدين نفسه ، وبناء عليه . فلا تكون العقيدة فلسفة. كما لا تكون الفلسفة عقيدة . لاختلاف الموضوع في كل منهما. بجانب التباين الشديد بالنسبة لطريقة التناول، ولا يمنع هذا من توافقهما في بعض النتائج على وجه إجمالي أو تفصيلي

بل أن العلاقة بين الفلسفة والاعتقادات قد تكون متباعدة إلى الحد الذي يوحي للقارئ بأنهما عدوان لا يجتمعان أبدا[٢]، وبخاصة متى اعتبرت مناهج العلم وليدة الفلسفة، واعتبرت العقائد ربيبة النصوص التي يتمسك بها أصحابها، كالحال مع العقائد الوثنية ، التي لم تنزل من جهة الله تعالى ، وإنما صاغها أصحابها، وسعوا لإلزام الآخرين بها، أو أصغي إليهم غيرهم فتمسكوا بما فيها ، ثم دافعوا عنها .

بيد أنه لما كانت الفلسفة نتائج البحث العقلي. والعقائد هي الموجه الأول للسلوكيات وبها تقاس نتائج الاتجاه القلبي ، فإن ظواهر الاختلاف بينهما عديدة. فمثلا

---

(١) والذي أقف عليه أن المباحث الفلسفية التي جاءت من غير المسلمين يمكن تسميتها بما ذكره أصحابها، إنما ما يتعلق بالفكر الإسلامي فأرى ضرورة إطلاق اسم الحكمة عليه ، لأنها تسمية شرعية ومباحثها إلهية، راجع كتابنا- المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ، وكتابنا ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب .

(٢) وقد اشتهرت هذه العداوة بين الدين والعلم في العصور الوسطى، ثم امتدت إلى ما بعد ذلك، وكان الذي يبدأ بها هم أصحاب الاعتقادات الوثنية ، ثم انقلب الحال في القرن الثامن عشر على يد أصحاب المذهب التقوي في أوربا، راجع كتابنا: خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ، وكتابنا قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة .

الفلسفات غير الإسلامية تعتبر قضية وجود الله تعالى مسألة معرفية[١] لا عقيدة إيمانية قلبية، وبالتالي ، ينظرون إليه تعالى نظرة الغائب الذي يبحثون عنه. فإن تمكنوا من الوصول إليه ، طبقا لمعارفهم . منحوه بعض الصفات التي راقت لهم. وإن لم يتمكنوا منه أعلنوا رفضهم لفكرة وجوده •

في نفس الوقت . فإن العديد من أصحاب الاعتقادات المختلفة اعتبروا مسألة الإله قضية دينية. ولم يحاولوا الاستدلال عليها. وإنما أخذوها عن طريق التقليد مهما كانت الأسباب المحمولة عليها . وفي نهاية المطاف تكاثرت عليهم الآلهة. وبلغ من تعددها وقوعها في دائرة الصراع الذي ينتهي غالبا بانتصار واحد أو جماعة منها على غيرهم. وعرف ذلك لديهم باسم صراع الآلهة[٢]. فكانت بداية الكارثة التي ألهبت ظهر القضايا والمسائل الإعتقادية ، كالحال مع الاعتقادات اليونانية والرومانية بجانب الآشورية والكلتيه، بل والهندية القديمة ثم الفارسية. غيرها •

صحيح حدثت حروب ظهرت نيرانها مشتعلة بين الفلسفة والاعتقادات الدينية. في الشرق القديم على يد الكهنة الذين اعتبروا أنفسهم أصحاب امتيازات خاصة، ورجال اللاهوت في الغرب الذين اعتقدوا أنهم فوق الجميع، وكان الفريق الآخر أصحاب العلم التجريبي الذين رأوا حقائق التجربة الماثلة أمامهم تخالف ما يردده الكهنة ورجال اللاهوت معا. وتمسك الكهنة بوصفهم الديني، ودورهم في حماية السلطة الحاكمة[٢] .

أو على الأقل اعتبروا أنفسهم أصحاب سلطان يمكنهم من إحداث إخلالات عديدة بخصومهم. وإنزال العقوبات المتنوعة بهم. بدليل أنهم سارعوا إلى إصدار الاحكام التي

---

(٣) راجع كتابنا: تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية،حيث أكدت أن هذه الأفكار غير صحيحة، لأن وجود الله تعالى أمر فطري بجانب كونها عقيدة إيمانية، أما طريق الاستدلال عليها بعد الفطرة القلبية، فيمكن أن تكون معرفية، والفرق بين الاتجاهين واضح •

(١) راجع كتابنا – أثر الوثنية في اليهودية ، صـ ١٩٧وما بعدها، وكتابنا حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان، صـ ١٧٥وكتابنا تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية، صـ ٢٤٤ وما بعدها •

(٢) راجع هذه المسألة في كتابنا: قضايا حديثة في الفلسفة الحديثة، صـ ٩٨، حيث شرحت هناك أسباب هذا التلاقي الذي يقوم كل طرف فيه بحماية الآخر دون اعتبار لشيء آخر •

تخرج هؤلاء العلماء عن زمرة أهل الإيمان، مما جعل الجميع ينفر منهم ويتخلى عنهم. بل يحاربهم ويعاديهم . ويسعى للتخلص منهم .

لم يصمت أهل العلم التجريبي أمام هذه الاتهامات. ولم يوافقوا على الوقوف في دوائر الإلحاد العلمي. وإنما سارعوا إلى إصدار بيانات عديدة تفيد تمسكهم بالدين الذي يقول بـه الكتب والأسفار اللاهوتية [١] ، ولكنهم قد يختلفون مع الأباء في تفسيراتهم لهذه الكتب. أو يختلفون معهم حول مدلولات ذات الشروح التي اعتبروها في الأصل مخالفة لقواعد المنهج العلمي. ولا تتوافق مع الأبحاث العلمية التجريبية. وأن الكهنة ليسوا من ذوي المهارات العلمية حتى يحكموا فيها ، كما أنهم ليسوا كذلك من أصحاب الإختصاص حتى تؤخذ آراؤهم في هذه المسائل[٢] . ولا مانع من مراجعة القضايا العلمية. وكذلك إعادة النظر في شروح الآباء من رجال اللاهوت .

ولما كانت السلطات السياسية والأجهزة التنفيذية تقف مع من يؤازرها، وكان الكهنة هم الذين يقومون بهذه المؤازرة على الوجه الأكمل، فقد سارعت هذه السلطة السياسية إلى تنفيذ أراء رجال اللاهوت بإدانة البحث العلمي وتجريمه، ومعاقبة القائمين عليه ـ بل وتنفيذ العقوبات التي انتهت إليها السلطات الدينية بأسرع وجه، بدليل أنها أحرقت العلماء[٣]، وضيقت على الآخرين، ثم وضعت القوانين التي تقيد البحث العلمي، وعرفت بإسم قوانين محاكم التفتيش .

بيد أنه كلما كانت القيادة السياسية متهالكة، أو غير واعية لمهامها، فإنها تسعى إلى من يساندها ويدعم مواقفها . بغض النظر عن طبيعة هذا الذي يساند واتجاهاته. المهم أن يكون عينا لها لا عبنا عليها[٤] . ومن ثم يسقط الحكم وتتهاوى أركانه. فلا الحق

---

(١) الأسفار اللاهوتية مصطلح يقصد به أسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد عند اليهود والمسيحيين، ويقصد به كافة المؤلفات التي سجلها أباء اللاهوت وسميت بهم أو نسبت إليهم، راجع كتابنا: وميض النصرانية بين غيوم المسيحية، صـ ٤٧ وما بعدها .

(٢) ومع أن هذه الدفوعات قد تكون لها ظواهر صحيحة، لكن القائلين بها نالهم بسببها العذاب الأكبر أثناء محاكم التفتيش، راجع كتابنا: خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة، وكتابنا: قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة .

(٣) كالحال مع جاليليو الذي أحرق، وبورنو الذي أعدم، وكوبرنيكوس الذي حكم عليه بالهرطقة ثم الإعدام .

(٤) ومن آفات النظم السياسية الاستناد إلى أصحاب الهوى والأطماع الشخصية الذين قد يتخفون في أزياء الناصحين وأثواب الوطنية و الأعمال الخيرية ، إلى غير ذلك .

يصان. ولا العدل يقام. ولا الرجل المناسب يعرفه المكان المناسب. ومن هنا تكون الكارثة التي تقع على الجميع وتكون ضحاياها الأوائل هم العلماء والسلطة الحاكمة أيضا . ثم يأتي بعدهم باقي الرعية .

والبادئ لأي دارس في الأفكار الجانتينية ، يراها قد اختلطت بالاعتقادات الدينية والمبادئ المعرفية[١] ، ومرجع ذلك إلى الغموض الذي أحاط بالفترة الأولى التي كان التأثير الواضح فيها للمذاهب والأفكار. بل والاعتقادات المختلفة. ومن هنا ظهر العديد من الصعوبات التي تواجه الباحث في الأفكار الهندية القديمة .

من المؤكد أن محاولة اقتناص الحقيقة من بين سطور الماضي البعيد مهمة صعبة ، إن لم تكن مستحيلة ، متى كان المراد بيان موقف هؤلاء من الطبيعة والوجود، والإنسان، ثم القيم والأخلاق، لأن ذلك يتطلب المزيد من البحث المتواصل بجانب الصبر الدؤب، حتى يبلغ المرء غايته. وبخاصة أن المؤلفات التي يمكن الوقوف عليها ما تزال طاوية في لغة مضى عليها قرون عديدة . فصارت مصطلحاتها بعيدة، ونتائجها تحتاج جهدا طويلا لفك رموزها والوقوف عليها، لكني سأحاول بحث الجانب الفلسفي من خلال ما يلي :

١ - نظرية الوجود. أو العالم الطبيعي .

٢ - نظرية المعرفة : المعارف الإنسانية .

٣ - نظرية القيم : الأخلاق والآداب والسلوك[٢] .

ونظرا لكون هذه الجوانب تمثل الفكر الإنساني الذي ساد عقليات أفراد ذات الطائفة أو المذهب. فمن الواجب الإلحاح إلى أن العناية بهم لن تكون قاصرة على مجرد التناول وإنما لا بد من التعرض للناحية التطبيقية، حتى يمكن إصدار حكم يتعلق بفلسفتهم واتجاهاتهم الفكرية التي ظهر عنها ، مع ملاحظة أن هناك جوانب أخرى تتعلق بالآداب والفنون ، لكني قد لا أتعرض لها في هذه المباحث نظرا لانفصال موضع الفلسفة

---

(١) الفرق أن الاعتقادات الدينية يكون محلها القلب، أما المعرفية فمحلها العقل، وكل منهما له اتجاهاته، راجع كتابنا- الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي، صـ ٦٤٧، ط. العاشرة .

(٢) هذا التقسيم لمباحث الفلسفة ونظرياتها هو الذي يعني به الدارسون للفلسفة غير الإسلامية، أما الإسلامية فمباحثها هي الله والعالم والإنسان، راجع كتابنا: عوامل تقدم الفلسفة الإسلامية في المشرق وتأخرها في المغرب .

بالمعنى الخاص[١] عن جملة الآداب والفنون بالمعنى العام .

أولا : موقفهم من العالم الطبيعي ـ نظرية الوجود

ظهرت أفكار عديدة تناولت البحث في أصل العالم الطبيعي، أو المادة التي تكون منها هذا الوجود، ثم انتهت ذات الأفكار إلى سيادة جانب على آخر، بعد أن حددت العناصر التي زعموا أنها الوجود[٢] . من المادة أو الروح، أو ما يجمع بينهما إلى غير ذلك من الوجوه. والمتابع للحركة الفكرية القديمة يرى وقوف هذه المذاهب على العناصر التي انتسب إليها أصحاب كل عنصر. وهاك جملتها :

أ - أصحاب المذهب الواحدي

وهم الذين يعتقدون أن أصل العالم شيء واحد، أو مبدأ واحد منه أبتدأ. ومن خلاله يستمر. ولا يحتاج لشيء خلف هذا المبدأ. حيث لا يعتقدون وجود إله خالق مدبر. قادر، حكيم، لكنهم افترقوا إلى فريقين[٣] :

أحدهما أصحاب المذهب الواحد المادي، وهم الذين تمسكوا بأن العالم الطبيعي مكون من عنصر واحد هو المادة، ثم اختلفوا في تحديد نوع المادة وطبيعة العنصر ، أهو الماء أم التراب، وهل هو النار أم الهواء[٤]، وهم في ذات الطريق كلما تبنوا رأيا هدموه. ومتى حاولوا التأكيد على شيء سارعوا فشككوا فيه، وأكثروا من طعنهم عليه حتى أزالوه. أو ظنوا أنهم أتوا بالمهمة على أتم وجه وأكمله.

ثانيهما أصحاب المذهب الواحد غير المادي، وهم الذين اعتقدوا أن العالم الطبيعي أصله واحد غير مادي، ثم اختلفوا ، أهو روحاني خالص، أم هوائي، أم غير

---

(١) هذا الانفصال البحثي لا يعني اعتبار كل منهما مخالفا للآخر ، وإلا كان بينهما عموم وخصوص مطلق، لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا- الفلسفة العامة صـ ٤٤٨ وما بعدها .

(٢) راجع للدكتور توفيق الطويل: أسس الفلسفة، وكتابنا: التفلسف بواعثه ودوافعه، فقد تناولت فيه هذه الجوانب بشيء من التفصيل .

(٣) هذا الافتراق يكشف عن طبيعة العقلية التي حاولت بحث ذات المسائل، وهو مرآة كاشفة لما يكون عليه العقل الذي يبتعد تماما عن وحي الله وهدى السماء .

(٤) عرف هؤلاء في التاريخ الفلسفي باسم الطبيعيين الأوليين، لأنهم ربطوا الوجود بجوانب مادية خالصة لا علاقة لها بالهدى الإلهي .

محـدود[١] . فـزعماء الاتجـاه الـروحاني قـالوا أن العنصـر الـروحاني يتحرك باتجاهات مخـتلفة فتنشأ عن كل منها عناصر جديدة لم تكن موجودة بالأصل الأول[٢] . وهذا الاتجاه الروحاني في تفسير نشأة الكون لم يسلم من النقد حتى هلكت كافة استدلالاتهم. وسقطت جميع أوجه الاحتجاج بها .

ب - أصحاب المذهب الثنائي

وهم الذين يفسرون نشأة العالم الطبيعي على أساس قيامه في أصلين أو عنصرين أساسـين[٣] . ثـم اختلفوا بعد ذلك في تحديد نوع وطبيعة هذين الأصليين أو العنصرين ، أهمـا المـادة والروح. أم هما المادة واللا متعين أو اللامحدود ، كما تباينوا في نوعية التعرف عـلى المادة لدى القائلين بها . وكذلك دورها في هذه المنظومة الطبيعية. كما تباعدوا بشأن اللا متعين ، هل هو لا متعين في ذاتـه. أم في الآثار المرتبة عليه. إلى غير ذلك من الوجوه .

جـ - أصحاب المذهب متعدد العناصر[٤]

وهـم الذيـن اعـتقدوا أن العـالم الطبـيعي مكون من عناصر متعددة. حيث رفضوا فكـرة المذهب الواحد تماما نظرا لما فيه من عيوب. ولأن عليه العديد من الانتقادات التي تذهب به. كما أنكروا فكرة الثنائية أيضا. وقرروا أن تعدد العناصر هو الرأي الذي يمكن قبوله. غير أنهم لم يتمكنوا من تحديد عدد العناصر التي قالوا بها ولا طبيعتها .

بدلـيل أنهـم تـارة يقولـون أن العناصـر ثلاثة هي المادة. والروح. والعقل. وتارة أخـرى يقولـون أنهـا أربعـة هـي المـادة . ثم الروح. والعقل. وأخيرا يأتي دور اللا متعين. وفـريق أخـير ذكر غير ذلك. ومع هذا. فشلوا جميعها في تحديد طبيعة هذه العناصر ودور

---

(١) فكرة الواحد غير المحدود تظهر في الفلسفة التاوية، حيث يعتقدون أن أصل العالم واحد غير محدود، يقولـون أنـه غير متناه وغير معلوم، ولا يمكن وصفه، راجع كتابنا: أثر الوثنية في اليهودية، وللدكتور السيد عبد البديع موافي: عقيدة الألوهية في الأديان الوضعية ، دكتوراه بكلية البنات، جامعة عين شمس، قسم الفلسفة .

(٢) راجـع كتابنا : ريـاض الأشـواق فـي الميتافيزيقيا والاخـلاق، صـ ٤٧٧ ومـا بعدهـا ، الطبعة السابعة .

(٣) تحديد أصحاب المذهب الثاني في الفكر الإنساني يحتاج مجهودات كثيرة، لأن الثنائية تعددت أنواعها ومظاهرها بجانب أسباب القول بها .

(٤) هذا المذهب يجمع بين المذاهب السابقة في جميع المظاهر .

كل عنصر منها في كيفية نشأة العالم الطبيعي. وهو ما يفسر فقدان هذه الأفكار الموضوعية والأصول العلمية، الأسس الصحيحة التي يمكن أن يؤخذ بها .

ونظرا لكثرة هذه الآراء وتناقضها. فقد مال البعض إلى الأساطير يأخذون بها، ويسعون إلى تفسير أو تقديم تصورهم عن الكون ونشأة العالم الطبيعي من خلالها[١]. وكلما أكثر الناس من ميل للأساطير ، شاع بينهم الفكر الأسطوري، حتى يغطى سماء حياتهم الفكرية جميعها . وحينئذ لا يرون شيئا أخر وراء ذلك. ومن هنا يحسن عرض موقف الجانتينية من العالم الطبيعي أو تفسيرهم لنشأة الوجود ، حيث يقوم على ما يلي :

١ - الثنائية المادية والروحية

يعتقد الجانتينيون أن العالم الطبيعي مكون من ثنائية مزدوجة ،لا يمكن الفصل بين عنصريها، المادة والروح، ولم يعتقدوا أن العالم مادي فقط، لأنهم زعموا أن كل كائن آيا كان وضعه وصورته . إنما هو متكون من روح سارية . ومادة معبرة عنه كمظهر له. وقالوا في كل شيء مادة وروح حتى الأحجار الأشجار والمعارف الإنسانية فإنها جميعا تجري فيها روح كامنة غير منظورة[٢]، ومن هذه الثنائية المزدوجة نشأ العالم الطبيعي، وبها يفسرون طبيعة العالم الطبيعي أيضا، بل نشأة الوجود على كل النواحي .

بيد أنهم اختلفوا في دور العقل ومكانته بالنسبة لهذه الثنائية، فذهب فريق منهم إلى ضرورة التفريق بين العقل والمادة والروح، وذهب فريق آخر إلى ضرورة تلاقي هذه العناصر جميعها . فالعقل يوجد في الكائنات العاقلة مع العنصرين الأساسين - المادة والروح- ولا يوجد في الكائنات غير العاقلة سوى المادة والروح فقط .

ومع هذا فهم لم يتمكنوا من وضع جدول علمي دقيق يفسرون به هذه المسائل التي يتمثل فيها الكون بجزئياته ، وهنا نتساءل أيهما الذي يسبق الآخر، هل المادة هي التي تسبق الروح في الوجود، أم أن الروح هي التي تسبق المادة في الوجود؟ [٣] ، والإجابة على

---

(١) راجع كتابنا: خطر الأسطورة على الفكر الإنساني، صـ ١٧و١٨ ، حيث أن الأساطير لا تحمل صورة حقيقية، ولا تعبر عن فكر يمكن قبوله بقدر ما هي دليل على وهن عقول القائلين بها .

(٢) جيرار هولمز:المدرسة الجينية وأهدافها الإنسانية، صـ ١٧٥، وراجع لول ديورانت : قصة الحضارة، المجلد الثاني،جـ ٣، صـ٦٠

(٣) هذه الأسئلة توجد في العقل، كما يسعى إليها الوجدان، ولذا فالقسمة العقلية تستلزمها من كافة النواحي، مادام لا يوجد فريق ثالث، أو فرصة للاختيار بين أكثر من عنصرين .

أي واحد منهما لا تكون مفيدة إلا إذا أخذت بعين الاعتبار السؤال الثاني ، أما لماذا ؟ فلما يلي : -

١ - إن المصادر التاريخية التي أمكن الوقوف عليها معبرة عن الفكر الجانتيني الفلسفي. تركز في بعضها على المادة وحدها. حتى أن الناظر إليها قد يظن أنها الوحيدة. ومن ثم قالوا أن الفلسفة الجانتينية مادية خالصة. وأطلقوا عليها اسم نظرية " المهايراتان" [١] ومعناها " المادة الخالدة ". التي هي أساس العالم. وعليها نشأ الكون. وفيها تقع التحورات والتبادل يتم عليه في الأجزاء والتركيبات[٢]. إلى غير ذلك. مما هو متعلق بنظرية الوجود أو العالم الطبيعي.

وقد ركز آخرون على أن الروح وحدها هي الأصل الذي نشأ عنه الكون. واعتقدوا قيام العالم الطبيعي عليها. ومن ثم سارعوا إلى إطلاق اسم نظرية " الباراماتان". أو "الروح السامية" عليها[٣] وغرضهم من ذلك بيان أن أصل الوجود هو الروح لا المادة . وبذلك يقف أصحاب هذا الاتجاه في طريق معاكس تماما لأصحاب النظرية السابقة[٤] .

على أن حركة الروح عندهم تنطلق من المبدأ الأول دون احتياج إلى غيرها. وفي حالة تكاثفها وتلاقيها. تحدث عوالم جديدة متعددة. وبناء عليه. فالثنائية المراده هنا ليست منحصرة في عنصرين. إنما في عنصر يقوم بحركتين متضادتين. كل منهما تسير في اتجاه بعينه، وتسعى إليه بكل قوة. ثم تكمل دور الأخرى .

---

(١) ادوارد هيلفي: الديانات الهندية . صـ ٣٩١. حيث عرض هذا الجانب في الفكر القديم، وذكر الدوافع التي قام عليها. كما وجه انتقادات متعددة إلى هذه المسائل في أشكالها المختلفة .

(٢) عملية وقوع التحورات المتبدلة في الفكر الفلسفي تجد لها صدى واسعا، لكنها تحتاج إعادة نظر وخاصة أنها ترتبط بعنصر ثابت وبحث محدد في نشأة الكون، وهو أمر غيبي ليس للعقل مجال فيه حتى يصدر أمرا بشأنه يكون مقبولا، لأن مسائل الغيب لا يعلمها إلا الله جل علاه .

(٣) جيرار هولمز: المدرسة الجينية، صـ ١٧٧ ،و راجع لول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الثاني، جـ ٣ ، صـ ٦١ .

(٤) وفي الغالب الأعم تظهر آراء تكون بمثابة رد الفعل ، أو رجع الصدى للرأي السابق، ومكن ثم فإن قيامه كرأي جديد لا بد أن يكون على الأسس والقواعد التي انبنى عليها الرأي السابق، لكنه يأخذ جانبا جديدا، قد يتسم بالموضوعية والجدة، وقد يكون مجرد رجع صدى، أو صورة باهتة لا تدعمها أدلة، ولا تنهض لها قواعد، وذلك من مشكلات الذين يعتقدون في أنفسهم حرية الفكر، فإذا نبههم أحد إلى أخطائهم تصايحوا في وجهه، وتعادوا عليه، وحاولوا إرهابه باسم الفكر والبحث العلمي وما هم إلا غوغاء، يمارسون أنواعا من الفساد الفكري في كافة أشكاله ومظاهره .

بدليل أنهم في النظرية الأولى اعتبروا المادة ذات اتجاه تنازلي وآخر تصاعدي، وكذلك الحال مع الروح [١] . فهم بهذا يعتقدون أن الكون قد نشأ وحده دون احتياج لخالق عظيم. له القدرة التامة بجانب الإرادة الشاملة والعلم المحيط تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. كما يعتقدون أن العالم هو الطبيعة. أو هو ابنها، وهي أمة، حتى وقعوا في التناقضات العجيبة. إذ كيف يكون خالقا ومخلوقا في نفس الوقت ، مع أن العالم لا يملك إرادة. وليست له حرية. بل يفتقد العلم في أدنى صوره. وهؤلاء هم الضلال المبين . لكفرهم بالله رب العالمين ٠

غير أن الدراسة المتأنية تلزم الباحث بضرورة عرض هذه الثنائية من خلال المصادر التي صورتها تصورا دقيقا بالشكل الذي ظهر في صورة واضحة داخل المصادر التي نقلت فلسفتهم الخاصة. وتحدثت عن أفكارهم . كما استطاعت رسم آدابهم وفنونهم، وإلا كان البحث بعيدا عن التوثيق العلمي ، مخالفا لمنهج البحث الدقيق ، واعتبرت النتائج هي الأخرى بعيدة تماما عن المقدمات ، ومنفصلة عنها من كافة الاتجاهات ٠

طبيعة نظرية المهايراتان - المادة الخالدة

أ - عرض الفكرة

تقوم هذه النظرية "المهايراتان". أو " المادة الخالدة"[٢] على أن العالم الذي يمكن الحكم عليه بالوجود الأصلي ، وهو ذاته الذي نشاهده في حياتنا، وندركه بحواسنا، ما هو إلا المادة الخالدة في شكل من أشكالها، أو صورة من صورها، أو حتى مظهر من مظاهرها التي لا تختلف كثيرا عن الأصول العامة المتفق عليها بين أهل العلم والفكر التي انطلقت من نقطة أخذت في الانطلاق والتحول الأزلي الأبدي ٠

وعن طريق التحولات المستمرة في المادة ، تظهر سلوكيات بينية ، يمكن أن يعبر عنها بالروح السيارة التي لا تلبث أن تأخذ في التطور حتى تصير أرواحا مستقلة ،

---

(١) راجع كتابنا: التفلسف، صـ ٢٧٨، وكتابنا: خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة، ففي كل منهما بيان محور حول هذه الأفكار ٠

(٢) وهو قريب من نظرية الكارمان، بل ذهب البعض إلى أنهما شيء واحد، والاختلاف راجع للترجمة فقط، راجع لول ديورانت: قصة الحضارة ، المجلد الثاني، جـ ٣ ، صـ ٦٣٨ وما بعدها ٠

ينشأ عنها عالم خاص اسمه عالم الأرواح، أصله وأساسه هو تحولات المادة وحركاتها ومظاهرها، وهو لا ينفصل عنها. بل يمكن أن يعود إليها، ويتحول من عالم روحي إلى شكل مادي كما كان الأصل الذي قام عليه ،كما أن هذه المادة المتحولة إلى روح يمكنها أن تعود سيرتها الأولى، حتى تصير مادة جامدة أصلية. كما كانت من قبل. لكنها لا تكون على الدوام في حال واحدة، وإنما تظل منطلقة بين الاتجاهين- المادية الخالصة والروحية المتحولة – تنازليا تارة . وتصاعديا تارة أخرى[١] .

وخلال تلك العمليات التبادلية تنشأ عوالم جديدة تتسم بالتعدد والارتباط الدائم مع الأصول العامة[٢] . وفي ذات الوقت، لا يمكنها الانفصال عن الأسس التي قامت عليها، ويصفون بها المبدأين الأساسين اللذين يرتدان إلى أصل واحد هو نظرية المادة الخالدة، أو المهايراتان .

ولا شك أن هذه الأفكار هي ذاتها أيضا عين التناسخ الروحي الذي سعوا إلى تأكيده مرات عديدة، واستمروا على القول به لا ينفصلون عنه، على أساس أنه جزء من التراث الهندي القديم، بل يدخل في التراث الشرقي والغربي أبان مرحلة فكرية امتدت حقبة طويلة من الزمان. ومازالت أصداؤها تتردد في المجتمعات الإلحادية بوجه عام، وينقلها الأفراد في بعض التجمعات الإسلامية من غير فهم دقيق لما تنطوي عليه من آثار ضارة[٣] وأخطار من الصعب معالجة ما يترتب عليها .

---

(١) راجع لانطوان هافير- الفلسفات الهندية القديمة ، صـ ١١٧، ترجمة راغب زهدي .

(٢) وهذا الفهم الغريب في الفكر الهندي القديم القائم على القول بتطور المادة من ذاتها، وإنشائها لعوالم عديدة من تلقاء نفسها، هو ذاته الذي يردده الطبيعيون منذ وقت قريب، بل اعتبره الوضعيون صورة للعلم الحديث، وتناسوا أن هذه الأفكار ليست قابلة للتطبيق العملي حسب قوانينهم، يستوي في ذلك أصحاب الوضعية المنطقية الذين يهتمون بسلامة العبارات والقضايا على الناحية المنطقية في صورها اللغوية أو الواقعية، ويشاركهم أصحاب الوضعية الطبيعية الذين يسارعون إلى التمسك بالقضايا التجريبية، ويعتقدن أن كل فكرة لا يمكن التصديق بها ، إلا إذا كانت قابلة للتجربة العلمية المتكررة عليها ، وهم في ذلك واهون ، راجع كتابنا : الغزاليات في الإلهيات ، أثناء مناقشة هذه الآراء وبيان فسادها، وكتابنا الوضعية بين المعقول واللامعقول عند مناقشة الأفكار الوضعية .

(٣) هذه الآثار تنعكس على العقيدة والقيم والأخلاق، وتظهر أشكالها السلبية في كل مظاهر الحياة فتهددها بما لا يمكن إصلاح مضاره .

غير أن هذه التحولات التي تجيء مع المادة تظل آخذة بـعناقها ، تمر معها الدورة الكاملـة، إذ يمكـن أن تتحول إلى روح، ثم تتحول الروح إلى مادة جامدة أصلية، كما كانت مـن قـبل. ومـن ثم أمكن القول بأن هذه النظرية لا تقدم جديدا في المجال الفكري. كما ليس من السهل الاعتماد عليها في تفسير نشأة العالم الطبيعي. أما لماذا؟، فلأنها تماثل ما ظهـر لدى اليونانيين القدماء قبل ظهور الفلسفة الطبيعية. حيث كانوا يعتقدون أن المادة الجامدة هي أصل الكون. ومنها نشأ العالم الطبيعي عن طريق التحولات الذاتية التي تتم في ذات المادة، وتنشأ عنها عمليات الخلق المتوالية[1] .

إلا أن أصحاب الفكـر المـادي اليـوناني في المـراحل الطبيعـية الأولى مـن التفكير الفلسـفي، لم تكن فكرة التناسخ الروحي قد برزت فيهم مع ظهور فكرة التناسخ التحولي من المادة إلى الروح. وبناء عليه، تكون عملية الاقتباس واضحة كما أن مظاهرها لا تدعمها شواهد بارزة، أو أدلة دقيقة. نظرا لاختلاف الفكرتين - المهايراتان والتناسخ التحولي - من حيـث النـتائج المترتـبة علـيها، ومـا لم يقم عندنا على أدلة شرعية، فلا يمكن قبوله من الناحـية الإعـتقادية، كمـا أن الاعتماد عليه من الناحية المعرفية فيه الكثير من القصور، فضلا عن توقف العقل فيه، نظرا لعدم موافقته صريح المعقول .

ب - مناقشتها

الواضـح أن نظـرية المهايراتان أو المادة الخالدة - قـد عبرت عن المنطقة الفكرية في الجانب الفلسفي لهؤلاء الهنود القدماء. ولجماعة بعينها. لكنها فشلت في إقناع المطالع لهـا بأنهـا ذات جـدوى أو تحمل أفكارا فلسفية فيها شيء من الجدة والابتكار[2] . أما لماذا؟ فلما يلي : -

١ - أنها قامت على اعتبار المادة هي الفاعل الحقيقي، بينما المادة مخلوقة لله رب العـالمين، وهـي ضمن قائمة طويلة من المخلوقات جاءت فيها السببية العادية التي لا يمكن للعقـل السـليم إلا أن بهـذه العلاقـة بـين الخـالق العظيم وكافة الموجودات المشاهدة وغير

---

(١) راجع لأنطوان هافير- الفلسفات الهندية القديمة، صـ ١١٧، ترجمة راغب زهدي .
(٢) لأن الأفكار التي لا تحمل قيما جديدة لا يمكن اعتبارها فلسفة مقبولة، لأن القاعدة المعمول بها هي ضرورة وجود نتائج إيجابية لأي فكر يمكن قبوله .

المشاهدة. ومنها المادة لقوله تعالى " ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل " [١] . فالآية الكريمة دلت على وجود الله تعالى. كما نقلت العقل والقلب لميدان الوحدانية الحقه . حيث لا إله إلا الله، ثم نبهت إلى أنه جل شأنه خالق كل شيء. والقادر عليه في كل صورة . ومن ثم فهو الحقيق بأن يتوجه الخلائق إليه وحده بالعبادة الصحيحة بعد العقيدة السليمة. وأن يكونوا جميعا مخلصين لله كما أمر.

٢ - أنها أحالت الأسباب إلى بعضها، من خلال علاقة تلازمية عقلية ولم تحلها إلى الله. عز وجل. فكفروا به جل شأنه، وسجلوا على أنفسهم أنهم من القوم الكافرين، كما طعنوا على العقل وأحكامه الواضحة[٢]، لأنه ذاته مقر بوجود الله تعالى معترف به، واثق بأنه لا إله سواه . بدليل أنه وحده الذي يرجع إليه وأنها في الشدائد كلها ، حتى وان تناساه أصحاب العقول الملحدة في السراء. قال تعالى" وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا " [٣] .

٣ - أنها تجاهلت الأصول العامة، وأخفقت في التعرف على إمكانياتها الذاتية، حين دخلت ميدان الغيب دون أن يكون لديها وسيلة البحث فيه، أو التعرف عليه، بجانب أنها أهملت خبر السماء فيما يتعلق بالخالق العظيم جل علاه، من صفات الجمال والكمال والجلال والإكرام، وكيف لها أن تعرفه وأصحابها في الأصل قد ضلوا واضلوا، ثم ساروا في طريق الابتعاد عن الله تعالى بكل ما يملكون[٤] ، فحق فيهم وأمثالهم قول الله تعالى ومن

---

(١) سورة الإنعام، الآية ١٠٢ .

(٢) ومن أحكام العقل الإقرار بوجود الواجب ، وهو ثابت الوجود ، الذي لا يقبل العدم أبدا، وهو الله سبحانه وتعالى، ثم الاعتراف بالمستحيل، وأنه المعدوم الذي لا يقبل الوجود أبدا ، وهو شريك الباري جل علاه، ثم تأتي دور الممكن - الجائز - وهو الذي يقبل الوجود تارة والعدم أخرى، فإذا وجد كان وجوده من غيره، وإذا عدم كان عدمه من غيره، وبالتالي فهذا الممكن هو العالم بكل ما فيه سواء المشاهد منه أو الغائب، والملاحدة خالفوا قواعد العقل وخرجوا على أحكامه .

(٣) سورة الإسراء الآية ٦٧ .

(٤) وهذا الابتعاد واقع باختيارهم، ولذا فهم يحاسبون عليه من باب حرية الإرادة التي يعطونها لأنفسهم ويجعلونها من أمورهم الذاتية .

أعـرض عـن ذكـري فـإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقي[١] .

٤ - أنهـا وقعت في التـناقض مـن حيـث اعتـبارها المادة فاعلا لنفسها وللكائنات الأخـرى، ممـا يستوجب تقدمها على نفسها باعتبارها الفاعل أو الأجزاء ، ثم تأخرها عن نفسـها أيضا باعتبارها المفعول[٢] ولا يقول بذلك عاقل أبدا. لأن الجمع بين المتناقضين في وقـت واحـد. ومـن الجهـة الواحـدة بـذات المكان الواحد محال، ولا يقر به واحد من ذوي العقول الصحيحة. أو الفطرة السليمة .

نظرية " الباراماتان" الروح السيارة

أ - عرض الفكرة

مـؤدي هذه النظرية هو أن الأرواح التي كانت غير مرنية، ولا قادرة على الحركة، في وقـت مـن الأوقات سمح لها بالانطلاق المتواصل، بغية الحياة المستقلة الظاهرة، ونظرا لاحتكاكها المستمر ببعضها، ورغبتها هي الأخرى في أن تكون لها مظاهر مستقلة، أو معبرات سـلوكية، فقـد تكاثفـت مـع بعضـها، وظـل هـذا التكاثف يتزايد حتى نتج عنه جمع من الكائـنات بعضـها مـادي كثـيف، وبعضها مادي شفيف[٣]، وبعضها أرواح خالصة، وكل هذه العناصـر والصـور أصـلها واحـد هو الباراماتان، ويعنون بها الروح السيارة في الكون، وهي ذاتها الكون نفسه .

غـير أن الطبيعة الروحية قد أخفقت بعض مظاهرها الخالصة ، نظرا لتداخلها في الكائـنات الماديـة الـتي أمكن لذات الروح أن تتحول إليها، بل استطاعت التسلل بداخلها، والالـتحام بها، ومن كثرة هذه التحولات وتكرارها تلاشت المعالم الروحية الأصلية وبقيت

---

(١) سورة طه ، الأيات ١٢٤ ـ ١٢٦ .

(٢) وهذا التناقض الغريب قد أوقع بهم في المهـالك، لأن قوانين الفكر الثلاثة : ١- الذاتية ، ٢ - الغيرية ، الثالث المرفوع، تخالف هذه الأقوال التي تقوم على الفوضى لا غير، راجع كتابنا: الحثيث في المنطق الحديث .

(٣) لست أدري كيف تكون أرواحا وهي في ذات الوقت كثيفة من غير أن تكون لها أجساد، وإذا وضعت تصوراتهم لها أجسادا، فإنها تتحول بها من أرواح إلى أجساد أيضا يمكن التعرف عليها ، والفكرة غير مقبولة على النحو ذاته .

المظاهـر المادية. ومن ثم فالروح السيارة هي التي تحرك الكون. وطبقا لذات المفهوم أمكن لهم تصور نشأة العالم الطبيعي ·

والملاحظ أن عمليـة التحول من الروح السيارة إلى المادة الكاملة لم تتم في مرحلة واحدة. وإنما اتخذت مراحل كثيرة . وصاحبتها مظاهر عديدة. وتحولات لم تنقطع. وتبع ذلـك انقضاء مـراحل فيها الكثير من المظاهر التي تناسب كل عملية باستقلالها. حتى صار البـاراماتان - الكارمان - هو محور الفلسفة الهندية. وتقوم على هذه الطقوس الدينية في الفكـر الجانتـيني نفسـه[١]. ثـم تمحـورت مع الأفكار الدينية والفلسفية عندهم. حتى ظنها البعض منطقة التلاقي بين الفكر الفلسفي والدين الهندي ·

يقول " جوهر" أن الباراماتان تحول من كائن روحي خالص ، غير مرني ولا مشاهد، إلى كـائن مـادي خـالص . جـاءت منه كائنات مادية متماثلة معه. لكنها متعددة. فهو الأصل الـذي قامت عليه. إلا أنه كمن فيها. حتى اختفت معالمه الخاصة. وصار أجنبيا عنها تماما، ومع هذا فهو يستطيع الانزلاق إلى أجسامنا. ثم التعلق بأرواحنا. التي هي منيرة بطبيعتها، فيحجب عنها ذلك النور. نظرا لكثافة الباراماتان نفسه[٢] ، فالعالم هنا قديم، لأن مادته الأولى وهـي الـروح قديمة أزلية أبدية ، لا تفنى ولا تستحدث من العدم ، ومن ثم، فهو اتجاه مضاد لسابقه من كل النواحي ·

كما يؤكـد فكـرة قـدم العـالم الروحاني[٣] ، بحيث يمكن القول بأن هذه الفكرة قديمـة لـدى الشـعوب البدائية . أو على الأقل هي قاسم مشترك بين الأمم الوثنية التي تفكر بطرائق بعيدة تماما عن هدى السماء بدليل أنهم جعلوا هذه الباراماتان هو الإله. أو

---

(١) أدوارد بونـت هيفـي: الـروح الخالقـة، صــ ٣٨، تـرجمة زكـريا فـوزي، وراجـع لـتربفور: الاتجاهات الفلسفية في الفكر الشرقي القديم، صـ ٣٦٥ ·

(٢) الدكتور زاكر بن جوهر: الديانة الجينية، صـ ١٧١، ترجمة فوزي حسن عبد العظيم، ط. أولى سنة ١٩٨٧ ·

(٣) فكرة قدم العـالم الروحـانـي، تمـاثل فكرة قدم العالم المادي، وكل منهما متفرعة عن فكرة قدم العالم بوجـه عـام، لكن هـذه الفكـرة فـيها الكثير من الغموض، لأن مفهوم القدم والقديم تجيء على معان عديدة، منها القدم الذاتي، وهو الذي لا يوصف به إلا الله تعالى وحده لا شريك له، ومنها القدم الذاتـي وهـو الـذي تقدم في الزمان وتقع فيه النسبية، والذي يوصف به لا يكون خالقا، وإنما يكون مخلوقا، لأن الزمان نفسه مخلوق من الله تعالى، ومنها القدم بالغير، ومنها القدم للغير، وبالتالـي فمفهوم القدم متعدد وأصحاب القول بفكرة قدم العالم الذاتي غرقوا في التناقض لأنهم خالفوا قواعد المنطق وقوانينه ·

المبدأ الأول . فهم لا يعترفون بالله الخالق العظيم جل شأنه، وإنما يعترفون بالمادة في صورتها الأولى، أو الروح في صورتها المتحولة(١) . ويعتقدون أن كلا منهما هو الإله الخالق تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

بيد أنه لما كان مصير كل شيء عندهم يتوقف على هذا الباراماتان نفسه . فقد نعتوه بالقدم، لأنه المبدأ الأول الذي نشأ عنه العالم. كما وصف بالقدرة باعتباره الذي صنع العالم وخلقة من العدم. يقول "سانتي" إن الروح السيارة في الفكر الهندي تملك صفات الخلق والإيجاد. كما تستطيع إبراز العوالم المجهولة ويخرجها إلى حيز الوجود. وإلا فكيف يكون خالقا إذ لم يكن قادرا، بل إنه لما كان قديما من اللحظة الأولى، فقد صار قادرا من ذات اللحظة . على أساس أن القدم والقدرة لا يفترقان(٢) .

في ذات الوقت، وصفوا الباراماتان - الروح السيارة - بالعلم، لأن خلق العالم وإيجاده لا يكون بصورة عشوائية. وإلا ما تم على الوجه الرائع الذي هو عليه. لأن العشوائية والمصادفة إذا نجحت في إبراز شيء ما مرة واحدة. فإنها لا تستطيع الاستمرار حتى النهاية يقول "هيفي" من الصعب الاعتقاد بأن المصادفة هي التي أوجدت العالم الذي نراه . فهذا الفرض الخيالي لا يمكن تصديقه، بل لا يمكن مجرد التفكير فيه، وإنما الذي يمكن الاعتراف به، هو وجود روح سياره في هذا الوجود، لها من القدرة والعلم والتنظيم ما لا يستطيع أحد مجاراتها فيه(٣) ، أو على الأقل لا يمكن لأحد أن يصطدم بقدرتها التي لا حدود لها

كما وسموا الروح السيارة أو الباراماتان بالإرادة الحديدية. ذات لقبضة القوية. بجانب المعارف المتعددة، لأن فكرة إيجاد العالم الطبيعي من المبدا الاول لا تتم في صورة جبرية من ناحية المخلوق، حتى وإن تمت من ناحية الخالق(٤)، والفرق بين الفكرتين هو أن الأساطير القديمة زعمت رغبة العالم في الوجود، فقامت أجزاؤه بتقطيع ذاتها بإرادتها

(١) نحن المسلمين نعتقد أن أسماء الله توقيفية، ولا يمكن أبدا قبول فكرة أن يكون الباراماتان هو الإله الواحد جل علاه، لأننا لا نقبل إضافة تصور أو صفة لله لم يصف ذاته بها .

(٢) جورج ساني: الفكر الشرقي والاعتقادات القديمة، صـ ١٣٧، ترجمة نادر صبري .

(٣) ادوارد بونت هيفي: الروح الخالقة، صـ ٤١/ ٤٢ ، ترجمة زكريا فوزي، ط. الجيل سنة ١٩٨٧ .

(٤) جبرية الخالق قائمة في مفهوم الفيض، أما إرادة المخلوق في وجود العالم فلا تدخل في نطاق الجبرية عندهم، منها تحمل أفكارا ساذجة تعبر عن طفولة عقلية .

حتى ينشأ عنها الوجود بالشكل الذي نراه. ومن ثم فإن فكرة الجبرية تكون منفصلة عن جزئيات العالم بهذا المفهوم[١] .

كما أن ذات الأساطير قد حكمت بأن الروح السيارة قد فاض عنها العالم القديم، نظرا لاكتمال الجوانب الإبداعية فيه. بحيث إذا لم يخرج هذا العالم من العدم إلى الوجود إلا بإرادته. ذلك. اعتقادا منهم أنه متى كان المبدأ الأول مستوفيا أركان العلة التامة. فقد وجب فيضان العالم منه رغما عنه. وذلك المفهوم مما يدعم القول بأن العالم نشأ عن طريق الفيض. وهي نظرية قديمة مجهولة الأصل والهوية كما لم تتمكن من الدفاع عن نفسها في مواجهة الانتقادات التي توجهت إليها .

ومؤدي نظرية الفيض عندهم هو أن العالم المادي الذي نشاهد أجزاءه قد فاضت مبادئه الأولى عن العلة. الأولى أو المبدأ الأول، مثل فيضان الضوء من المصباح، أو الشعاع عن الشمس[٢] ، فلا يدري أيهما ظهر أولا. كما لا يمكن للمبدأ الأول- الروح السيارة- أن تحجب هذه المخلوقات عن الفيضان. فكما أن المصباح لا يستطيع أن يحجب الضوء الذي يصدر عنه، ولا الشمس يمكنها حجز الشعاع الذي يخرج منها، فكذلك المبدأ الأول لا يستطيع أن يحجب المواد الأولية عن الانطلاق منه أو الفيضان عنه .

على كل، فقد صارت نظرية الباراماتان - الروح السيارة - في الفكر الجانتيني هي ذاتها النظرية الفيضية في الفكر اليوناني بجانب الاشوري والصيني وغيرهم[٣] ، ولكنها عند أصحاب الفيض تعلقت بصور تعبيرية خاصة بهم، حاولا من خلالها إيجاد حلول لمشكلات ميتافيزيقية واجهتهم في عنف وقوة. ومع هذا فشلوا في تقديم حلول مقبولة . أو

---

(١) حيث ينسبها البعض إلى الفكر اليوناني القديم، بينما ينسبها آخرون إلى بلاد أشور، أو البلاد الكلدانية، وذهب غيرهم إلى أنها فكرة هندية أو صينية قديمة، لكل وجهة هو موليها

(٢) لمزيد من التفاصيل حول نظرية الفيض ، راجع للدكتور محمد غلاب: مشكلة الألوهية، وللدكتور محمد البهي: الجانب الإلهي من التفكير الفلسفي وكتابنا: الإلهيات عند ابن سينا .

(٣) نظرية الفيض في الفكر الفلسفي هي محاولة قام بها أصحابها لتفسير كيفية نشأة الكون المتعدد عن الأصل الواحد، و قد جاءت حينما أرادوا الإجابة على السؤال الميتافيزيقي القديم، وهو كيف نشأت الكثرة من الوحدة، وبعبارة أخرى، الإله أو المبدأ الأول واحد، فكيف نشأ هذا العالم المادي عن المبدأ الأول، ولكنهم فشلوا في تقديم إجابة صحيحة لكونهم لم يكونوا يوما ما سابقين في الوجود على خلق الكون حتى تكون آراؤهم مقبولة، راجع للدكتور محمد غلاب، مشكلة الألوهية، وللدكتور محمد البهي: الجانب الإلهي ، وكتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية .

التأكيد على أن هذه الأفكار يمكن أن تنال شيئا من القبول .

أما لدى أصحاب الفكر الجانتيني. فقد أمكنهم استخدام مصطلح الروح السيارة أو الباراماتان للخروج من المنطقة المظلمة التي أدخلوا عقولهم فيها. وكانوا أكثر جدلا. فقد وقعوا في ظلمات متواليات. ودخلوا أنفاقا أشد إظلاما. كما أنهم في كل الحالات حفروا لأنفسهم أخاديد عميقة. ثم دخلوا فيها. فلما استووا بأعماقها انطبقت عليهم فأهلكتهم. وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ب ـ مناقشتها

يلاحظ أن كل من نظرية " الهايراتان" - المادة الخامدة - ونظرية الباراماتان - الروح السيارة - قد حملت لقاح أفكار بعضها بعيد عن التناسخية التي توارت خلف هذه الألفاظ حتى إذا خرجت عبرت عنهم أصدق تعبير[١] ، وبعضها حمل صورة الفيض السهلليني ، ثم اعتصمت هذه الأفكار كلها داخل أروقة زمانية بعيدة. وظلت ترعى لقاح ما حملت. فإذا وضعت وليدا كان غريبا . بدليل أنه ما إن نظر إليه المدققون حتى حكموا بأنه مسلاخ غير طبيعي كما قد شوهت كافة معالمه. واختفت أبرز ملامحه .

فلأنه في كافة الأحوال مجرد لقيط لا يعرف شيئا عن والديه. أو أحدهما. كما لا يعرف إلى من ينسب. وهل هو ناتج عملية كاملة ، أم أنه ملتقط من غيهب جب عميق الغور. بعيد القرار[٢] ، ومن ثم يمكن القول بأن هذا الفكر اللقيط قد تركه أصحابه في غيبة من الزمان واستهجان من الناس. في أرض فراغ. فظل ينمو ببطيء شديد. ويعمل على استعطاف الذين يلقى إليهم. فإذا عرض مشكلته عليهم. سعى هؤلاء البسطاء خلف من ألقوه. لكنهم لم يعثروا عليهم. أما لماذا؟

ثم أن أصحاب هذا الفكر الغريب حملوه إلى الفيافي ، فلما تأكدوا أنهم قد بعدوا عن العقلاء والمراقبين ثم نظروا حواليهم ، فلما لم يجدوا أحدا شاهدهم طرحوه أرضا.

---

(١) راجع كتابنا: أوراق منسية في النصوص الفلسفية حول فكرة التناسخ وأنواعه وبيان موقفنا من المسألة من الناحية الشرعية .

(٢) لأن هذه الأفكار الغريبة لم يعرف على وجه التحديد أول من قال بها، ولكنهم يتم تناقلها على الألسنة وتناولها بينهم، أو من ثم تنسب إلى من يتناقلها، ولذا تعدد القائلون بها في مواطنهم وأماكن وجودهم .

وساروا حافي الأقدام، حاسري الرؤس، معنتي الوجوه، لا يلوون على شيء أبدا، ولا يلتفتون إليه، ومن ثم فقد صاروا هم أيضا لا يلتفت إليهم صاحب عقل سليم[١]، إلا أنزل عليهم العقوبات، وصب عليهم كافة اللعنات، وحاول أن يصليهم أقسى الدرجات، وأبعد الدركات .

وفي تقديري أن هذه النظرية يمكن تناولها من عدة جوانب علي سبيل التقييم لها، باعتبار أن الفكر الذي يعرض يجب متابعته، فإن كان صوابا سعى الناس للأخذ به، وإن كان فاسدا نبه العقلاء إليه حتى لا يسقط واحد في أخاديده المظلمة، أو يتردى بين جنباته المهلكة، وهو أمر يندفع كل العقلاء إلى القيام به، و عدم الإهمال فيه[٢] .

لما كانت نظرية الروح السيارة تحمل القصور العملي ، وتفتقر أساسياته من النواحي العديدة، كما تمثل الشرك والإلحاد الديني من كل جانب، فسأعمل على مناقشتها في حدود ما يلي :

١- أنها فكرة خيالية تعبر عن جملة من الأحلام التي عاشت في عقول أصحابها دون أن يتمكنوا من إقامة دليل واحد على صحتها، أو مجرد مشروع يدفع القول بأنها صحيحة، ولو في أدنى جانب من جوانبها، لأن البحث العلمي ما لم يقم على أسس علمية صحيحة، فإن مجرد قبوله يعتبر مشكلة[٣]، كما أن كل بحث لا تدعمه قواعد سليمة تظل إشكاليه النظر فيه قائمة .

٢ - أن هذه الأفكار تصب في قالب واحد، وترتبط به، وهو قالب الإلحاد الذي يدفع صاحبه لإتخاذ الهوى إلها، ثم السير خلفه إلى أبعد مدى، ومتى وقع المرء ضحية الإلحاد في أية صورة من صوره، أو مظهر من مظاهره، فإن التعامل مع أفكاره يجب أن يكون

---

(١) أصحاب العقول التي انطمس نور الإيمان فيها طبع الله عليهم فهم لا يفقهون، ومن ثم فهم لا يميزون الصواب من الخطأ ولا يعملون على إخراج أنفسهم من الظلمات التي ألقتهم فيها شياطينهم، قال الله تعالى ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" سورة البقرة ، الآية ٢٥٧ .

(٢) فالنظر إلى الفكر على سبيل التقييم أمر شرعي، فإن كان صوابا أمكن الأخذ به، وإن كان فاسدا استطاع المرء التنبيه عليه حتى لا يقع أحد فيه، وقديما قال الإعرابي القديم :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوفيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

(٣) راجع كتابنا: الحثيث في المنطق الحديث، أثناء الحديث عن قواعد المنهج العلمي، حيث تظهر الملاحظة والتجربة وأخيرا تجيء النتائج .

متساويا مع ذات الاعتقادات[١]، مادام الأمر قد تعلق بالجوانب الميتافيزيقية ذات الارتباط بالغيب الماضي أو على الأقل يجب النظر إلى أفكاره بعيدا عن قوانين العقل ، لأنها خارجة عليه ، وبعيدا عن نصوص الدين الإلهي لأنها لا تعترف به ·

٣ - إن نظرية الروح السيارة فشلت في تقديم نفسها كمعطي علمي يمكن التعامل معه بالروح العلمية ، أو المنهج العلمي من الناحية الفنية ، أو فكر فلسفي ، وإلا فما هي النتائج التي ترتبت على القول بها؟إن كانت مقبولة[٢] . بل وأين هم الذين تابعوها متابعة دقيقة، وكانوا أمناء أثناء عرضها، واتسموا بشيء من الموضوعية أو الواقعية عند دفاهم عنها ، أو مارسوها على ناحية تجريبية حتى يتأكدوا من صوابها ·

٤ - إن هذه النظرية غريبة في أطوارها، حين جعلت الإله الخالق هو الروح السيارة ذاتها، أو الباراماتان. وهذه المفردات لا يصح إطلاقها على الله تعالى، لأن أسماء الله عز وجل توقيفية ولا يجوز القول فيها بالرأي، ولا الاحتكام للهوى، والغرض لقوله تعالى " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون " [٣].

٥ - إن فكرة الفيض الجبرية وخلق العالم أو إنشائه من خلالها إنما هي في الأصل العقدي فكرة طافحة بالإلحاد، لأنها تنزع عن الله تعالي الإرادة، وتجعله فاعلا بالإكراه، كما تبعد عنه جل شأنه الإنصاف بالعلم التام المحيط الكاشف [٤] ، على أساس أن المكره على فعل شيء يكون غير عالم بنتائجه، أو أنه عالم بها، لكنه مضطر لممارسة ما يدعو إليه الآخرون، وهو ذاته عين الإكراه، ولا شك أن ذلك كله مما لا يتناسب مع الله عز وجل أبدا ·

---

(١) لأن هذه الأفكار لا عصمة لها ولا حافظ إلا أن تكون أصولها قائمة على الكتاب والسنة وتفهم في حدود النصوص الإلهية ·

(٢) بدليل أنه ما من نتيجة وصلوا إليها إلا جاءت الأسئلة الجديدة فأخذت بها حتى ألقتها في الغياهب البعيدة مهما كان حجم القائلين بها

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٨٠ ·

(٤) ففكرة الفيض تحمل صورتين، الأولى أنها تلغي الاختيار عن الفاعل الخالق جل علاه، الثانية أنها تنكر قدرته تعالى، كما تنكر وجوده جل شأنه، وبالتالي ففكرة الفيض التي يقولون بها عليها يتم تفسير نشأة الكون لا تكون مقبولة أبدا ·

٦ - بداهة العقول تحكم بأن الروح السيارة - على فرض وجودها - فهي مخلوق لله تعالى، كالحال مع الجاذبية . وما كان م هذا القبيل ومن ثم فهي لا تكون سوى مجرد سبب من الأسباب التي بثها الله تعالى في الكون. وارتباط الأسباب بالمسببات عندنا أهل السنة والجماعة ارتباط عادي يمكن تخلفه[١] حتى يفتح الباب لخوارق العادات التي تجيء من عند الله تعالى . على خلاف ما اعتاده الناس، سواء أكانت خوارق التأييد التي تكون مع الأنبياء المرسلين. أم مع أولياء الله تعالى وجملة الصالحين[٢]. أم جاءت مع الوسائل التعليمية كالسحر وما يترتب عليه[٣]. أو كانت هذه الخوارق بغرض التكذيب كالتي تجيء مع مدعي الألوهية ومنها الاستدراج، أو الغرض منها فضح صاحبها أمام الناس كالحال مع مدعي النبوة حيث تقع عليهم الإهانة[٤] .

مما سلف بيانه اتضح أن موقف الجانتينين من مشكلة خلق العالم، أو نشأة الوجود الطبيعي عن طريق المادة الخالدة أو الروح السيارة، لم يكن موقفا سديدا. أو يقوم على قواعد وأسس صحيحة. بقدر ما هو من نزغ الشيطان، واستجلاب اللعنات من الرحمن الرحيم، ولا يتفق معهم. أو يتبنى أقوالهم إلا من كان مثلهم، أو يقف معهم مساندا لهم .

نظرية الجواهر المتوسطة ـ العقول العشرة ـ

أ - عرض الفكرة

اعتقد الجانتينيون أن المبدأ الأول الذي نشأ عنه العالم الطبيعي لا يكون إلا واحدا. لكنهم لما نظروا في الكائنات الموجودة. فإذ هي متكاثرة إلى أبعد مدى. ومن هنا اعتبروها مشكلة ثم حاولوا تقديم حلول لها . فقالوا أن مشكلة كيفية وجود العالم المتكثر عن المبدأ الأول لا يمكن ان يوجد لها حل إلا من خلال تصور وجود كائن جوهري، مفاض أو

---

(١) هذا الارتباط بين الأسباب والمسببات تجري به سنن الله الكونية، وهو ارتباط عادي لا علاقة له بالجبرية ، أو الضرورة والحتمية ، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب ، صـ ٦٧٢ .

(٢) خوارق التأييد منها: ١- المعجزات الإلهية، ٢- الإرهاصات، ٣ - الكرامة ، ٤ - المعونة ، ٥ - الفراسة ، ٦- المغوثة ، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب ، وكتابنا : الغزاليات في النبوات .

(٣) خوارق التعليم هي خوارق لمن لم يعلمها ، وهي معتادت لمن علمها، وذلك كالسحر وله أحكام كثيرة ، راجع للشيخ الحريزي الفقه على المذاهب الأربعة، الجزء الخامس.

(٤) تسمى خوارق التكذيب لأنها تظهر فساد اعتقاد مدعيها، وهي: ١ – الاستدراج الذي يكون مع مدعي الألوهية، ٢ – الإهانة ومجمل الخوارق تسعة، راجع كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي .

صادر عن الكائن الأول بطريقة من الطرق ٠

ثـم أن هـذا الكائن الثاني المفاض عن الكائن الأول يقع له التعقل على الجانب المـادي؟!(١) ، وحيـث أن ذلـك لا يكون واضحا على ناحية مؤكدة . فلا بد من وجود جملة القديسـين المؤلهـين الذيـن يقـع عليهم الفـيض الأول. ثـم يتوالى الفيض منهم الفيض المتوالي على من بعدهم فيما بعد، ومن هنا تقع للآخرين معرفة كاملة ، عن طريقها يمكن تصـور فيضـان الكـثرة عن القلة(٢) . وبعد ذلك يتحول هؤلاء القديسون إلى جسم العالم نفسه ، الذين يطلقون عليه اسم الملاء الكوني ٠

عـلى كـل. فإن هؤلاء القديسين المتألهين بهذه العملية يصيرون أمام الناس آلهة من دون الله يعبدون فهم جواهر مادية ، وروحانية . لكنها متوسطة بين المبدأ الأول والكائنات المخـتلفة الـتي تفرعت عنه، ومن ثم فقد صار هؤلاء القديسون أنفسهم خاضعين للتناسخ والتحلل، ولم يحسبوا خالقين للعالم على الحقيقة أبدا(٣) . لأنهم مجرد وسائـط قائمة بين المـبدأ الأول المتفرد. والكائنات الأخرى ا لمتكاثرة التي صدرت أو فاضت عـنه بما فيها من تكثر وتنوع ٠

ولا شـك أن مـتابعة الآيـات القرآنـية، والأحاديـث النبوية، تقدم الحلول الكاملة لمسـألة خلق العالم كله، أو نشأة الوجود بكل ما فيه ، ومنه خلق العالم الطبيعي، إنها حلول عمليـة وعلمـية أيضا، تحدثت عن مادة الخلق الأولى وزمانها. كما تحدثت عن طبيعة هذه الكائنات، وألمحت الى الكيفية التي يمكن للعقل استيعابها. أما ما تم من حيث الحقيقة. فهو مـن الغيـب الـذي لا يعـلمه إلا الله تعـالى، ولأن العقول لا يمكنها أن تستوعبه من ناحية الحقيقة الإلهية، فقد سكت عنه الشرع من غير نسيان رحمة بنا ٠

دليـل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم إن الله تعـالى فرض فرائـض فلا تضيعوها

---

(١) لست أدري كيف يقع له التعقل على الجانب المادي، بل لا أعرف ولا أفهم كيف يكون التعقل وهو العملية العقلية الخالصة على الجانب المادي، مع أن المسألة متباعدة بينهما إلي أقصى مدى ٠

(٢) فيضان الكثرة عن القلة مشكلة صنعتها عقول أصحابها الذين لم يفكروا بطريقة سليمة، ولو أنهم أحسنوا القول والعلم والعقل، لأسندوا الخلق لله تعالى، ابتداء وانتهاء ، و حينئذ لا تكون هناك مشكلة ٠

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الثاني، جـ١ ، صـ ٦٠ ٠

وسن سننا فلا تنتهكوها. وحدد حدودا فلا تتعدوها. وسكت عن أشياء من غير نسيان رخصة لكم. أو رحمة بكم. فلا تسألوا عنها[١]. ومن سأل عنها كان معتديا بسؤاله. أما من دخل إليها باحثًا فيها. مصطنعا وسائل يعتقد أنها مؤدية به لتلك الغاية. فقد خسر حسرانا مبينا. أما فكرة الملاء الكوني التي قالوا بها، والتي تعني تصوير كَيْفِيَّة خروج الكثرة عن القلة في الفكر الجانتيني. فلم تكن وحدها في الميدان. بدليل ظهور فكرة الملاء المتشابه من الأفلاك والعناصر. حيث أن الملاء المتشابه هو المكون من الأفلاك والعناصر سوى السطح المحدب من القلب الأعظم. وهو السطح الظاهر. والمتشابه في الملاء أمر تكون أجزاؤه متفقة الطبائع[٢].

كذلك برزت أفكار عديدة كانت تسير متوازنة مع فكرة الملاء الكوني، حتى صارت في بعض الأحيان هي البديل عنها، أو المعبر عنها. والمرادف الذي يمكنه أن يحل بدلا عنها. ومنها فكرة الحاوي العام[٣] . التي تقوم على أنه متى وجد المحوي فلا بدله من حاو يطلق عليه اسم الحاوي العام.ومن ثم فإن وجود الحاوي من غير وجود المحوي، أمر غير ممكن، مهما كان صغيرا، لأنهما من المتضايفين بحيث متى وجد كان وجود الثاني، ومتى عمد أحدهما انعدم الثاني تماما .

ونظرية الحاوي العام في الفكر الجانتيني تسمى " أكاسا " وهي تقوم على أن أكاسا هذا عبارة عن جوهر مادي، مكوناته أجزاء مادية مكانية غاية في الصغر، لكنها مشغولة بالجواهر الفردة. وهي في ذات الوقت عناصر دقيقة غير قابلة للانقسام أو الفساد. في طبيعتها استعداد لـلحركة أو السكون. بجانب ذلك فهي مشتملة على خواص أربعة : اللون . والطعم . والرائحة. ثم قابلية هذه العناصر والخواص لعملية اللمس[٤] .

---

(١) راجع كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي، صـ ١٢٧، والحديث مروي عن أبي ثعلبة الخشني وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

(٢) السيد الشريف الجرجاني: التعريفات باب الجيم، صـ ٢٠٤، ط. الحلبي، وهي غير فكرة أو نظرية الخلاء، لكن بينهما علاقات من نوع ما، فراجعها داخل مؤلفات علماء الكلام والفلاسفة.

(٣) نظرية الحاوي العام، إحدى النظريات الفلسفية القديمة التي ارتبطت في بعض الأحيان بتفسير نشأة الكون أو العالم الطبيعي، ولكنها كانت غامضة في كل جزئياتها وتفاصيلها، ثم أن مفكري المسلمين أضافوا إليها أبعادا جديدة جعلتها تنال بعض القبول، راجع كتابنا: رياض الأشواق في الميتافيزيقيا والأخلاق، صـ ١٢٧، وما بعدها، الطبعة الثامنة .

(٤) زامر تريفون: الاتجاهات الفلسفية في الفكر الشرقي القديم، صـ ٢٥٥، ترجمة هناء زكي ، ط. ثانية سنة ١٩٩٧ .

أو فحصها عن طريق الحواس ·

ويعتقد الجانتينيون أن هذه الجواهر الفردة التي تحل في الأمكنة يمكن اعتبارها من الجواهر البسيطة [١] . ومتى تلاقت مع بعضها فإنها تشغل أحيازا صغيرة من الحاوي العام. ومن هنا يحدث تكون جديد . أو مظهر جديد. يمثله الجوهر المركب، ثم يشغل هذا المركب حاويا أكبر من سابقة قليلا. وهكذا يحدث التكرار المتواصل . وكلما ازدادت أعداد الجواهر البسيطة الحالة في أمكنة صغيرة وحدث لها التلاقي نتج عن ذلك حاويات أكبر منها وهكذا دون انقطاع ·

ويجب أن يوضع في الحسبان أن الجواهر البسيطة. أو الحاوي الأصغر . يظل محتفظا بخواصه الأربعة. ومنها شفافية الملمس أو نعومته. حتى لكأن هذه التحولات لم تنل منه شيئا. ولم تحدث به أي صورة من صور التغيير [٢] . ومن ثم فإن هذه التحولات المستمرة تجري فيها الآلية. وينتفي عنها كل من القصدية والغائية، بل والإرادة والاختيار [٣] . هو ما فيه فكر الجانتينين حول تأليه قوى الطبيعة. أو على الأقل يعبر عن تأليههم للعناصر الحاوية الكائنة في العالم الطبيعي ·

والمعروف أن الجوهر ينقسم إلى مركب بسيط، والبسيط يتنوع إلى روحاني كالعقول والنفوس المجردة. وإلى بسيط جسماني كالعناصر المختلفة. أما المركب فإنه يتنوع إلى مركب في العقل دون الخارج كالماهيات الجوهرية المركبة من الجنس ، والفصل، وإلى مركب منهما- الجنس والفصل كالمولدات الثلاث [٤] ·

---

(١) البساطة راجعة للعناصر الجسمانية، وليس للفكرة التي تقوم عليها، والفرق بين الاتجاهين كبير، لكن النظر إلى كل منهما- العناصر الجسمانية- وفكرة البساطة- مستقلا يؤدي إلى نتائج إيجابية، بل تدل على غاية في التفوق الفكري ·

(٢) فكرة الجواهر البسيطة في الفلسفة غير فكرة الحاوي الأصغر في الدراسات النفسية والجانتينية ، وكل منهما له موضوعه بجانب اسمه، وتعريفاته، وكذلك يختلفان باعتبار الآثار المترتبة على كل منهما ·

(٣) وهذا كله يؤكد أن المذهب الآلي والفكر الطبيعي كانت لهما السيادة على هذه الأنماط من الجماعات البشرية، وأنها جميعا تحتاج المراجعة ·

(٤) العلامة السيد الشريف الجرجاني: التعريفات باب الجيم، صـ ٧١، ط. الحلبي، وراجع الحديث عن الجوهر بأقسامه، وأنواع كل قسم لتعرف الفروق بين الجميع ·

ويعتقد الجانتينيون أنه كلما ازدادت هذه الجواهر تألقا مع بعضها. وحدث انسجام تام. صارت خشنة الملمس. ثقيلة الحركة. متداخلة في بعضها - مع اختلاف عناصرها الجديدة والقديمة. حتى أن البسيط منها لا يتميز عن المركب. والحاوي يتقلب مع المحتوى في عملية يقع لها التداخل التام على الدوام. ومن هذه التداخلات يتكون العالم المادي بكل ما فيه من تباينات في الأصول والعناصر. بل إن ذلك التداخل لا يكون مقصورا على شيء بعينه . وإنما يشمل الكائنات جميعها[١] . وبناء عليه. فعمليات التداخل والتجانس في الجواهر البسيطة هي التي يقوم عليها بناء أو نشأة العالم طبيعي على ناحية من النواحي .

وأثناء هذه العملية التحولية التي تجيء متواصلة في ذات الكائنات . يقع انفصال جديد. أو جزئي للأجساد عن النفوس. هذا الانفصال غير حقيقي . وإنما هو صوري أو شكلي. بدليل أن النفوس تظل ساعية على الدوام نحو الانفصال حتى تستقل تماما عن الحركة الجسمية. كما تتمكن من تحطيم القيود المادية التي تفرض عليه . ا بسبب وجودها داخل هذا العنصر. ولذا. فهي تسعى للاستعانة بالوسائط العديدة بخاصة جماعة القديسين المتألهين[٢] . حتى تبلغ غايتها. وتسترد عافيتها وإرادتها .

من ثم يمكن القول بأن نظرتهم لهذه الوسائط المتقدمة قد قامت على ما زعموه حقائق . وما هي إلا صور لأفكار فاسدة . تعبر عن اعتقادات أكثر فسادا . وعبادة تحمل الفساد من كل ناحية. كما تدل على أنه قد حدث انتقال لهذه الأفكار والاعتقادات الفاسدة

---

(١) أوموند فيشر: المدرسة الجينية والاتجاهات الفلسفية، صـ ١٥٧، ترجمة عبد الرحمن صابر خليل سنة ١٩٩٥، وراجع لول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الثاني، صـ ٦٢ .

(١) ولعل هذه الاعتقادات الفاسدة في جملة هؤلاء المتألهين، هي التي دفعت إلى تكثيف ذات الظاهرة وانتقالها من الهند إلى غيرها من بلدان العالم التي ظهرت فيها عبادة الأشخاص المقدسين، أو ذوي الاتجاهات المتقدسة، بحيث يمكن القول بأن الوثنيات كانت لها سيادة من نوع ما بالنسبة لكثير من الأمم القديمة .وبخاصة تلك التي حاربت رسل الله تعالى ، وقتلت أنبياءه ، وكفرت بالله ، وتحررت من هدى السماء، وأخذت الأفكار الوثنية بدائل له، ثم اعتبروها كافية لهم، لأن الله تعالى أرسل في كل أمة رسلا يقومون معها بدوري الترغيب والترهيب بعد تعريفهم بالخالق العظيم جل علاه، وما له من صفات الجلال والجمال والكمال، بجانب ما له جل شأنه من الحقوق ، قال تعالى " وإن من أمة إلا خلا فيها نذير" سورة فاطر، الآية ٢٤ .

حتى ظهرت في البيئة العربية قبل نزول القرآن الكريم، فلما بعث رسول الله النبي الخاتم، كانت آيات القرآن الكريم تبين فساد وتأليه المخلوقين حتى لو كانوا من جملة القديسين[١] .

ودليل ذلك قوله تعالى" انا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فأعبد الله مخلصا له الدين إلا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى أن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار" [٢].

ب ـ مناقشة الفكرة

١ - نظرية الجواهر المتوسطة أو الحاوي العام لم تقدم جديدا، في الفكر الفلسفي كما لم تصنع شيئا يمكن اعتباره بديلا عن المادة الخالدة، أو الروح السيارة، بل بالعكس تبين أنها مجرد رجع صدى لكل منهما في صور خافتة قد لا يكون لها وجود واضح إلا عند التأمل الدقيق [٣] ، والذي يجيء مع البحث الدؤب المتواصل .

٢ - إن هذه النظرية الغامضة دفعت بالعناصر الجمادية للأمام ، دون أن تعطي ذات العناصر الصفات التي لا بد منها للقيام بهذه المهام، حيث جعلتها تقوم بجملة من الاحتكاكات السلبية، كأنها التي تجري عليها الأمور ، دون أن يكون لها دخل في شيء مما يجري عليها[٤]، وهذا سلب لإرادتها، وحجب لقدرتها ، ومع ذلك توصف عندهم بأنها عاقلة فاعلة قادرة .

٣- إن الجواهر البسيطة بالمفهوم الذي عرف عندهم، يجعلها فكرة هولامية غير محددة المعالم، لأن الجواهر البسيطة لدى العلماء ، أما أن تكون روحانية كالعقول والنفوس المجردة، فبساطتها قائمة في تجريدها من عناصر المادة وخواصها، أو تكون

---

(١) راجع كتابنا: تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية، حيث تعرضت هناك لبيان أوجه الفساد التي يقوم بها هؤلاء عند تقديسهم للكائنات الأشخاص وعبادتهم لها من دون الله تعالى .

(٢) سورة الزمر، الآيات ٢ / ٤ .

(٣) اكتشاف هذه العلاقة مهم وضروري لكل من يريد الوقوف على الحقيقة في صورتها العادية، أما غيرهم فلا اعتداد به بهم ، وإنما يكون أمرهم كالنكرات بين المعارف والإعلام .

(٤) وهذا يؤكد مبدأ الآلية في الفلسفة الجانتينية، ويدعم القول بأنها فلسفة مادية خالصة .

جسمانية كالعناصر المختلفة التي لا يقع فها التركيب ، وتكون بساطتها لقيامها في غير تركيب[١] . وهم يخالفون ذات القواعد المعمول بها في الفكر الفيزياني والميتافيزيقي أيضا. من ثم كانت فكرتهم عن الجواهر البسيطة بعيدة تماما عن القواعد الصحيحة .

٤ - إنهم جعلوا الاحتكاكات البرانية منشأ النفوس والأرواح . لكن من أين نشأت القابلية لهذا الاحتكاك وبنفس القوة يمكن القول متى نشأت العقول. بل أين المصادر التي قامت عليها القدرات العقلية والقلبية وغيرها. كما أن العناصر البسيطة تتمثل فيها جواهر بسيطة[٢] . ومع هذا لم يقدموا دليلا واحدا على صحة ما يزعمون .

٥ - سيطرت عليهم جمل من الأفكار التي تم استيرادها من الأمم الأخرى بما هي عليه، ولم يحاولوا تفريغها من مضامينها، ثم يعملون على إعادة بنائها معلوماتيا بما يناسب مع طبيعتهم الفكرية[٣] . ومن هنا ترددوا في الخطأ المتكرر. وترددوا بين جنباته كأنهم لم يعرفوا أن الفكر الصحيح له قواعد يقوم فيها، وأصول لا بد له من الاعتماد عليها .

٦ - وقعت أفكارهم الفلسفية في أخطاء معرفية ، حين اعتبروا التحولات التي تتم في الجواهر البسيطة ذاتية أخلاقية ، أو قصد بها المحافظة على المبادئ العامة، أدبية كانت أو أخلاقية[٤] ، مع أن قضايا الفلسفة عندما تلجأ لبحث مشكلة وجودية يجب أن تحدد الموضوعات. ثم تسعى لتدوين كل من الأهداف والغايات. وهنا يكون الموقف الفلسفي متسقا مع المنهج العلمي .

٧ - إن عمليات الالتحام والانفصال التي تجيء مع الجواهر البسيطة غير محددة الأهداف. كما أن موضوعاتها هي الأخرى بعيدة تماما عن الاتجاهات العلمية، ولا

---

(١) راجع هذه المفاهيم في مؤلفات علماء الكلام ، وما في لغات مفكري المسلمين، راجع التعريفات للعلامة الجرجاني .

(٢) ويؤكد ذلك وقوع الكثير من أنواع الاضطراب الفكري الذي عبروا عنه في الكثير من مناحي الحياة .

(٣) راجع كتابنا: التفكير الإنساني أصوله ومستوياته، لتعرف القواعد التي يجب الالتزام بها حتى يكون التفكير سليما عند ممارسته ، صحيحا أثناء مراجعته .

(٤) وهذا يدعم الفكرة القائلة بأنهم وقعوا في خلط أدى بهم إلى التردي في الأخذ من الفلسفات العبثية .

يمكن التأكد منها عن طريق الملاحظة العلمية أو التجربة العقلية والمعملية. فلا هي مطابقة للواقع. ولا موافقة للمنهج العلمي. وفوق ذلك فإن الاعتداد بها يؤدي إلى تدمير القواعد الصحيحة. كما يطيح بالأسس الفكرية السليمة .

الحركة الطردية المترددة والمنعكسة

أ - عرض الفكرة

معنى الحركة الطردية في الفكر الجانتيني أن عملية إيجاد النفوس تتم من داخل الجواهر البسيطة. وكلما تكاثرت الجواهر في أعدادها. وتنامت بساطتها في عناصرها تكونت عن ذلك حاويات أكبر. وعند تلاقي الحاويات تحدث العديد من التحولات المادية الخالصة، وفي نفس الوقت تتم احتكاكات بينها على سبيل التواصل، بحيث تنشأ عنها جملة من النفوس الجديدة. والأرواح الساعية للخروج من هذه الأماكن الضيقة[1] .

وكلما ازدادت عمليات تلاقي العناصر المادية وقع الطرد من الداخل للنفوس التي تتألم بسبب الضيق والحبس من ثم هي تطلع للانفلات وتشتاق للخروج ، حيث السعة بجانب الراحة والسرور، ويظل الأمر هكذا حتى تتكاثر الأنفس والأرواح تكاثرا كبيرا، ثم أن الحركات الطردية المتلاقية تجيء باطراد. غير أنها تأخذ في التردد بين جنبات هذه الأماكن الضيقة، وتنعكس من الأمام للخلف، ومن الخلف للأمام، حتى تكون صورها الثابتة كأشباح المثل المعلقة الخيالية[2] التي هي مجرد تصورات شخصية لأفكار يصعب التأكد من وجودها، بل ليس من اليسير الحكم عليها بالقبول أو الرفض على ناحية الأمور العقلية الخالصة .

---

(١) راجع كتابنا: أوراق منسية في النصوص الفلسفية، صـ ٢٥٧، الطبعة العاشرة، حيث يظهر أمر الأماكن الضيقة وعلاقة النفوس بالحركة الطردية .

(٢) لمزيد من التفاصيل ، راجع كتابنا: نظرية المثل المعلقة أصولها وتطوراتها، صـ ٣٧ وما بعدها .

مـن ثـم ظهرت عندهم كثرة في الأرواح . وقلة من ناحية الأجساد[١]، ومتى كانت الأرواح كـثيرة والأجساد قليلة. فقد أوقعوا أنفسهم في مشكلة كبيرة دفعتهم إلى القول بأن التناسـخ الـروحي ضـروري. حيث تتنازع الأرواح الكثيرة على الأجساد القليلة. فإذا كانت الـروح داخل جسد إنسان مثلا. وتم طردها منه لسبب أو آخر. بحثت هذه الروح عن جسم آخر تلحق به وتعيش فيه. قد يكون الجسم الجديد لإنسان أو حيوان ٠

بغـض الـنظر عـن كـون الجسد الجديد لإنسان أرقى أو أدنى، أو لحيوان آخذ في الترقي عن أصله . أم هوى في التدني لأبعد مستوى. وهكذا تظل الأرواح الطريدة تتصارع مع بعضها باحثة عن أجساد تأوي إليها . وتتعلق بها على سبيل التعشق الذاتي بين الجسم الجديـد والروح الطريد. وهو ذاته التناسخ الذي تتعلق فيه الروح بالبدن. يقول الشيخ الجـرجاني حاكيا عن التناسخية : التناسخ عبارة عن تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة. من بدن آخر، معه غير تخلل زمان بين المتعلقين . للتعشق الذاتي بين الروح والجسد[٢] .

لكن فكرة التعشق الذاتي التي تكون للأرواح والنفوس في تعلقها بالأجساد يمنع القـول بها من أن تكون لدى الأجساد هي الأخرى ، وهذا السعي والتعشق الذاتي . ما دامت الأمور واقعة في ذات النطاق ٠

فالحـركة الطردية في الفكر الجانتيني آلية تقوم بها ذات العناصر الطبيعية من غـير احتـياج لقوة قادرة . أو إرادة مميزه . كما لا تحتاج إلى العلم الكاشف الواسع المحيط الشامل، ومن هنا حكم هذا الفكر على نفسه بأنه لا يقوم في قواعد صحيحة. كما لا تنهض لـه أسـس معقولـة . بل العكس من ذلك تماما. أنه فكر خيالي لا عـلاقة له بشيء صحـيح أبدا! ٠

---

(١) كثرة الأرواح وقلة الأجساد فكرة ظهرت لدى القدماء من أهل مصر، بخاصة في القرن الثلاثين قبل الميلاد ، حيث كان الكهنة يقومون بطقوس كثيرة، زعموا أن كل طقس منها تنتج عنه أرواح كثيرة تنطلق في الهواء وتظل سابحة بين طبقات الجو، باحثة عن أجساد تسكنها، ولأن هذه الطقوس قد تكون من باب إرضاء الآلهة مثلا، فإنها تصير أرواحا إلهية خيرة، وقد تكون من باب إرضاء الشياطين أو طردهم ومن ثم تكون أرواحا شريرة، وقد تكون الطقوس من باب استنزال اللعنات على الأعداء لتكون الأرواح عدوانية ، وهكذا ظهرت مشكلة بالغة التعقيد لدى كهنة مصر الأقدمين دفعهم القول بها إلى ضرورة اعتقاد تناسخ الأرواح ثم أخذها عنهم اليونان وأهل الصين، راجع لجيمس هنري: مصر القديمة وعباداتها الوثنية، صـ ١٨٣، ترجمة على حافظ ٠

(٢) العلامة السيد الشريف الجرجاني: التعريفات، باب التاء، صـ ٦١، ط. الحلبي ٠

يقول "تريفون " أن الحركة الطردية في الفكر الجانتيني تنشأ عنها أنفس متعددة . وأرواح متكاثرة. وعوالم كل عناصرها جديدة. لكنها لا علاقة لها بشيء من العناصر السابقة. لأن الحاوي الأصلي لا يعير أدنى إلتفاتة للحاويات الأصغر. كما لا يشغل عقله إلا بذاته فقط. ومن هنا كانت أحداثه تسير في اتجاه واحد. مما دعا الاحتكاكات إلى استخدام طريق أخر معاكس للأول. فكل منها. العناصر والاحتكاكات. يسعى لطرد الأخر(١) ومعنى هذا أن كلا منهما له . إرادة . وعلم . وقدرة . وهم لا يقرون بذلك أصلا. فوقعوا في تناقض لا ينفك عنهم .

ولما كانت العناصر الأساسية قوية في ذاتها. والأنفس المتولدة عن الاحتكاكات ضعيفة في ذاتها . فإنها تشعر بالاضطهاد الذي تصاحبه الأحزان والآلام، بجانب الذل والمهانة. مع القلق والاضطراب. ولذا فهي تسعى حثيثا للخلاص الذاتي، وطلب النجاة. لكن من خلال القديسين المتألهين على أقل تقدير(٢) . ومن ثم أوجدوا للقديسين مكانا وتعشقا جديدا تقوم به النفوس ، بل وتنجذب ناحيتهم .

ويعتقد الجانتينيون أنه عن طريق الحركة الطردية ظهرت العقول والأرواح، وبالتالي فهي ترتبط ارتباطا وثيقا بالأصل الذي قامت عليه.أو خرجت منه معبرة عنه ، لكنه ارتباط العشق الذي لا يترتب عليه أي ألم. فإذا نشأ عنه ألم. أو ترتب عليه، كان ذلك المترتب ناشئا عن الألم الذي تمارسه داخل هذا العالم العنصري. وفي النهاية يتحول من الحرية إلى نوع من العبودية للباراتامان أو المبدأ الأول(٣) . والطرق الوحيد للخلاص من هذه الآلام هو إهمال اللذات بأنواعها المختلفة. طالما أنها تحول بين الإنسان والحياة الكريمة .

---

(١) رامز تريفون: الاتجاهات الفلسفية في الفكر الشرقي القديم، صـ ٢٧٧، ويلاحظ كثرة تأكيدهم على أن النفس تتولد عنها الاحتكاكات المادية الكائنة في العناصر المختلفة، وهي لا تبتعد عنها، بل مستمرة في التعلق بها .

(٢) راجع لانطوان بيل: آلهة التاريخ القديم، صـ ٢٧٧، ترجمة علية عبد الرحمن، مراجعة إيناس عابدين، ط. أولى سنة ١٩٨٧، ولهنري فيتشر: التاريخ وآلهة البشر، صـ ١٣١ / ١٣٢، ترجمة فاضل خيري سنة ١٩٨٥ .

(٣) راجع كتابنا: تأملات غزالية في الفلسفة الشرقية، جـ ١ صـ ١٧٩، وكتابنا: تأملات غزالية في الفلسفة الهندية، صـ ١١٥ .

ويلاحظ أنهم بهذا يسعون إلى تأكيد الحرية الشخصية ، والعمل على بقاء المبدأ الأخلاقي من انتفاء المسئولية عن الأفعال التي تتم داخل الحركات الطردية في مراحلها الأولى[١] ، حيث لا تكون النفوس الموجودة قادرة على الهرب، أو القيام بأعمال ذات صيغ خاصة أو صبغة متميزة، حتى تنسب إليها استقلالا. هذه الأعمال. ثم تحاسب عليها. كما أنهم بهذا الفهم الخاص يعملون على تأكيد أن المسئولية الأدبية أمر ثابت في النفوس[٢] ، لكن لا تحاسب عليها. كما لا تتحمل نتائجها .

من هنا كانت الحرية الطردية المنعكسة ذات اتجاهين:

أحدهما: مادي خالص. قائم في العناصر البسيطة والجواهر القائمة في ذات العناصر .

ثانيهما: روحاني خالص. قائم في الاحتكاكات البرانية التي تنشأ عنها النفوس والأرواح .

وهذا يؤكد على أن فكرة الثنائية في الفكر الجانتيني ما تزال لها السيطرة الكاملة ، والقدر العالي نحو توجيه هؤلاء إلى اقتباس ثقافة الاخر من غير هضم واجترارها ثم محاولة إخراجها على أنها نتاج جديد ، مع أنها تحمل ملامح الفكر الهندي القديم، بل وفيها صور متكاثرة لما أنتجه الفكر المصري أبان العصور الفرعونية .

ويلاحظ أن الحركة الطردية المادية التي تتولد عنها النفوس ، تكون لها ارتباطات عديدة بالأصل الذي نشأت عنه. ثم امتدت هذه الأفكار إلى العصر الحديث فظهرت لدى جوتفريد ليبنتز من خلال فكرة المونادات المتعددة. أو الأصل الذي نشأ عنه العالم الذري الغريب ، حيث أكد وجوده واستقلاله، وإن كان في النهاية قد سعى لإرضاء رجال اللاهوت المسيحي. فألقى إليهم ببعض المفردات اللغوية عن المونادات زاعما أنه قصد بها الكائنات الأولى التي نشأ عنها العالم[٣] ، وليست هي فاعلة الخلق في العالم، مع أن

---

(١) مشكلة الحرية الشخصية لها جذور في الفكر الفلسفي، كما أنها تتعلق بالأخلاق من ناحية الفعل الإنساني ومسئولية صاحبه عنه ، على أساس أن الفعل الإنساني إما أن يكون بالاختيار التام، أو بالإكراه التام، أو في جانب منه يقع الاختيار ، وفي الجانب الآخر يأتي الإكراه، والاضطرار، راجع كتابنا: غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق، لأن هذه المسألة لا يمكن الفصل فيها من خلال كلمات قليلة، بل تحتاج بحوثا مطولة بجانب مناقشات جيدة .

(٢) هذا الفهم الغريب يطرح سؤالا جديدا عن العلاقة بين النفوس الضعيفة والارادات المتعددة من جانب، والمسئولية الشخصية والأدبية عن الأفعال الصادرة من جانب أخر، وكل منهما يحتاج إجابة محددة .

(٣) راجع لجوتفريد لينتيز : المونادولوجيا، ترجمة الدكتور عبد الغفار مكاوي، فقد تحدث عن هذه المونادات أو الجواهر الصغيرة، حديثا مطولا بوجهة نظر فلسفية خاصة به .

كتابة المونادولوجيا تحمل نفس هذه الأفكار التي كشفت علاقتها بالفكر الفلسفي الذي كان له وجود سابق لدى الجانتينية الهندية القديمة .

ب - مناقشتها

لا شك أن الحركة الطردية تمثل تطورا فكريا يمكن اعتباره صورة وثانقية تجرى مع هذا الفكر في مراحله العديدة، لكنها لم تنل القبول من الناحية الميتافيزيقية التي جيء بها لأجلها. أما لماذا؟ فلما يلي :

١ - إن موقفهم من الحركة الطردية جاء غامضا جهما، إلا حد الإبهام ، سواء عند تعرضهم لها أو أثناء بناءاتهم الفكرية لماهيتها. والمعروف أن الحركة الطردية مبدأ فيزيقي عام . فإدخاله إلى الميتافيزيقا تجريد له عن أصله[1] ، وتحول به من قاعدة طبيعية فيزيائية إلى فكره فلسفية[2] . لا تتم معالجتها . أو التعرض لها بطريقة علمية تجريبية .

يقرر " أدونس " أن المبادئ الفيزيائية تظل ثابتة في ذاتها، ولا يمكن أن تتحول إلى مبادئ ميتافيزيقية، وإلا كنا كمن يسعى لتحويل الذهب إلى تراب، ومن ثم يحكم على عقله بالفساد، وعلى عملة بما هو الفساد ذاته، نظرا لتباين مبادئ كل منهما تباينا كبيرا[3] ، وهو الذي يمكن انطباقه تماما على الفلسفة الجانتينية[4] أثناء الحديث عن الحركة الطردية المنعكسة .

٢ - إن اعتبار الحركة الطردية من الأمور الكامنة في العناصر ، هو ذاته ما يعرف

---

(١) ادوارد فيكتور: الميتافيزقا والطبيعة، صـ ٢٤٥، ترجمة عادل صابر، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦ .

(٢) الفرق بين الميتافيزيقا والفيزيقا هو نفسه الفرق بين الحلي وأحجار الطواحين من ناحية الغايات والأهداف التي تسعى إليها كل منهما، لأن الميتافيزيقا بحث فلسفي في جوانب العالم الغائب من كافة النواحي، بينما الفيزيقا بحث طبيعي يتعلق بالعالم المشاهد، أو على الأقل يقود الباحث فيه حتى يتعرف على الطبيعة بمعناها الحرفي دون احتياج لشيء خلف ذلك، راجع كتابنا: رياض الأشواق في الميتافيزيقيا الأخرق، صـ ٢٨٧ .

(٣) جورج أدونس: المبادئ الفيزيائية والميتافيزيقية، صـ ١١٧ ، ترجمة علية عبد الرحمن ، مراجعة إيناس عابدين .

(٤) أنا لا أبحث عن الجوانب السلبية في هذه الفلسفة ، كما لا يعنيني الوقوف طويلا بشأن قضاياها التي تتمسك بها وتدافع عنها، لكن الذي أهتم به هو حرية الفكر الإنساني ، مع ضرورة التزام الحيدة والموضوعية، لأن ذلك شأن الباحث الجيد، والمفكر المنصف .

بـنظرية الكمـون. وهي قـديمة تمت دراستها في العلوم الطبيعية. كما عرفت داخل المباحث الميتافيزيقـية. لكن مجيء الآلية معها حولها من فكرة لها وجود ذاتي . في الفكر الفلسفي إلى صورة غـير مقـبولة لـدى أصـحاب الفلسـفة العقلية جميعا. صحيح قد تجد لها آذانا صاغية وبخاصة عندما يتعرض الأمر للآلية الذرية[١] وهي غير مراده هنا. لكنه يؤدي إلى الحكم على الفكرة بأنها ناقصة ٠

٣ - تقسـيـمهم لـلأرواح بـين مقـيمة سـعيدة . وطريـدة معـذبة شقية. وتردد النفس الواحدة بين هـذين القسمين على الدوام يقدم مفاجأة غير سارة بالنسبة لأي فكر . لأن هـناك مـرحلة وسط. أو حالة انتقال من السعيدة إلى الشقية. فكيف يتم وصف ذات المـرحلة ؟ هـل يمكـن القـول بأنها تمثل حالة وسط. ولئن كان الأمر كذلك. فبأي اسم. أو تحـت أي مسمى تتم دراستها؟[٢] أم أنهم يجعلون هناك مرحلة ثالثة ، واقعة بين المرحلتين بحيـث تكـون إحداهمـا تمثل البداية. على حين الثانية تمثل النهاية. ثم تكون التي في الوسط مجهولة الموقع أو التـسمية !٠

٤ - هم ذهبوا إلى أن الحركة الطردية المنعكسة تنشأ عنها أرواح وانفس كثيرة. وعـوالم مخـتلفة الظواهـر. ومـع ذلك. فعناصرها جديدة. والسؤال الآن هل يمكن اعتبار المسـألة الفاصـلة بـين العناصر القديمة والعناصر الجديدة. مرحلة مهمة أو جديدة. وإذا كان الأمر كذلك ، فما هو الوصف الذي يمكن إطلاقه عليها[٣] ، بل من أي مادة. أو عناصر سابقة تكونت الجديدة. أم أنها تكونت من ذاتها فتكون هي الفاعل والمفعول في وقت واحد ولا يقول بذلك صاحب العقل السليم ٠

٥ - أن فكرة الحـاوي الأصـلي والـحاوي التبعي أو الأصـغر تكـرر القول بها في

---

(١) فكرة الآلية الذريـة يرفضـها الكثيرون من أهل الفكر الإسلامي قبول الآخذ بها، نظرا لخروج البحث فيها عن المقتضي له، بل صارت الفكرة قرينة الارتباط بالفساد من ناحية الفكر الفلسفي ، وكذلك الأخلاقي أيضا ٠

(٢) هذه الأشياء مشروعة من جهة العقل، كما تفرضها طبيعة البحث في هذه المسائل ذات الارتباط الخاص بالميتافيزيقا أو على النواحي الغيبية التي لا مكان فيها للعقل من ناحية الاستدلال عليها في شكل تفصيلي ٠

(٣) فكرة الإطلاق أو الوصف من القضايا الهامة جدا في تاريخ الأديان، وكذلك الشأن مع الأديان المقارنة، بل هي مهمة بالقدر الذي يعول عليه كثيرا في تحديد المصطلح ٠

التراث الهلليني القديم . لكن من خلال الحاوي العام والحاوي الخاص، بناء على فكرة سابقة في الذهن يرجح أن وجودها القديم كان بمصر . ومفهوم الحاوي من الناحية العقلية هو العقل لأنه يحوي المعارف التي أمكنه الوقوف عليها. والمحوي هو العلوم والمعارف المختلفة[١] . أو أن الحاوي هو الكون المادي . ويطلق عليه الحاوي العام. بينما يطلقون على الجسم الإنساني اسم الحاوي الأصغر ٠

من ثم فإن فكرة الحاوي ليست وليدة الفكر الجانتيني، وما طرأ عليها من تعديلات لا يطمس وجه الحقيقة، لأن الفكر الجانتيني في مراحله الأولى لم يكن منظما، كما لم يكن منطقيا حتى يقدم مثل هذه المعطيات، أو ينتج ذات النتائج التي توجد بينها وبين الفكر الفلسفي بعض الصلات [٢] ، وبناء عليه . لا يمكن القول بأن الحركة الطردية من بنات الفكر الجانتيني الذي تلبدت سماؤه بالغيوم، وامتلأت أرضه بالأنفاق والأخاديد، حتى صار مفكروه كلاعبي السيرك يقفزون وسط النيران المشتعلة بغرض إدهاش المشاهدين ٠

٦ - إن فكرتهم عن الحرية الشخصية ، جعلتهم يصطدمون بالقواعد العامة، ثم كانت النهاية حين طوروا في مدركات النفوس ، أو فرقوا بينها حينما كانت حبيسة أو طليقة، واعتبروها أثناء اعتقالها في الأجساد وعاجزة عن الهرب ، بينما لم يقيدوا الأجسام بذات القيود ولا نفس الصفات[٣] ، مما جعل فلسفتهم ذات طابع مادي مغلف بجوانب روحية خادعة ٠

مما سلف بيانه. اتضح أن موقفهم من الوجود على الناحية الفلسفية، إنما هو موقف غامض ، ومحاولاتهم تفسير نشأة العالم الطبيعي اتسمت بالعشوائية ، والبعد عن القواعد العامة والأصول المتبعة، أو على الأقل التي كانت سائدة أبان تلك المرحلة من تاريخ الفكر الإنساني، وبالذات في بلاد الهند القديمة، بل يمكن القول بأن أفكارهم الفلسفية كانت أقل من توجهاتهم العقلية[٤] ، وبحوثهم حول قضية الوجود ، بداية

---

(١) راجع كتابنا تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية، جـ ١ ، صـ ٢٧٣ / ٢٧٥ ٠
(٢) بدليل كونه غير منطقي منذ اللحظة الأولى هروبهم من الواقع إلى غير الواقع و بعبارة أخرى، انعزالهم الجسدي عن مشاركات الناس،وانخراطهم في زهد كاذب أو حياء مصطنع ٠
(٣) راجع لهيداسون دافي : الحركات الفكرية في الهند القديمة ، صـ ٢٤٥ ٠
(٤) تساوي العقول مع الناتج عنها أمر مهم، أما تدهورها في الناتج مع العلو في المستوى العقلي فدليل على أنهم خالفوا القواعد العامة بالنسبة لأية قوانين فكرية، وهي مسألة على قدر كبير من الأهمية ٠

ونهايـة. كانـت اقرب شبها بعمليات التجميع التي تقوم بها الفلول الهاربة من أرض المعركة بعد خسارتهم الفادحة .

كما تكشف عن طبيعتهم العقلية ومستوياتهم الفكرية، وأبسط ما يقال بشأنها أنها أفكار موؤدة قطعت أطرافها. وشوهت معالمها، حتى صارت مجهولة تماما، ثم ألقيت بفلاة في غسق الليل البهيم. فلما تنفس الصباح . وأسفر وجه النهار. نظر العقلاء إلى هذا الطريح نظـرة يرومون منها استجلاء الحقيقة. لكنهم فشلوا لأن هذه الموءودات خالية تماما من أي تصـوير يكشـف طبيعة العلاقات. أو يهدي إلى أقرب التوجهات(١). وهذه الأفكار وأمثالها تحفـل بهـا مـزابل الـتاريخ ومكانهـا سـلال المهمـلات الفكـرية، بغض النظر عن مكوناتها وعلاقتها بالطبيعة الإنسانية، لأنها تخالف الواقع ، كما وتعاند أحكام الشريعة الإلهية .

موقفهم من نظرية المعرفة

الباحـث عـن نظـرية المعـرفة بالمعـنى الفـني الفلسـفي لا يجدهـا داخـل الفكـر الجانتـيني عـلى صـورة من الصور. بل ربما أعياه البحث عنها ، وفي النهاية يلاقى مزيد الجهـد والعـناء. وإذا أمكـنه الوقوف على شيء منها فلن يكون سوى شذرات تبرق حينا ثم تخـتفي. وبناء عليه فقد صار من الضروري التنقيب عن آية فكرة لديهم يمكن اعتبارها البدايات الموصلة إلى نظرية المعرفة أو رأيهم فيها .

١ - وسائل المعرفة

الوثـائق التاريخـية تـنطق بأن هؤلاء نظروا للمعرفة من ناحية الوسيلة والمصدر الحسـي أولا (٢) واعتـبروا الحواس الظاهرة هي المصدر الأصلي للمعرفة، ومن هنا ذهبوا إلـى أنها نسبية لا تـتجاوز حدود الحواس، بل ولا يمكنها أن تتجاوز حدود الزمان والمكان ، والحركة داخل الإطار الحسي يقول " ول ديورانت" : لقد وضعوا المعرفة وصنفوها بأنها لا تـتجاوز حـدود النسبى الذي يقع في الزمان، فكانوا يعلمون الناس أن ليس ثمة حق إلا من

---

(١) راجع كتابنا: التفكير الإنساني أصوله ومستوياته، صـ ١٨٧ وما بعدها، لأن الفكر مجهول الهوية لا يعتد به أبدا .

(٢) هذه النظرة سمة أصحاب الفكر المادي قديما وحديثا، وهم لا يهتمون إلا بها أو ما يترتب عليها، راجع كتابنا:الصيغة الوضعية بين المعقول اللامعقول حيث تابعت ا لجذور التاريخية لهم .

وجهة نظر معينة. ولو نظر إلى هذا الحق الذي عرف عن طريق وجهة النظر هذه من خلال وجهات نظر أخرى. لكان الأرجح حسبانه عند الجميع باطلا(١) .

وكل معرفة تقوم على وسائل حسية. فلا شك أنها تكون نسبية أيضا. تبعا لظروف ذات الحواس وإمكانياتها المختلفة . فإذا كانت العين غير قوية الإبصار فإن المعارف الآتية من طريقها تكون بنفس القدرة(٢) أما إذا كانت قوية الإبصار فإن المعارف التي تجيء من ناحيتها تكون بدرجتها. وهو ما يعرف بنسبية الحواس. ونسبية المعارف التي تجيء من ناحيتها .

ومن المعلوم أن كل الحواس تقع في هذه الدائرة من القوة والضعف. و النسبية هي المعيار لها. ومن ثم ذهب الكثيرون من الفلاسفة إلى أنها معارف غير يقينية(٣)، ومع هذا فإن أصحاب الفكر الجانتيني ما يلبثون أن يأخذوا القارئ إلى مشكلة معرفية جديدة تتعلق بكيفية إدراك الأنفس لما هي فيه من آلام ومتاعب ، مادامت قائمة داخل نطاق الاحتكاكات الناتجة عن جملة من الجواهر البسيطة والحاويات المختلفة. المتفاوتة في الصغر والكبر. كما تحدثوا عن اللذة والعشق الذي يكون بين هذه الحاويات. والعناصر المادية من ناحية. والنفوس المتألمة من ناحية أخرى(٤). فمن أين جاءت هذه المعرفة ؟

مما لا شك فيه هو أن العلاقة التي وضعت بين كل من اللذة والعشق من ناحية. والعناصر المادية ممن ناحية ثانية - وهي العناصر التي تكونت عنها عناصر العالم الطبيعي في مرحلة من المراحل - قد تحولت في الفكر الجانتيني من علاقة صامتة جامدة ،

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ، المجلد الثاني، جـ ١ صـ ٥٩، حيث عرض هذه المسألة في إلمامة عاجلة ، لأنه يورخ للطائفة والتاريخ الفكري العام .

(٢) وهذه النتيجة يشهد لها الواقع العلمي ، والموقف الحياتي، الذي يمارسه أفراد البشر ويعبرون عنه وهم في ذات الوقت لا يعنون بشيء وراء ذلك، وتلك هي مشكلته الأساسية .

(٣) ونحن نعتقد أن المعارف التي تجيء من طريق الحواس وتتعلق بإثبات المعجزات للأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، تعتبر معارف يقينية، مع أن طريق إثباتها الحواس ، لما هو معروف من أن أقوى طرق إثبات المعجزات المشاهدة لمن وقعت أمامه، ثم النقل المتواتر لمن لم يشاهدها ، راجع كتابنا: الغزاليات في النبوات، صـ ٤١٨

(٤) من الواضح أن عملية الإسقاط للأحداث التي اهتم بها أصحاب هذا الفكر لم تكن في وضعها الصحيح، وإنما جاءت في صورة بعيدة عن الأصول العامة والقواعد المتفق عليها ، بدليل وجود عملية التزاوج الغريبة التي حاولوا التأكيد عليها بين العناصر المادية والنفوس المتألمة، وهو فكر غريب بعيد كل البعد عن القواعد الصحيحة .

إلى علاقــة ناطقــة متحركة .و هذا مما يوافق فكرتهم حول كون الأرواح سارية داخل العالم الجمــادي أيضــا. وهــو مما لا يقول به عاقل. وإلا ما كان يسمى بعالم الجمادات مادامت فيه حياة وحس وحركة .

أفكارهم المعرفة اليقينية

اعـتقد الجانتـيون أن الإنسـان مقـياس الحقـيقة . وأن المعـرفة لا تـتجاوز حدود النسـبي ا إلى لمطلـق أبـدا في أي حـال مـن الأحـوال . و كما ضيقوا مفهوم النسبي وجعلوا لاتعـامل معـه يـتم في أضـيق الحـدود حيث حدوه بأنه الذي يقع في زمان بعينه، وراحوا يعـلمون الناس أنه لا يوجد حق مطلق، بل ولا معرفه يقينية، وإنما الحق نسبي من وجهة نظر صاحبه فقط .

وتـبعا لذلـك، قالوا المعرفة نسبية من خلال الحواس التي تجيء عنها، ولو نظر المرء إلى الحق أو المعرفة التي جاءت معه لم يكن بحاجة لمقارنتها بما ذهب إليه الآخر[١] ، وإلا لكان كل منهما باطلا على الوجه الأرجح .

ويذكـر " ديو رانت " أنهم كانوا يؤكدون على فكرتهم هذه ،من خلال سوق قصة العمـيان السـتة الذيـن وضـعوا أيديهم على أجزاء مختلفة من جسم الفيل، فمن ضع يده على أذنه ظن أن الفيل مروحة ضخمة لذر الغلال، ومن وضع يده على ساق الفيل ، ظن أن الفـيل عمـود مسـتدير كبير. فالأحكام كلها إذن محدودة بحدود ، ومشروطة بشروط، وأما المعرفة الكاملة، أو الحقيقة المطلقة فلا تتكشف إلا لهؤلاء المخلصين الذين يظهرون على فـترات متـباعدة، وهـم طائفـة "الجـنا" أو " الجانتـيون "، وليسـت أسـفار الفـيدا أو الأوبانشاد في سد هذا النقص الشديد[٢] .

مـن المؤكـد أن هـذا الاتجـاه في إنكـار المعـرفة اليقيـنـية، واعتبار الإنسان مقياس الحقـيقة ، وعنوان الوصول إليها أو الوقوف عليها، قد تأثرت به كل الأفكار القائمة ، كما

---

(١) نسبية تحصيل المعرفة بشكل عام قد تكون فكرة مقبولة أو غير مقبولة، إلا إذا أريد بما يجيء معها عن طريق العلم الحادث حينئذ يحدث تعديل في الأحكام، وإلا فإن فيها جوانب متعلقة بالله تعالى، وصفاته ، وكذلك الرسل والملائكة والأصول الإيمانية،لأنها مادامت جاءت من عند الله فلو وقع إدراكها من ناحية الحس فإنها تكون معرفة يقينية بهذا الاعتبار .

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الثاني، جـ ١ ، صـ ٥٩ .

عـزز دور الحـواس في الوقوف على المعرفة الحسية، وأنكر في نفس الوقت أن يكون للعقل أي دور معـرفي حقـيقي [١]، بل الأكثر من ذلك جعلهم التريض والتزهد والتقشف وسائل للـرقي المعـرفي والـتقدم الحضـاري، بجانـب الانـتقال المعرفي بين الأدنى والأعلى، أو من الأدنـى للأعـلى. مع أن ظاهر العبارة واضح في إنكار المعرفة الحسية وحدها، لكن النتيجة جاءت معاكسة للاتجاه الذي يسيرون عليه وانتهت إلى إنكار اليقينيات ٠

ويتضـح التناقض في الفكر الجانتيني من خلال اعتقادهم صحة المعارف الآتية عن طـريقهم أنفسهم ووحدهم [٢] مع أنهم بشر فيهم من أوجه القصور الكثير، وما اختلافهم عـن بـاقي البشر ! لا بشيء من العوارض كالتقشف والتزهد أو التريض وغيرها مما يدخل في نطـاق الحـيل الـتي تكشـف طبـيعة هـؤلاء وتسـم أقوالهـم بالتضـارب الشديد[٣]، وأفكارهم بالتباين واعتقاداتهم من المبتدأ للمنتهى بالفساد. ومن كافة النواحي ٠

وقد يحاور المرء في فكر هؤلاء لأنهم جعلوا للكائن الروحي السيطرة الكاملة، حتى قـالوا في كـل الكائـنات روح تحـيا حياة كاملة، وحياتها تكون بغير شائبة تلام عليها، لأنها داخلـة في نطاق " الباراماتان" ومع هذا يسمحون للأرواح أن تتقمص أجسادها الجديدة إذا ما نالت من الجزاء حقها الموفور أو حظها الذي هو لها، حتى يكون هو ذاته الذي تـرضاه، أو يخلصها من ا لآلام، ويعيدها إلى اللذة في أجمل صورها وأكملها [٤] ٠

أجـل، قـد تزول الحيرة مؤقتا إذا ما أدرك المرء أنهم في كل حالاتهم يقتبسون من الأفكـار الـتي تصادفهم مـا يمكنهم الوقوف عليه. ثم يضمون هذه الاقتباسات بعضها إلى بعض، حتى يعلقون على هذا الخلط آمالهم، بل، ويعتبرونه المعبر عن أفكارهم [٥]، وما هو

---

(١) وهذا الاتجاه هو الذي يسعى لتأكيده أصحاب الفكر الجدلي قديما، متمثلا في السوفسطائية بكل طوائفها وتوابعها، وأصحاب الفكر الديالكتيكي في العصر الحديث متمثلا في الوضعية بكل طوائفها، وجميع اتجاهاتها، بل هي الصورة المعبرة عنه في شكل دقيق ٠

(٢) راجع لجورج أدونس: المبادئ الفيزيائية والميتافيزيقية، صـ ١٩٥ ٠

(٣) هذا الاستنتاج قد اعترف به كل من كتب عنهم أو بحث في تاريخهم الفكري ٠

(٤) راجع لرامز تريفون: الاتجاهات الفلسفية في الفكر الشرقي القديم، صـ ٢٨١/ ٢٨٢ ٠

(٥) اقتباس أفكار الآخر مسألة قديمة، ونسبتها إلى ذويها هو القاعدة الأصلية، لكن ظهرت طوائف سلبية تتعلق بنسبة الأفكار المقتبسة إلى ذات القائل لها، ومن هنا ظهرت الانفلاتات الكثيرة، وعرف اليوم باسم السرقات العلمية والأدبية، وهي مأس كثرت في هذا الوقت الذي نعيشه، ونسأل الله تعالى لنا السلامة والنجاة ٠

إلا كالثوب الخلق، الذي تهلهلت أجزاؤه، وانقطعت غزولها، لكونها من بقايا أثواب بالية جمعت، تعددت ألوانها، واختلفت موادها، فخرجت الرائحة الكريهة منها معبرة عنها ٠

علاقة الجوع والتريض بالمعرفة

يذهب الجاتتينيون إلى أن الجوع والتريض من الوسائل المعرفية الهامة. حيث يقولون: أن تخلى البدن عن اللذائذ هو ذاته التخلي عن مسببات الآلام، وذلك م شأنه أن يجعل الروح ترقى بإستمرار. والنفس تصعد على الدوام، حتى تدرك كل منهما معارف ذاتية، ولا طريق إلى هذه المعارف إلا الجوع والعطش، وقهر ملاذ النفس، بجانب القدرة على احتمال الآلام [١]، حيث أن هذه العوائق تحجب عن الإنسان المعرفة الكاملة، وهي في ذات الوقت حواجز وعوائق تعددت أسقفها التي وضعت بعناية شديدة من قبل الكائنات السابقة ٠

لكن ما هو الطريق لبلوغ المعرفة الجيدة التي من وسائلها التريض والجوع، والجواب أن هذا يكمن في سيطرة الإنسان على جميع نوازعه مع التخلي الكامل عن كل ما يملكه من أسباب الحياة التي تمتلئ بالرفاهية، وهو في نفس الوقت يعيش أيامه وتمر به لياليه، ويستمر في طريقه هذا حتى يبلغ الحياة الجديدة التي تكون في جسد جديد خال من الشعور بالآلام والمنغصات النفسية والبدنية، بل والعقلية والعاطفية أيضا ٠

ولما كانت فكرتهم العامة قائمة في أن الكائنات جميعها أرواح سيارة، لا تنقطع حركاتها، فمن المناسب أن تكون المعرفة الكاملة متعلقة بالأنفس والأرواح أكثر من تعلقها بالأجزاء أو العناصر المادية [٢] وبالتالي فلا تكون هناك عوائق مادية تحول بين ذات الكائنات كلها والوصول إلى المعارف الصحيحة، بل أن مقدمات أفكارهم المعرفية تلزمهم القول بأن الكائنات الجمادية كلها عاقلة عارفة مادامت فيها أرواح سيارة مع أن الإدراك المعرفي إنما يكون بالروح لا بالبدن ٠

---

(١) راجع لانجلر هارفي: العقائد والديانات القديمة، صـ ١١٧، ترجمة عبد الباقي خليل، هاني عبد العظيم ٠

(٢) مسألة ارتباط المعرفة وارتقائها بعمليات الجوع والعطش والتريض قديمة في الفكر الإنساني القديم، بل والحديث فضلا عن المعاصر، بالرغم من رفض الحدسين والحسبيين لهذا الاتجاه ومن ثم فما زالت المشكلات المعرفية قائمة ٠

بيد أن التريض إذا كان المراد به عدم تعذيب لنفس. فإنه يكون مقبولا . وكذلك الحال مع الجوع ، مع ملاحظة أن المعرفة الإنسانية ترقي بصاحبها في حالات عديدة وبخاصة إذا كان هذا الأمر متعلقا بالجوانب القلبية أو الوجدانية . وفي الحكم الإسلامية . ما ذكر عن الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه من قوله : من أكل كثيرا نام كثيرا . ومن نام كثيرا فاته خير كثير .

علاقة المعرفة بالكسب

يذهب الجانتينيون إلى أن المعرفة كسبية كلها، وأنها تقع للإنسان بالمجهود الحسي وحده [١] . ثم يجيء بعد ذلك الذي يترتب عليه، من تعلم وتلقين. كالحال مع بطلهم ماهافيرا الذي ترك المال والثروة . وأسباب الترف والنعيم ، ولجأ للتقشف والفقر . ثم تعلم من الناس واتخذ الوسائل العديدة الكافية ليكون عارفا. وكان الجوع والتريض بأنواعه المختلفة من السير على الأقدام حافيا لمسافات طويلة. وارتياد الأماكن المجهولة مع قلة في الزاد. بجانب الاحتكاك المتواصل بأهل المعرفة حتى يستفيد منهم، وأهل الخبرة يأخذ عنهم [٢]، هو الأصل والأساس بالنسبة له وفي النهاية فهم الذين منحوه طرائق المعرفة الكاملة التي ازدادت بعد تكرار التقائه بالقديسين المتألهين على الدوام .

لكن هل تأتي على تلك المعرفة الكسبية العوارض الطبيعية من النسيان والسهو بجانب الغفلة وغيرها . [illegible]؟

الحقيقة أنهم لا يجدون حرجا من ابتلاع هذه الأسئلة. وقبول ذات التساؤلات. مع عدم الالتفات إليها بحال من الأحوال. فإذا ما استمر البحث داخل الأفكار التي نقلت عنهم تبين وجود جملة من المبادئ المعرفية الدالة على وقوعها في دوائر العوارض كلها، ويتم ذلك أثناء سير الإنسان الجانتي إلى غايته، وهي الاتحاد بالآلهة العظمى ، أو

---

(١) عملية وقوع المعرفة على الطريقة الكسبية وحدها تلغي الاعتراف بوجود المعرفة الإلهامية أو الوهبية، ولا تضع في حسبانها شيئا من ذلك، وتلك مسألة لم تلق القبول حتى اليوم ، بدليل وجود النزعات المستمرة في انحصار المعرفة داخل المجهود الشخصي أو انفصالها عنه .

(٢) الواضح وقوع القوم في التناقض ، لأن المعرفة الكسبية تجيء من خلال تعامل الفرد مع الآخرين ، بينما عباراتهم تركز على الإلهام وحده ، فكيف يتفق الأمران مع ما فيهما من تناقض .

القديسين المتألهين (١) . وهذه العناصر المعرفية . تؤكد أن الباراماتان نفسه .قد تلقى العلوم والمعارف من أفاضل الزهاد في عصره. وبخاصة اتباع مذهب " نيراجراتناس " الذي كان شائعا وله الشهرة البالغة في عصره . وقد تردد عليه ماهافيرا . وظهرت آثاره في فكره. إذ كان البعض يتهم جيراينتاس بما لا يليق . وقد أعجب به تطلعهم . ثم صار واحدا من تلاميذه المغتربين . ويذكر " جيرمان " أن بطلهم هذا نشأ على مذهب نيرجرانتاس في المعرفة وأنه قد تعلق به إلى أبعد مدى. وأذعن لأوامره التي كانت قائمة في ضرورة ممارسة الجوع والعطش بجانب التشرذم في الأرض مع التسول. ثم ترك سؤال الناس والتمس سؤال الكهنة المتقدسين أو القديسين المتألهين (٢) .

كما دلت المصادر ذاتها على أن تعليمات الجانتينيين الأوائل كانت أول أمرها شفوية، غير تقيديه تحريرية . كالحال مع المدرسة السقراطية اليونانية، حيث كان البطل يلقي هذه التعاليم على تلاميذه أو طلابه. ثم يطلب إليهم عدم تسجيلها في أوراق حتى لا تنسى، اعتقادا منه أن ما في الكراس غير ما في الراس. وأن العلم يجب أن يكون على الدوام في الرأس لا في ورق الكراس. ومن ثم كانت الثقافة المعبرة عن فكرهم المعرفي هي أيضا أحد المصادر الهامة للمعرفة عندهم، بدليل أنهم سمحوا لناقلي الفكر الجانتيني بالتدخل العقلي، عندما يراد نقل هذه الأفكار والمبادئ إلى الغير الذين يراد إدخالهم في ذات الجماعة . أو عندما يحاول البعض تفهيم الناس هذه المبادئ ، التي هي في الأساس أصول المذهب، أو عندما يتعلق الأمر بشرح القواعد التي يقوم عليها .

دور المصدر العقلي في المعرفة

العقل من منح الله تعالى لعباده العقلاء، حتى قيل أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين العباد (٣) ، وفي الأمثال يقولون قسم الله الأرزاق فاستقل كل واحد رزقه ، وعندما

---

(١) راجع لادوارد هيلموث: الحركة الفلسفية في الهند القديمة، صـ ١١٥، ترجمة عطا رزق، ط. أولى سنة ١٩٧٤، حيث ذكر هذه الجوانب، وحاول تقديم انتقادات عديدة لها بجانب توجيه الاتهامات في بعض الأحيان بالاقتباس والنقل عن الآخرين من غير إشارة إلى شيء أبدا .

(٢) راجع لجورج جيرمان: الفكر الهندي القديم في جانبه الفلسفي، صـ ٢٢١، ترجمة حنان فوزي، ط. الموصل سنة ١٩٨٥ .

(٣) رينيه ديكارت: مقال في المنهج، صـ ١٥٣ ، ترجمة الحضري، وراجع كتابنا: خطوات حثيثة في الفلسفة الحديثة صـ ٢٩٧ .

قسمت العقول استحسن كل واحد عقله [١] . بدليل أنك قد تلاقي أفرادا كثيرين يرفلون في بحبوحة العيش الرغيد، ومع هذا فكل ينظر إلى منه هو أعلى من أو أكثر ما لا وولد، وربما قال في نفسه أو حدثته الأمارة بالسوء قائلة له أن هذا الذي أنت فيه اقل مما هو لدى غيرك،حتى يكره عيشته رغم ما هو فيه.ويظل متطلعا إلى ما في يد غيره، طامعا فيه.

وقد يلاقيك أفراد كثيرون في مكان ما، أو يحدث حوار في موضوع ما، فإذا جلستم المجلس، أو ابتدأتم الحوار، اعتد كل برأيه وتمسك به، واعتبره الرأي السديد، والقول الفريد، بل ربما قفز على أكتاف الجميع مؤكدا أن رأيه الوحيد الذي يقبل التطبيق، ويجب على الجميع احترامه[٢] مهما كانت أوجه القصور فيه، أو تعددت وجوه ضعفه وانكشفت عواريه والغريب انك قد تسمع الرأي الذي يدعيه صاحبه فتراه لغيره ، وما هذا سوى مردود غير أمين ، وحامل لهوس فكري غواريه لا يتفق مع عواريه .

وربما انتصب على قدمه ، أو انقلب من ناحية رأسه مسفها أراء الآخرين، ناعتا إياها بالسقوط، باعثا عليها بأنها تحمل السوء وهو في سبيل ذلك لا يبالي، المهم لديه أن يكشف عوارتها ، ويبين فسادها، ويجهد نفسه حتى يبلغ ذلك الهدف، وربما حول الألفاظ عن وجهتها التي قصدها أصحابها إلى وجهة لم تدر لأحد منهم على بال .

المهم أن يكون كلامه هو المقبول، ورأيه المسيطر وشبهته الغالبة، بل يحاول إكراه الآخرين على الاعتراف بأن فكره الراجح، ورأيه الصواب الذي يجب اعتقاده والعمل به[٣] ويسعى لانتزاع ذلك منهم ، مع أن رأيه قد يكون هو الفساد نفسه، والقصور بعينه، وهي مشكلة يقع فيها الكثيرون إلا من عصمة الله تعالى .

والمعروف أن من التعصب للرأي آفة الآفات ، ومرض من أخطر الأمراض ، بل هو علة لا تفارق أصحابها ،حتى وصف كل متعصب لرأي بأنه أحمق، بالرغم من أنه قد يكون

---

(١) راجع كتابنا: حكم وأمثال، صـ ٢٥٤، حيث عرضت فيه ما يربو على ثلاثة آلاف مثل عربي وعامي وشعبي .

(٢) مع أن القاعدة الشرعية هي البرهان، بدليل قوله تعالى " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" فالرأي الذي لا يحمل البرهان لا يقبل .

(٣) عملية إكراه الآخر على قبول الرأي لا تعبر عن حرية فكرية، إذ القاعدة العقلية تقوم على الاقتناع لا الإكراه والإجبار ، لأن ذلك يلغي حرية التفكير ، كما يقضي على حرية التعبير .

منسوبا للعلم، ومدرجا في سلك العلماء(١) . لأن صاحب العقل الراجح مادام جدله في القضايا النظرية التي لم تبلغ أدلتها درجة اليقين، كما يمكنه أن يقول أن الرأي الذي أقيل إليه صواب يحتمل الخطأ - ومع أنه زكى رأيه .وتمسك به. لكنه فتح باب التوجيه للصواب من دائرة احتمالية الخطأ .

وكثيرا ما يوقع الفكر الساقط صاحبه في الحرج الشديد. وربما جعله في موضع النقد والتجريح. وما ذلك إلا لكونه يعتمد أراء غير صحيحة في أدلتها. متناقضة من حيث نتائجها. غريبة عند عرضها. بعيدة كل البعد عن التعلق بها. كما أنها قد تكون خالية عن الموضوع الحقيقي . خاوية من حيث القيمة . وذلك من أقسى ملامح الآراء التي تتسم بالفساد .

لكن صاحب العقل السليم. هو الذي يعتمد قواعد صحيحة. وتجيء أحكامه متطابقة مع الأصول العامة. وتقوم في ذات الوقت على الأسس التي يجيء بجوارها اليقين حتى تكون إمارة عليه.ودلائل توصل إليه. ومن ثم تتسم بالصدق في المقدمات. مع سلامة النتائج. حيث لا يطمع المرء العاقل أن يزن بعقله إلا ما هو داخل إمكانياته(٢) . ويخضع لملاحظاته وتجاربه بجانب خبراته .

لأن العقل حجة الله على عباده . بدليل أنه تعالى رفع القلم عن فاقدي العقول السليمة أثناء اليقظة. وفاقدي ملكاتها عند الغفلة. أو ما يشبهها. ففي الحديث الشريف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ. والصبي حتى يبلغ. والمجنون إلى أن يبرأ . أو يفيق .

ولو كان العقل غير معترف به كمصدر معرفي، ما عولت عليه الشرائع الإلهية، والواقع يشهد أن كافة الأنبياء ، وجميع المرسلين كانوا يخاطبون في أممهم عقولهم أولا، ثم وجداناتهم ثانيا، ويدفعونهم إلى ما فيه مصالحهم الدنيوية، مع سعادتهم الأخروية،

---

(١) وقد نبه الإمام الغزالي إلى أنه الرأي التعصب وبين إمكانية وقوع المتوسمين بالعلم فيها فضلا عن باقي القوم، راجع كتابنا: حصاد الاقتصاد في الاعتقاد، جـ ٣ ، الأفعال الإلهية، صـ ١١٦ وما بعدها، الفقيه السابعة ، وراجع للإمام الغزالي الاقتصاد في الاعتقاد القطب الثالث أثناء الحديث عن غلطات الوهم .

(٢) وقد نبه إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، جـ ٢ ، صـ ١٥ ، ط. القاهرة، فراجعها لتعلم ذلك جيدا .

من خلال قواعد شرعية [١] . وكلها تخاطب العقل وتثير فيه الرغبة لتحصيل [٢] . كما تقدم له ذلك من خلال الرغبة حتى يفعل، والرهبة لئلا يقوم على الأمر الذي لا ينبغي .

بيد أن الفلاسفة والمفكرين أختلفوا في دور العقل من الناحية المعرفية، وهل يقدم على غيره من المصادر المعرفية كالحس والإلهام أو الحواس، أم يتأخر عنها؟ أم يجئ بين أعطافها ، بخاصة عندما يراد الاستدلال بنتاج العقل أو الاعتماد على ذات النتاج. وكل عرض رأيه، وما يراه قائما أو منتصبا يزود به معه و منتصب زود عن غرضه. ثم انتهى موقف الجميع إلى ضرورة احترام العقل ونتاجه. بل وتقدير دوره، وأنه أحد الوسائل المفيدة لمعرفة قضايا العقيدة بجانب الاستدلال عليها [٣] .

ولا يختلف العقليون عن المثاليين في هذا الشأن . كما أن اختلاف الوضعيين . في أمره ، إنما هو اختلاف في تقدير دور العقل والتعرف عليه، مما لا يوافقهم عليه أحد سوى الوضعيين أنفسهم. كما أن الأدلة ناهضة على خلاف مقصدهم، قاضية بفساد أقوالهم، واهتراء نتائجهم. بدليل أنهم في النهاية رجعوا إلى مصطلح الخبرة والتجربة الذاتية التي قام بها العقل نفسه، ثم استغرقت داخل بين أروقته المعرفية[٤] سواء اعترفوا بذلك أم أنكروا .

من ثم ، فإن العقل في القضايا البرهانية يصلح لأن يكون مصدرا معرفيا على درجة ما من اليقين [٥] . ومتى تعلق بأمور الغيب والآخرة، فإن دوره يقتصر على التأمل فيها، دون أن يثبت أو ينفي. فإن تعرض لشيء من ذلك، كانت نتائجه على أحسن الأحوال ظنية

---

(١) راجع كتابنا: لماذا انتشر الإسلام، جـ ٢ ، صـ ١٧٧، حيث تناولت هذه المظاهر طبقا لما جاءت به النصوص في الشريعة الإلهية الدين الخاتم الذي جعله الله تعالى مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(٢) راجع كتابنا: السعادة في الفكر الإنساني، حيث تناولت أنواع السعادة وموضوع كل نوع كما ذكرت أسبابها والغايات المترتبة عليها .

(٣) راجع كتابنا:الوضعية بين المعقول واللامعقول، حيث عرضت هذه المواقف ، وذكرت الرأي الراجح من خلال الأدلة التي وجدتها حاملة الصواب بين أعطافها، ولا يقدح العقل السليم فيها .

(٤) راجع في هذا الشأن كتابنا: التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ، صـ ١٧٧، وكتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي، الباب الثالث، أثناء الحديث عن منكري الغيب .

(٥) لمزيد من التفاصيل راجع: العقل ومكانته في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة.

احتمالية. بل ربما جاءت كاذبة. على أساس أن العقل يكن قد خاض فيما لا علم له به، ولا إمكانية فيه[١] ، فيكون حالة كحال الصغير الذي دلف إلى سباق العدائيين من غير أن تكون له القدرة على مجرد الحبو . وبالتالي تجيء نهايته مأساوية . لأنه إن لم تطأه الأقدام العابرة على الطريق بقوة. المندفعة بأقصى طاقة. أطاحت به السنون دون بلوغ أية غاية . مهما كانت متدنية عند السباق ٠

وأصحاب الفلسفة الجانتينية. لا يهتمون بالعقل كمصدر معرفي ، إلا عندما يريدون فحص الأساطير التي تواجه تحركاتهم الفكرية. بغية الرجوع للحقائق. أو التخلص من أوهام النفس. وآثام العقل. والتخلي الكامل عن جميع الأغراض الشخصية والملذات الذاتية [٢] . فالعقل عندهم ليس وسيلة معرفية كاملة. بقدر ما هو سلم في الوصول لمبادئ أخلاقية تعين هي الأخرى على الطهارة من الأثام [٣] ، لغرض أسمى وهدف أعلى، يرتبط بالقيم الأخلاقية التي أندفع إليها الجانتينيون الأوائل. من غير أن يهبط أمرهم إلى حد التدني أو الإسفاف ٠

يقول " هولمز" أن الفلسفة الجانتينية لم تقبل القول بوجود عقل يوازن بين الخيرات والشرور، ثم يجعل الغلبة لتتخلص منهما معا بضربة واحدة، كأن هذا الإنسان من الجنس الطوباوي[٤]، الذين لم توجد فيهم ملامح الشهوة، ولا يمكن أن يقترب منهم دافع يقود للشرور، أو يدفع إليها، أو يمضي قدما نحو الخيرات، فالإنسان عندهم يتناسخ تصاعديا وتنازليا. وهو في كل حالاته لا يملك سوى جريان الأقدار عليه [٥] ، وهو غير

---

(١) تلك المسألة متعلقة بالغيب ، والعقل غير مهيأ لتناول هذه القضايا لأن إمكانياته أدنى من هذه المسائل العلوية التي لا يتمكن من بحثها، وإذا حاول بحثها على الحقيقة ، وأعلن ما يظنه نتائج، فإنه يكون مغامرا ولا يقبل حكمه ٠

(٢) التخلص من سيطرة الملذات الذاتية أمر مهم لذوي الهمم العالية، والنفوس الكبيرة، ولا يتم ذلك على وجه كامل إلا إذا قام على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم، فإن وسيلة تخالفهما تكون منقوصة ٠

(٣) راجع للدكتور محمود خير الله: الحركة الجينية في الهند القديمة، صـ ١٥١، وراجع للدكتور فوزي صبحي: الفلسفة الهندية القديمة، صـ ٩٥ ٠

(٤) الجنس الطوباوي ، مصطلح يقصد به في الفكر الغير إسلامي في جملة الملائكة الذين يحيطون بأماكن الآلهة في السماوات العلا ويقتربون منهم على الدوام، راجع لدانتي اليجيدي في الفردوس المفقود- المطهر، صـ ٣١٧، الأنشودة التاسعة ٠

(٥) جيرار هولمز: المدرسة الجينية وأهدافها الإنسانية، صـ ١٧٨، والدكتور زكريا على جوهر الديانة الجينية، صـ ١٧٣ ٠

راض بها، إنما يفعل القديسون المتألهون معه كل ما يريدون، وبالتالي فما يريده القديسون يكون هو القدر الذي لا فرار منه ، ولا انصراف عنه ٠

في تقديري أن أصحاب الفلسفة الجانتينية قد اعتبروا العقل مصدرا معرفيا ، لأنهم استعملوه بأقصى طاقة ممكنة ، بدليل توظيفهم له في فكرة الباراماتان، وتصورهم تسلله داخل الأجساد، وتقمصه الصور العديدة للأجساد المختلفة، حتى يلتحم بها، كما أنهم تحدثوا عن الجواهر العنصرية البسيطة، والحاوي العام ، المركب من المادة المسماة عندهم " أدجالا " [١] . و من شأن هذه الأفكار الابتعاد عن ميدان التأمل العقلي أو التعرف على إمكانياته مع الاستفادة بها ٠

لكنهم لم ينظروا إليه على أنه وحده في الميدان، كما لم يقدموه على غيره، كل ما في الأمر أنهم جعلوا المعرفة الحسية سابقة عليه ، وفيها درجة من اليقين أعلى منه، وبالتالي فهم لم يهملوه ، ولم يجعلوه متفوقا بالنسبة للمعرفة الحسية، ومرجع ذلك إلى أنهم في الجانب التقشفي والزهدي إنما يتعاملون مع الحواس [٢] ، فهي التي تجوع وتعطش ، كما أنها هي التي يقع لها التأمل ، وفوق ذلك فإنها داخلة في حركاتهم العادية، وتحركاتهم اليومية حيث يسيرون حفاة الأقدام، وفي بعض الأحيان عراة الأجساد [٣] ، فدل الأمر على أنهم ينهضون بالمعرفة الحسية أو يجعلونها أعلى من آية معرفة أخرى، لاعتبارات حسية أيضا ٠

يلاحظ أنهم لم يفتحوا الباب لمجالات الإلهام القلبي المعرفي، ولا العقلي النوراني [٤] ، كما لم ينظروا إلى مصدر الوحي أو المعرفة النقلية لأنهم حبسوا أنفسهم في

---

(١) راجع للدكتور فوزي صبحي: الفلسفة الهندية القديمة، صـ ٦٣ ، ٦٤، وللدكتور محمود خير الله: الحركة الجينية في الهند القديمة، صـ ١٥٣، ولهولمز: المدرسة الجينية وأهدافها الإنسانية، صـ ١٨١ ٠

(٢) وهذا يؤكد أن المعرفة عندهم حسية نسبية ومقياس الحقيقة بما يفضي إلى القول بأن الأفكار الجانتينية كانت أقرب إلى العقلية الطفوليه منها إلى النتاج العلمي المنظم ، كما بعدت عن العقلية العلمية ذات الأبعاد التي تركز على المعقولات الثانية تركيزا إيجابيا ٠

(٣) كالحال مع فريق أو جماعة العراة التي تمثل البديل ، أو القسم الثاني من الجانتينية في مواجهة فريق أصحاب الأردية البيضاء، وكان قديسوا هذا الفريق عراة على الدوام حتى ظن العوام أن تقليدهم في العري طقس من الطقوس الدينية ٠

(٤) العقل النوراني ، قد يطلقون عليه اسم الحدس أو التلبثاتي، ولكنه أعلى الحواس وأرقى، راجع كتابنا: التفكير الإنساني أصوله ومستوياته، صـ ٢٤٥، وكتابنا: التفلسف ودوافعه وبواعثه، صـ ١٨٩ ٠

إطـار الحـواس. ومـا يجـيء مـن خلالها دون اعتبار لشيء آخر. مع أن المصدر النوراني لا يمكـن تجاهلـه لـدى ذوي العقـول الصحيحة أبدا .بل أنهم في ربطهم بين الروح السارية والـروح السـيارة ، والجسم في تحركاته. أو محاولاته الاقتراب من منطقة الباراماتان، لم يتمكنوا من إهمال هذا الدور غير المرني[١]. ومع هذا فهم لم يعترفوا به، وتلك هي مشكلة لم يقدمـوا لهـا حلـولا . وإنمـا تظـل علامة قوية دالة على أن هؤلاء ما تـزال في أفكارهم أوجه قصور عديدة[٢] وفي نتانجهم من أوجه النقص ما يصعب استكمالها •

كمـا أنهـم تـركوا المصدر الإلهي . ولا عذر لهم فيه. لأن الله تعالى جعل في كل أمة رسولا، فالقول بأنهم لم يأتهم رسل لا يمكن قبوله ، لقوله تعالى وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، فكان عليهم اتباع النذير . والتماس المصدر المعرفي الإلهي ، فهو الذي يوجد لديه اليقين المطلق •

درجات المعرفة

المعلـوم أن المعرفة درجات باعتبار المصادر أو الوسائل والغايات ، فضلا عن النتائج المترتـبة علـيها، لأن الناس ليسوا جميعا سواء في إدراك المعارف، والاحتفاظ بها، أو القدرة على توظيفها والاستفادة منها طبقا للجوانب المختلفة، ولما كانت أنواع المعرفة متعددة، فقد أمكن حصرها من حيث الجملة. في الأنواع المشهورة :

١ - **المعـرفة الحسـية. وهـي ظنية** ، لأن مصدرها الحس ، كما أن وسائلها هي الحواس الخمس الظاهرة . من السمع . والبصر . والشم . والذوق . ثم اللمس[٣] ، وكلها لا تقدم معارف يقينية إلا إذا تعلق الأمر بالمعجزات الحسية. لأن أقوى طرق إثباتها المشاهدة لمـن طالعهـا، أو النقل المتواتر لمن لم يشاهدها[٤] . ومن ثم فالمعرفة الحسية في المعجزات وحدها هي التي يقع فيها اليقين. أما غيرها فلا يقع عليها هذا الحكم ،أما لماذا؟

---

(١) ليس المراد الحركة الظاهرية،وإنما الحركة الداخلية التي تبعث على الخارجية، وهذا الباعث هو البار اماتان، وهو في ذاته غير مرني فكيف وقعت الحركة فيه ؟ •

(٢) يمكن لباحث ما توجيه جهوده لبيان أوجه القصور والتعرض لها على ناحية إحصائية معرفية أو فلسفية، بل يمكن رصدها من الناحية الفلسفية والدينية •

(٣) راجع كتابنا: نظرية المعرفة عند ابن رشد، صـ ٩٨ ، وكتابنا: المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية، صـ ٨٧ ، الطبعة العاشرة •

(٤) راجع كتابنا: الغزاليات في النبوات، صـ ٣١٩، الطبعة السابعة •

فلأن الوسائل في المعرفة الحسية تختلف بين الأفراد من حيث القوة والضعف، المرض والسلامة. بجانب العوارض الأخرى من ليل ونهار . ظلام ونور ، حرارة أو برودة . ثم توافق الأخلاط والأحماض أو تباينها . وفوق ذلك . فإن سلامة القوى النفسية أو عدم سلامتها يؤثر في الأحكام التي تصدر عن الحس تأثيرا معينا. يرتبط بذات القوى (١) . وبناء عليه تكون الأحكام ظنية احتمالية. ولا يمكن حسبانها معرفة يقينية بحال من الأحوال ٠

فمثلا ، العين السليمة ترى الشيء الكبير من بعيد صغيرا ، فإذا اقترب أو اقتربت هي منها أدركته على وضعه الذي هو عليه ، ، أو أمكنها معرفته دون أن تحيط به من كل جانب، أو على ناحية تامة. فما بالك إذا كانت درجة إبصار هذه العين بسيطة نظرا لضعف قوة العين الإبصارية. كما أن ذات العين السليمة، قد ترى الطائرة العملاقة عند تحليقها في الجو على ارتفاعاتها المعتادة كأنها عصفور صغير . أو طائر كبير نوعا ما ، لكن إذا رأتها رابضة فوق أرض المطار (٢) ، أدركت أنها كبيرة الحجم، فإذا تم التجول بداخلها، حكم هذا الرائي بأنها كبيرة المساحة ، عظيمة الجسم ٠

ومتى كانت القدرات والملكات سليمة فإنها تسمح بمعرفة ذلك كله، تم التعرف الدقيق له ، وإصدار الأحكام عليه، أما إذا حدث عوار أو قصور في شيء منها ، فقد لا يكون هناك حكم مؤكد أبدا. بدليل أن الأعمى يسمع صوت أزيز الطائرة، ولا يعرف شيئا عن حجمها ومساحتها (٣) . إلا من خلال ما يلقى إليه . ويسمع به. ويتمكن عقله من تصوره على نحو من الإنحاء .فإذا أصدر حكما بشأنها فإنه يكون ظنا احتماليا ٠

---

(١) علاقة الأثر بالمؤثر أو المتأثر في الفكر الفلسفي بعيدة عن فكرة الارتباط بين الأسباب والمسببات، وتحتاج دراسة مستقلة، لأنها في الأثر والمتأثر تقوم على فكرة التنازع أو السبق لدى العقليين، أما عند المثاليين فالأمر يختلف وتخرج عن العقل والعادة، راجع كتابنا: الفلسفة العامة مباحثها واتجاهاتها ٠

(٢) وهذه الأحكام أيضا مرتبطة بالظروف المناخية، وخلو الجو من العوائق كالغيوم والأمطار، لأن لها دخلا كبيرا في صدور العديد من الأحكام التي قد تنال القبول أو الرفض، من هنا يمكن القول بأن أحكام الحواس مرتبطة بالظروف المؤثرة ٠

(٣) هناك فرق واضح لدى الأعمى، بين معارفه التي مصدرها بعض الحواس، والأخرى التي مصدرها عقله أو قلبه ، فضلا عن الإلهام الذي يأتي الصالحين من عباد الله ٠

يقول " هوناكيت" إن العين إذا كانت كليلة عن الإبصار كله . أو بعضه ، فقد لا ترى الطائرة أصلا بعد تحليقها في الجو. وإذا رأتها فإنما يتم ذلك بصعوبة شديدة تجعل من العسير على ذات العين تحديد أطرافها تحديدا دقيقا[١] . ولا شك أن العين في كافة الحالات السابقة واحدة . ولكن ظروفها هي التي تختلف[٢] . كما أن إمكانياتها وقدراتها تتباعد . ومن ثم كانت درجة الصدق في كل منهما مختلفة. لا بتناء كل منهما على قدرة إبصارية . وإمكانيات حسية. مما يؤكد أن المعرفة الحسية نسبية في أحكامها. ظنية بالنسبة لما يتعلق بدلالتها ٠

ويذهب " وات " إلى أن قدرة العين وحدها لا تكفي للحكم على المعارف التي ترد من جانبها. فيقول أن العين السليمة صحيحة الإبصار في الإنسان العاقل الكبير تختلف عن أحكامها عين الطفل الصغير . مع أن كلاهما صحيحة الإبصار أيضا[٣] . ولكن فارق التجارب والخبرات يكون لصالح الكبير. حتى وإن اختلفتا اختلافا نسبيا في القدرة الإبصارية[٤] على أساس أن المعارف السابقة لدى هذا الكبير تمثل رصيدا معرفيا . يكون له دور كبير في ترجمة ما ينعكس في قرنية العين. وبالتالي يميز للرائي بين الأشياء من خلال معارفه وخبراته وتجاربه. بجانب ثقافته ٠

بدليل أن الإنسان الذي عرف الفيل وأدركه، وقد أمكنه تأمل أطرافه، والتعرف على بنائه الجسمي، تعجب فيه وفكر. فإذا رآه مرة أخرى - ولو من بعيد - وسئل عنه أجاب بأنه فيل. نظرا لسابق معرفته به[٥] . وخبرته الكامنة في ذهنه عن جسم الفيل

---

(١) الدكتور ادوارد هوناكيب: العين ومشكلاتها الصحية ، صـ ٤ ، ترجمه محمد أنس الشابوري، سلسلة الطب للجميع ٠

(٢) الظروف الإختلافية من النور والظلمة، الضعف أو القوة ، إلى غير ذلك من الوجوه، كلها عوارض، وهي في الغالب لا تستمر، ولكنها في ذات الوقت لا تقدم أحكاما يقينية أبدا ٠

(٣) وهذه الأحكام محل اتفاق بين الدارسين من أهل الإختصاص أنفسهم، والواقع المشاهد يؤكد ذلك ٠

(٤) جيمس وات:الحواس ودورها في البناء المعرفي، صـ ٢٧ ، ترجمة نها السيوي ٠

(٥) فالمعرفة السابقة هي التي ساهمت في إصدار الحكم الجديد، ومن ثم ففقدانها يمنع من إصدار أحكام لها ذات الخصوصية، وكل معرفة سابقة لها صور في المعقولات الأولى، يمكنها أن تقدم أو تساهم في بناء أحكام معرفية جديدة تتعلق بالمعقولات الثانية، راجع كتابنا: الغزاليات في منطق التصورات ٠

الضـخم، وكونـه من الحيوان أسمر اللون طويل الخرطوم . عريض الأذنين ، إلى غير ذلك من النعوت أوالصفات ٠

أمـا الطفـل الصـغير الذي لم ير الفيل. ولم يعرفه أصلا - حتى وإن كان قد سمع عـنه - فإنـه متى رآه لأول مرة تعجب منه . ولم يتمكن من الحكم مباشرة عليه بأنه فيل. وإنمـا كـل ما يملكه هو الحكم بأن هذا حيوان ضخم الجسم (١) ، وربما راح يتحدث عنه ، ويستغرق في ذكر أوصافه . وقد يؤخذ به أول الأمر . فـيقع له الـخوف . ويسارع للهرب بعـيدا عنه، وقد يفرح به. ويسعى لمعرفته. ومرجع ذلك إلى انعدام الرؤية السابقة له ، ونقصـان المـادة المعرفـية عـنه. من هنا كانت المعرفة الحسية ظنية ونسبية، احتمالية غير يقينية ٠

كذلـك الأذن سـليمة الملكة قد تـسمع العديد من الأحداث، وكما تـستطيع التمييز بـين بعضـها مـتى تـوافرت الشروط التي تـسمح بذلك ، وبخاصة إذا كان بين هذه الأصوات تباين قام على معان أو خبرات سابقة ، كالحال مع صوت عواء الذئب ، وزئير الأسد ، ونهيق الحمار ، وصهيل الحصان، ونقيق الضفدع، وهديل الحمام، وصوت الإنسان، فالأذن السليمة تحـتاج العقـل المدرك المميز(٢) ، وحينئذ يمكنها إعلان الفروق الكبيرة بين هذه الأصوات جميعها ٠

يمكـن القـول بأن أذن العاقل تفترق عن أذن المجنون، وأذن البالغ العاقل تختلف مـن أذن الصغير العاقل في الأحكام ، من حيث أن البالغ متى قدم معرفة حسية كانت قائمة عـلى الـتجربة السـابقة والخـبرات الكامنة ، بجانب الأرصدة المعرفية التي لها صورة من صـور الاسـتقرار في العقـل والوجـدان، بدليل أنك إذا سألت عاقلا بالغا عن هذه الأصوات استطاع التمييز بينها متى كانت أذنه سليمة، وقدم معرفة صحيحة وأحكاما مقبولة ٠

أما إذا كانت أذنه تعـاني من ضـعف الاستقبال في الشبـكة السمـعية، أو تكـاثف

(١) ولا يقوم الحكم عنده على كون هذا الحيوان ضخم الجسم إلا إذا كانت لديه معرفة سابقة بحيوانات أخرى أقل حجما، أو أصغر جسما من الفيل ٠

(٢) وبالتالي، فالأذن وحدها لا تكفي ، وإنما لا بد معها من عقل مدرك مميز، بدليل أن المجنون مع انه له أذنا سليمة كاملة، إلا أنه لا تميز تمييزا تاما نظرا فقدانه الملكة، راجع كتابنا: الغزاليات في منطق التصورات، صـ ١٧٧ ٠

الفضلات الشمعية . أو التهابات داخلية بالأذن الوسطى . أو غيرها. فإن المعرفة الآتية من طريقها تكون ناقصة معرفة بقدر ما في هذه الأذن علل[١] . أو تعاني من اضطرابات وألم .

وإذا افترضنا وجود شخصين في مكان واحد . كل منهما سليم حاسة السمع. بدرجة متساوية . لكن أحدهما بدوي والآخر حضري. ثم أطلقت من مكان بعيد صوتا يعرفه البدوي . ولا يعرفه الحضري. كالحال مع صوت حيوان القنفد . أو التيمية[٢] . ثم طلبت أن يقدم كل منهما إجابة حول الصوت الذي سمعه. كانت إجابة البدوي صحيحة لأنها جاءت بقدر ما في ذهنه من معلومات حول صاحب ذات الصوت. وبقدر ما يتمتع به من سلامة الملكات التي تدفع أرصدتها الذهنية إلى العمل السريع ، وتلافي السلبيات .

أما الحضري فقد يظهر عاجزا عن تقديم آية إجابة . وربما حاول . لكنه في النهاية يلوذ بالصمت . ويهرب ناحية الخوف المقنع بعدم الاهتمام. وربما أتاه القلق ، وقد يندفع إلى تقديم إجابات تقوم على التخمين. فتجيء حاملة الملامح العشوائية . حتى لو كانت صحيحة[٣] . لانتفاء القصد إليها . والمعرفة الدقيقة بها . من هنا كان دور الثقافة والرصيد المعرفي مهما لكل حاسة من الحواس السليمة حتى تكون لها بعض الأحكام الصحيحة والمقبولة .

يقول الدكتور " جوهان " أن الثقافة والرصيد المعرفي يمثلان أمرا مهما في كل مراحل حياة الإنسان العمرية، وبخاصة إذا ارتبط ذلك بقياس درجة كفاءة حاسة من الحواس، أو معرفة درجتها في البناء الثقافي والمعرفي، وكل الحواس الخمس في هذا المجال سواء .

لأننا نستخدم كنها .ولكنها لا تقدم لنا سوى ما يقرب من ٧٠٪ من المعطى المطلوب[٤] ،

---

(١) بدليل أن هذه المعوقات متى تم دفعها عنه، أدرك ما يحيط به، وحاول الإجابة على الأسئلة التي توجه إليه، أو يطلب منه فك رموزها .

(٢) حيوان بري ، صغير، يعيش في الصحراء ، وهو مستأنس،كثير التوالد ، طويل العمر، ويضرب مثالا لكل صغير الحجم كثير التوالد، بزعم أن ذلك تقع فيه البركة .

(٣) ولو عكسنا الأمر، فقدمنا الصوت الذي هو من معطيات الحضري، ولم يكن للبدوي أية معرفة، فإن الحضري سوف يجيب عليه بقدر ما لديه من معرفة، أما البدوي فربما حاول بحكم رغبته في كسر العزلة، ولكنها محاولات تخضع للتخمين، حتى لو جاءت إجابته صحيحة

(٤) ويذهب لوليان إلى أن النسبة المعرفية التي تقدمها الأذن الصحيحة لا تزيد عن ستين بالمائة طبقا لمقياسه الذي عمل به مدة عشرين عاما في العينات العشوائية، والمنتقاة على السواء، راجع للدكتور لويان: القدرات السمعية والمقياس المعرفي ، صـ ٥٣ ، ترجمة نادر فؤاد .

ومن رصيد ثقافتنا ومعرفتنا السابقة يجيء الجزء الثاني. طبقا لجملة من الاستعدادات النفسية والعقلية والبدنية أيضا[١] . وما يقال على حاسة السمع ينطبق على باقي الحواس. لأنها جميعا تعمل في اتجاه يقصد به تحصيل المعرفة وفي صورة من صورها . ثم يحكم عليها بدرجة من درجاتها .

من ثم فإن الوسائل الحسية تجيء درجاتها المعرفية نسبية . ظنية احتمالية في كل المعارف الإنسانية. اللهم إلا إذا تعلقت هذه المعرفة الحسية بالمعجزات الحسية ، فإنها حينئذ تكون مصدرا معرفيا صحيحا. لأن طبيعة المعجزة أدهاش الحاضرين، وأخذ ألباب الشاهدين . ثم إثبات عجزهم عن الإتيان بمثلها فرادي ومجتمعين. فتكون شهادتهم حسية ذات طبيعة جماعية. وبالتالي يصح أن يكون لها القبول لوقوع الإجماع عليها، وعجزهم عن مجاراة النبي فيها، وكون ذلك المعجز مع النبي المختار من قبل الله تعالى[٢] ، مع استمرار التحدي . وبقاء الغاية .

ويعتقد أصحاب الفلسفة الجانتينية أن المعرفة الحسية هي الأصل، ودونها المعرفة النسبية القابلة للأخذ بها والتخلي عنها . لكن من الذي يتخلى عنها؟ والجواب أن الذي يمكنه التخلي عنها هو الذي له اتصال بالروح السامية أو السارية، حيث يكون واحدا من أجزائها، وحينئذ يكون مكانه إدراك المعارف التي تفيض عليه من هذه الكائنات [٣] التي تخلصت من التعلق باللذائذ البدنية ، وتخلت عن كافة الرغبات والشهوات، ومن ثم فهم يعولون على المعرفة الحسية تعويلا كبيرا في مرحلة الإنسان الطبيعي، أو المرحلة العادية من حياة الإنسان ، ويعنون بها التي يقضيها الأفراد العاديون كل واحد منهم أثناء سيره في طريق التقشف والزهد، أو التي يمر بها في هذه الآونة .

---

(١) الدكتور أندرية جيد جوهان: الحواس والطب النفسي، صـ ٤٥ ، ترجمة د. صبحي اسكندر قلته، ط. أولى سنة ١٩٦٤ .

(٢) راجع كتابنا: الغزاليات في النبوات، صـ ٣١٩، وكتابنا : عبد الكريم الخطيب آراؤه الكلامية، صـ ٣٩٥، وكتابنا : الغزاليات في السمعيات : صـ ٤١١ .

(٣) فيضان الكائنات عن بعضها مما يتردد في الأفكار الفلسفية ، وبخاصة التي يبرز مكان الفيض فيها وتتسع مساحته، لكن هذا الفيض المعرفي غير الفيض الكوني، وإن كانت المظاهر الشبهيه بينهما متقاربة في بعض الصور أو المظاهر .

يقول الدكتور " فوزي صبحي " ما من شك في أن الجانتينيين يعولون على المعرفة الزهدية . أو الغفوصية ايضا. ولكنهم يجعلونها بعد الحسية أو في مرتبة ثانية فتكون الحسية. هي البداية . ثم يأتي بعددها حتى يكون قائما عليها[١] . وما دام الأمر كذلك. فإن فكرة التخلي عن دور الحواس في المعرفة يعتبر مخاطرة غير محسوبة. لأن تسجيل الجوانب المعرفية المختلفة. قد تم عن طريق جملة الحواس التي تقوم بهذه المهام جميعا ٠

كما أن الزهادة وأعمال التقشف .بجانب طقوس الحرمان والانصراف عن اللذائذ . كلها جوانب حسية. تصدر عنها معارف آتية بسببها[٢] . ومن ثم فلا يمكن إهمال دور الحواس في المعرفة. ولا يقلل منه كونها ظنية احتمالية . وليست يقينية تأكيديه ٠

أضف إلى ما سبق . أن عمليات التطهر التي يقوم بها الجانتيني نفسه. بل عمليات القهر والحرمان. إنما تتم جميعها من خلال الحواس التي تؤدي أدوارها المختلفة بدرجات متفاوتة. كما أن وسائلهم في دفع أو توصيل أفكارهم للآخرين. قد تمت كلها عن طريق المشافهة والتلقين. بجانب التلقي المباشر . كلها صور حسية أيضا[٣]. ومن هنا يمكن القول بأن المعرفة الحسية لها دور معرفي يساوي دور الرهبنة ويزيد عليه من كل النواحي ٠

والذي أنتهي إليه. أن الفلسفة الجانتينية لم تقدم جديدا في مجال المعرفة الإنسانية ، بل بالعكس. ارتدت للخلف حتى صارت تكرارا للمآسي العقلية التي عاشها الإنسان القديم[٤] حينما كان يربط نفسه بأوهام تناقلتها رؤوس فارغة. ثم أكثر من القيود التي وضعها حول فكره . وجعلها الأصل الذي لا يرجى من ورائه شيء آخر. كما نظر للأساطير نظرة فيها التعالي حتى نالت منه كل الاحترام ، وجميع التقدير. فجاءت نتائج معارفهم غاية في التدني ، محاطة بالسطحية من كل جانب ٠

---

(١) الدكتور فوزي صبحي: الفلسفة الهندية القديمة، صـ ٥٣، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٥ ٠

(٢) ولا شك أن حسية المصدر لا تنفي حسية المعرفة التي تجيء من طريقه ، وإنما تؤكدها من حيث أنها تركز عليها وتعضدها إلى الحد الذي يجعل التخلي عنها أمرا غير مقبول في الدراسات الفلسفية، أثناء بحثها نظرية المعرفة ٠

(٣) راجع كتابنا : نظرية المعرفة عند ابن رشد ، صـ ٩٧، كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد، صـ١٤٣ ٠

(٤) لا يعتبر الارتداد الفكري فلسفة، وإنما تعاملت معه على أنه فلسفة تتعلق بأصحابها والدارسين لها ، لا لكونها فلسفة صحيحة عندي، والفرق بين الاعتبارين كبير جدا ٠

أضف إلى ما سبق انهم في بحثهم المعرفي قد تفرقوا من كل ناحية ، فتارة يعولون على الحواس. وأخرى على الزهد والتقشف والحرمان . وهي راجعة أيضا للحواس. ولم يجعلوا للعقل المكان اللائق به. ولو وضعوه ما لامهم أحد . على أساس أن أحكامه البرهانية يقينية. أو يمكن استعماله في كافة أمور عالم الشهادة التي استطاع الوقوف عليها[١] . والتعرف الجيد لأصولها وقواعدها وارتباطها بعضها ببعض .

وفوق ذلك . فإنهم لم يقدموا مبررات يمكن قبولها في اعتبارهم الوسائل الحسية هي الأصل .ويمكن القول بأنهم رجعوا إلى مدارج الطفولة العقلية .ثم واصلوا السير فيها ناحية الخلف درجة بعد أخرى. معبرين عن شوق دائم للماضي بكل ما فيه من سلبيات وأوهام . ولم تكن فلسفتهم واعتقاداتهم إلا صورة منه . أو مرآة تنعكس الجوانب السلبية عليها من كل ناحية .

من الملاحظ أن مبحث القيم أو الأخلاق من المباحث الفلسفية ، أو هو المكمل لها ، باعتبار أن مباحث الفلسفة العامة ثلاثة هي، مبحث الوجود ، ومبحث لمعرفة ، ثم مبحث القيم ، وقد تناولت المبحثين الأولين ـ الوجود والمعرفة ـ ولم أتناول المبحث الثالث وهو القيم ، فلماذا ؟

والجواب . أن المصادر التي تحدثت عنهم بعضهم ، أهمل هذا الجانب ، كأنه لا وجود له ، وبعضها خلط بينه وبين مصادر المعرفة ، وبعض ثالث سجل فيه شذرات متباعدة يحتاج الوقوف عليها مجهودا كبيرا . وقد اخترت عدم التعرض له في هذه الآونة نظرا لظروفي الصحية ، وإذا يسر الله تعالى الأسباب ، وأعان عليها فربما أعود إليها ، وكل شيء عنده بمقدار .

---

(١) لأن العقل حجة الله تعالى على عباده، بدليل أنه تعالى رفع التكليف عن غير العقلاء في قوله صلى الله عليه وسلم ، رفع القلم عن ثلاثة ،عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق .

أهم مصادر الفصل الرابع

حسب ورودها بأسفل الصفحات

١ - القرآن الكريم

٢ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ·

٣ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب ·

٤ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي أثر الوثنية في اليهودية ·

٥ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي تأليه الديانات الوثنية للآيات الكونية ·

٦ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ·

٧ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي الفلسفة العامة ·

٨ - الدكتور توفيق الطويل أسس الفلسفة

٩ - الدكتور السيد عبد البديع موافي عقيدة الألوهية في الأديان الوضعية ·

١٠ - الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي رياض الأشواق في الميتافيزيقا والأخلاق

١١ - جيرار هولمز المدرسة الجينية وأهدافها الإنسانية . ترجمة حسن صبري ·

١٢ - ول ديورانت قصة الحضارة ، المجلد الثاني ·

١٣- ادوارد هيلفي الديانات الهندية ·

١٤- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي التفلسف دوافعه وبواعثه ·

١٥- انطوان هافير الفلسفات الهندية القديمة ، ترجمة راغب زهدي ·

١٦- ادوارد بونت الروح الخالقة ، ترجمة زكريا فوزي ·

١٧- جورج ساني الفكر الشرقي والاعتقادات القديمة ، ترجمة وفاء صبري ·

١٨- الدكتور محمد غلاب مشكلة الألوهية ·

١٩- الدكتور محمد البهي — الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي .

٢٠- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي — أوراق منسية في النصوص الفلسفية .

٢١- السيد الشريف الجرجاني — التعريفات

٢٢- زامر تريفولد — الاتجاهات الفلسفية في الفكر الشرقي القديم .

٢٣- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي — التفكير الإنساني أصوله ومستوياته .

٢٤- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي — نظرية المثل المعلقة أصولها وتطوراتها .

٢٥- انطوان بل — آلهة التاريخ القديم . ترجمة عليه محمد عبد الرحمن .

٢٦ الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي — تأملات غزالية في الفلسفة الشرقية .

٢٧- أدوارد فيكتور — الميتافيزيقا والطبيعة ، ترجمة عادل صابر .

٢٨- جورج ادوتس — المبادئ الفيزيائية والميتافيزيقية .

٢٩- هيداسون دافي — الحركات الفكرية في الهند القديمة .

٣٠- انجلز هارفي — العقائد والديانات القديمة ، ترجمة عبد الباقي خليل .

٣١- جورج جيرمان — الفكر الهندي القديم في جانبه الفلسفي .

٣٢- رينيه ديكارت — مقال في المنهج . ترجمة الخضري .

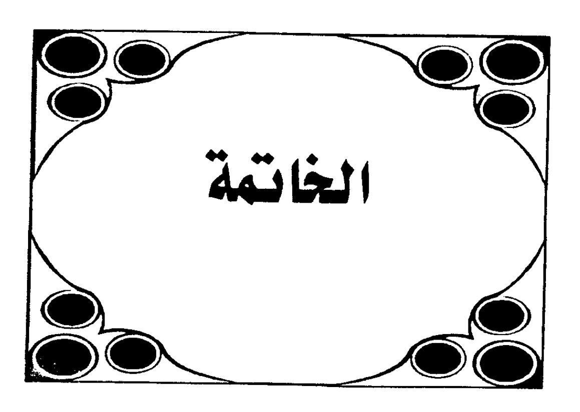
٣٣- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي — المنهجية بين المعقول واللامعقول .

٣٤- الدكتور محمود خير الله — الحركة الجينية في الهند القديمة .

٣٥- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي — الغزاليات في النبوات .

٣٦- جيمس وات — الحواس ودورها في البناء المعرفي . ترجمة نها العيسوى .

٣٧- الدكتور محمد حسيني موسى الغزالي — الغزاليات في منطق التصورات .


الخاتمة

حيث عرضت للجانتينية من حيث التسمية، ثم التاريخ والنشأة، بجانب النظام الطبقي، ثم تناولت العقائد التي اعتقدوها ، والأفكار الفلسفة التي تربعت على إفهامهم. فقد كان من المناسب تقديم الخاتمة ، حيث تكون بمثابة النتائج لأهم الأفكار التي تم الوقوف عليها . باعتبار أن الخاتمة تمثل التلخيص الوافي لأبرز نتائج البحث [١] . وبناء عليه ،اتضح ما يلي :

١ - إن الجانتينية غير الجينية من حيث التسمية والنشأة . كما أن الغيرية بينهما قائمة في الزمان والأفكار . بجانب الأشخاص الذين قادوا كلا منهما . واشتهرت بهم . وهذا مما يدعم فكرتي في ضرورة التعرف الدقيق على كل جماعة أو طائفة ، من خلال الواقع التاريخي. لا من خلال النقله الذين يحطبون بليل، حيث يجمعون كل ما يلاقيهم من غير فحص موضوعي . أو تثبت تاريخي .

٢ - إن الجانتينية قد وجدت في فترة زمانية محددة ، وبالتالي فتاريخ النشأة صار معروفا ، ولا يمكن إهمال هذه القضية ، لأن الأحداث الزمانية حين ترتبط بالأفكار ارتباطا عضويا ، فإنها تقدم فائدة متعددة الجوانب ،أما إذا ارتبطت بها ارتباطا عشوائيا ، أو قائما على مجرد التخمين، فإن أرض الواقع تكون هي نقطة البداية ، في هدم النتائج التي ربما ظن العجول إمكانية وقوفه عليها ، أو أنها سلمت له .

٣ - إن أغلب الدراسات التاريخية في العالم القديم ، قد أكدت وجود تيارات فكرية متعددة في أرض الشرق القديم ، وأن هذه الأفكار كانت تنتقل من منطقة إلى أخرى، وقد أثرت في الفكر الإنساني على مدى زمن متطاول ، وأنها تمددت مع الأيام حتى بات من الصعب حذف أو اختزال آثارها مهما كان غرض الدارس في الجور والإنتقاص .

٤ - إن ارض الهند القديمة، كانت معبرا لتيارات فكرية متعددة ، حملها الغزاة ، سقط بعضها أو كثير منها على سكان هذه البلاد الأصليين ، فأفادوا منها إلى حد بعيد، أو لأنهم لم ينظروا إليها نظرة البغض أو الإعجاب ، وإنما حاولوا الاستفادة منها في كل ما وجدوا أنهم بحاجة إليه .

---

(١) وقد جرى العرف البحثي بأنه لما كانت المقدمة تمثل تلخيصا لأبواب وفصول الكتاب أو الرسالة العلمية، فإن الخاتمة تمثل تلخيصا لأهم النتائج التي توصل إليها البحث وانتهى إليها الباحث .

٥ - إن الأفكار التي وفدت من مصر القديمة، معبرة عن حضارة وادي النيل ، تلاقت مع التي خرجت من بلاد الرافدين. ثم انطلقت في حركة غزو فكري متواصل إلى بلاد الهند القديمة. ونظرا للشهرة التي حظيت بها ذات الأفكار في الماضي البعيد ، فقد وجدت أرضية لها داخل عقول هؤلاء الذين استقبلوها بحفاوة بالغة ، وعناية شديدة ، بحيث يمكن القول بأن الترجمة العملية لهذه الأفكار قد برزت في الواقع العملي داخل الهند القديمة. وهذا مما يفسر وجود تشابه بين هذه الحضارات في بعض الأوجه على اقل تقدير .

٦ - إن حركات المد والغزو التي غطت شبه القارة الهندية، ساهمت في ظهور العديد من الجماعات التي تبنت الكثير من الأفكار التي لم يعرف أصولها ، وبعبارة أخرى ، يمكن القول بأنه لما كانت عمليات الغزو العسكري كثيرة لأرض الهند ، حتى أن أغلب سكانها لم يعودوا من ذوي الأصول القديمة، فقد حدث تلقيح غير متناسق للأفكار أثر في الاعتقادات ، كما تأثرت به السلوكيات ، وكان لذلك آثار عديدة أكثرها سلبي بالنسبة للجانب العقدي على أقل تقدير .

٧ - إن الأنظمة الطبقية التي صاحبت هذه الجماعة كانت صورة غير منظمة ، عبرت عن العديد من الاقتباسات التي سعت إليها الجماعات الهندية القديمة ، كما صارت مظهرا لأوجه الاختلاف الطبقي ، والتباين الاجتماعي والثقافي الذي يمكن أن تعرف نتائجه من خلال ذات المظاهر الطبقية، سواء أكان ذلك في العلم أم في الثقافة ، فضلا عن الفلسفة والاعتقادات التي أمكن الوقوف عليها بالنسبة لهم .

٨ - إن العقائد التي قامت فيهم ، إنما هي نسيج مختلط من عقائد وثنية ،بعضها راجع لفكر شعبي ، وموروثات غير سليمة ، قد تلقاها الناس عن طريق اوهام السوق، ثم أضافوا إليها من أوهام الكهف ، وأغلب العقائد التي جاءت معهم لعب فيها كل ملعب ، أو بطلها الأساسي هو أوهام المسرح [١] ، وقد نعى القرآن الكريم عليها جميعا بالفساد ، دليل ذلك قوله تعالى " إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ،يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا

---

(١) حول هذه الأوهام ، راجع كتابنا : خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ، عند الكلام عن فلسفة فرسيس .

ربـنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا " [١] .

وما تـرتب على هذه الاعتقادات ،إنما هو أثـر من آثارها . ولما كانت هذه كلها فاسدة في أصولها. فإن النتائج المترتبة عليها فاسدة مثلها. وهي داخلة في نقاط الديانات الوضعية الـتي تصـنعها خيالات أصحابها [٢] . ولا علاقة لها بشيء من شرع الله . ومن ثم فإن الذي يقـع له اعتـناقها . يكـون في عـداد الهالكين. لأنه خالف ما جاء من عند الله تعالى . بل اعتـبره كأنـه لم يكـن . وفي نفـس الوقت . أمسك بالأفكار التي جاءت من لدن الشيطان . فهلكوا جميعا . ووقعوا في معصية رب العالمين ٠

٩ - إن الأفكـار الفلسـفية الـتي تـناولوها في مسائل الوجود والمعرفة وعلى النحو الـذي سـلف لم تكـن عـلى المسـتوى اللائق من حيث التناول المعرفي . لأنهم لم يضعوا في حسبانهم الترتيب العلمي المعرفي من ناحية . كما لم يحاولوا مراجعة النتائج التي أذاعوها أو أذعيـت عـنهم. حـتى يتأكدوا من صدقها . أو يتعرفوا اوجه القصور فيها . حتى إذا بان لهم أن بها قصورا عالجوه. أو نقصا تمسكوا به. ثم أضافوا إليه ٠

١٠ - إن مـا ذهبوا إليه من أفكار تتعلق بالمبدأ أو المنتهى . أو قصة نشأة الكون أو الحـياة لم يكونوا سائرين فيها على هدى وبصيرة . وإنما كانوا يتابعون أراء سابقيهم التي انتزعـت انتزاعا غير مألوف . ثم وضعت في غير مواضعها فصارت كالثوب الخلق الذي امتلأ بالـثقوب . ثـم وضـعت علـيه خرق جديدة فلم تـزده إلا سوء . ولم تضف إليه إلا النكارة بجانب سوء المنقلب٠

١١ - إن الأفكـار الـتي انتهيـت إلـيها . والنـتائج التي وقفت عليها . هي بمثابة إطلالـة سـريعة عـلى عالم بعيد ضارب في أحضان الزمان والأفكار . لعلها تفتح الباب أمام دارسي الفكر الفلسفي من المحدثين . بحيث يقع عليه أمر التناول الجاد والهادف ٠

وآخـر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . ربنا واجعلنا عندك من المقبولين . إنك نعم المولى ونعم النصير ٠

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات ٦٤ / ٦٨

(٢) راجـع تفاصيل ما يتعلق بالدين الوضعي في كتابنا : حفيف الأفنان بين الملل والنحل والأديان صـ ٩٨ وما بعدها ٠

الفهرس

اســـم الــكــتـــاب : الجانتينية معتقداتهم وفلسفتهم

اســـم الـــمـــؤلـــف : الاستاذ الدكتور . محمد حسيني موسى الغزالي

رقم الايداع بدار الكتب : [illegible]
الدولي ٩٧٧-[illegible]

كتابة كمبيوتر وطباعة : مكتب المهندس للطباعة والكمبيوتر وتصوير المستندات

الزقازيق ت : ٢٢٩٨٢٤٧ / ٠٥٥